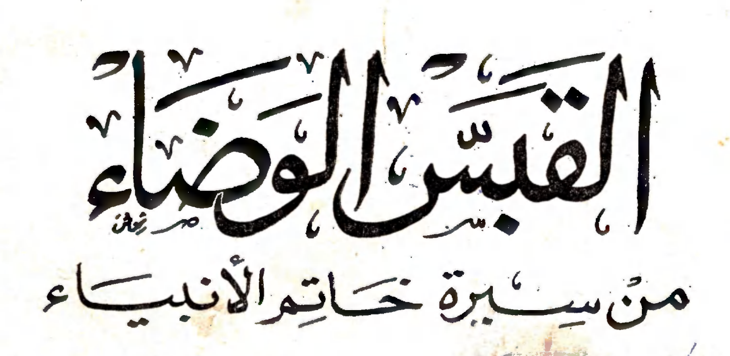
معهد الدراسات الإسلامية



بقلم الأستاذ الدكتور

محمد الطيب النجار

رئيس جامعة الأزهر سابقًا

وعضو مجمعي البحوث البحوث الإسلامية واللغة العربية

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

معهد الدراسات الإسلامية



بقلم الأستاذ الدكتور

محمد الطيب النجار

رئيس جامعة الأزهر سابقا

وعضو مجمعي البحوث البحوث الإسلامية واللغة العربية

دار السعادة للطباعة
١٦ شارع الجداوى - باب الخلق
ت : ٥١٠٨٣٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

منذ أشرقت الأرض بنور محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وسيرته الوضاءة العطرة ملء الأسماع والأبصار ، وعبير الأفئدة والقلوب ، يرويها الخلف عن السلف ، وتتناقلها الأجيال على توالى الأزمنة والعصور .

وقد سجلت هذه السيرة المباركة فى كتب يضيق بها الحصر والتعداد ، وسوف تظل الكتابة فيها متصلة الحلقات إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . . وإنما يتميز كاتب عن سابقه ، ويختلف سابق عن لاحقه ، بما يتوفر لبعضهما من ظروف لا تتسنى لغيره ، وبما يمنح الله واحداً منهما من بصر وبصيرة يضيئان له الطريق ، فيرى أحيانا ما لا يراه غيره ..

ومهما كانت الأبصار والبصائر ، فلن تستطيع أن تكشف جميع نواحى الفضل فى شخصية هذا النبى العظيم ، الذى صنعه الله على عينه ، وأدبه ربه فأحسن تأديبه .

وهذا كتاب موجز عن حياة الرسول العظيم ، سيدنا محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - .

وقد قسمناه إلى عدة فصول ، وراعينا فى تقسيمه التسلسل الطبيعى ، الذى تقتضيه سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم منذ فجر حياته إلى أن انتهى يومه الذى قدره الله له فى هذه الدنيا ، ولحق بالرفيق الأعلى .

ونسأل الله أن يسدد خطانا على الطريق ، وأن يلهمنا من سيرة نبيه الكريم العبرة والموعظة الحسنة ؟

د / محمد الطيب النجار

العرب قبل الإسلام

تمهيد :

العرب أمة سامية، لأنهم يرجعون فى نسبهم إلى سام بن نوح عليه السلام ، وهناك آراء كثيرة فى سبب تسميتهم بهذا الاسم .

فقيل سموا عرباً نسبة إلى جدهم يعرب بن قحطان ، ويذهب إلى هذا الرأى فريق من المستشرقين .

وقيل سموا عرباً لأنهم كانوا موسومين بين الأمم بالإعراب وهو الفصاحة والبيان .

وهناك رأى يقول إن كلمة عرب معناها غرب ، وأن العرب إنما سموا بذلك لارتحالهم من وطن الساميين الأصلى وهو ما بين النهرين إلى الغرب ، ولما كانت اللغة السامية لا غين فيها كانت كلمة عرب مرادفة لكلمة غرب .

وليس للاختلاف فى سبب التسمية كبير فائدة ، إنما المهم ما تدل عليه كلمة العرب من ذلك الشعب المعروف الذى سنتحدث عنه الآن .

الشعب العربى :

تقع شبه الجزيرة العربية فى الطرف الغربى من قارة آسيا ، وهى مستطيل غير متوازى الأضلاع ، شمال فلسطين ، وبادية الشام ، وشرقه خليج فارس وبعض أجزاء من الفرات ، وجنوبه المحيط الهندى ، وخليج عدن ، وغربه البحر الأحمر ، ويبلغ طوله أكثر من ألفى كيلو متر ، وعرضه أكثر من ألف وخمسمائة من الكيلو مترات .

وتنقسم شبه الجزيرة العربية إلى خمسة أقسام : اليمن ، والحجاز ، وتهامة ، ونجد ، واليمامة .

ويتفرع الشعب العربى إلى قسمين كبيرين :

١ - عرب بائدة .   ٢ - عرب باقية .

فالعرب البـــائدة هم الذين هلكوا ، وبادت آثارهم واندثرت قبل الإسلام .

والعرب الباقية هم الذين ينسب إليهم العرب الذين عاشوا بعد الإسلام ، والذين يكونون الشعب العربى الحالى .

ثم تفرع العرب الباقية إلى فرعين عظيمين :

١ - عرب عاربة أو عرباء أو قحطانية ، أو عرب الجنوب ، وهم الذين سكنوا اليمن ، ويرجع نسبهم إلى يعرب بن قحطان من سلالة سام بن نوح عليه السلام .

٢ - عرب مستعربة أو متعربة أو عدنانية أو عرب الشمال ، وهم الذين سكنوا الحجاز فى عصر متأخر عن سكن القحطانيين لليمن ، ويرجع نسبهم إلى معد بن عدنان من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

أحوال العرب قبيل الإسلام

أولا ـ حالتهم الاجتماعية :

ونقصد بذلك :

(ا) حالة المجتمع الذى كان يعيش فيه العرب .

(ب) العلاقات المتبادلة بين أفراد هذا المجتمع .

فأما المجتمع الذى كان يعيش فيه العرب فهو مجتمع قبلى ، كل قبيلة فيه لها سيادتها الكاملة واستقلالها التام عن غيرها من القبائل ، وتسود بين القبائل المختلفة روح العصبية ، فتحاول كل قبيلة أن تستأثر بالنفوذ المادى والأدبى عن غيرها . وهذه العصبية القبلية كان لها أثرها فى إضعاف كيان المجتمع العربى ، إذ انحلت عراه ، وتفككت أوصاله ، وتأخر عن مسايرة الأمم الأخرى التى كانت أقرب منه إلى اجتماع الشمل واتحاد الكلمة كالفرس والروم .

وأما عن العلاقات المتبادلة بين الأفراد الذين يعيشون فى هذا المجتمع فيقتضينا ذلك أن نتحدث ـ ولو بإيجاز ـ عن علاقة الرجل بالمرأة سواء أكانت زوجا أم بنتاً أم أختاً ، وعن علاقته بأبنائه ، وعلاقته بأبناء عمه ، ثم بمن وراء ذلك .

١ — علاقة الرجل بالمرأة :

كانت علاقة مودة واحترام ، تنطق بذلك أشعارهم التى هى السجل الخالد لتاريخهم ، فيقول قائلهم لزوجه :

ياربة البيت قومى غـــير صاغرة
ضمى إليك رجال القـــوم والقربا

فهى فى نظره صاحبة البيت ، وهو إذ أمرها بالقيام يحترس فى أمره فيقول لها : قومى غير صاغرة ، أى قومى وأنت موضع التقدير والاحترام .

وكانوا ينادونها بكنيتها ، وهذا من علامات التقدير فى عرف العرب .

وكانوا يبدأون قصائدهم بالحث عن المرأة ، لأنها تحتل جزءاً كبيراً من تفكيرهم ، بل لقد كان يؤخذ رأى البنت فى زواجها ، كما فعل أوس ابن حارثة الطائى حينما جاءه الحارث بن عوف المرى ، وكان سيداً من سادات العرب ، خاطباً إحدى بناته ، فلقد استشارهن جميعاً ، فرفضت الكبرى والوسطى ورضيت الصغرى فزوجها .

وكانوا يتزوجون على الطريقة التى أقرها الشرع الإسلامى ، كما كانوا يطلقون ، والطلاق بيـــد الرجل ، إلا إذا اشترطته المرأة لنفسها .

وأما ماذكره الله عز وجل من كراهية العرب للبنات فى قوله : (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء مابشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون) .

وما نعاه عليهم من وأدهم للبنات من غير ذنب ، وهو مايشير إليه فى قوله : (وإذا الموءودة سئلت . بأى ذنب قتلت) فالمراد بذلك طائفة خاصة

من العرب ، حصرتهم كتب التاريخ فى بعض بطون من تميم وأسد ، بل فى طبقة منحطة منهم كانت تفعل ذلك خشية الفقر .

وكان هناك من أشراف تميم قبل الإسلام من كره الوأد وعابه ، وكان يشترى البنات ممن يريدون وأدهن بنوق تذهب عنهم الفقر والخوف منه ، كما عرف ذلك من غالب بن صعصعة جد الفرزدق « الشاعر المعروف » .

٢ — علاقة الرجل بأبنائه :

كانت تقوم على أساس المحبة الغلابة التى تتمثل فى قول القائل :

وإنمـــا أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم لامتنعت عينى عن الغمض

وكان يضاعف هذه المحبة الطبيعية بين الأب وأبنائه ، أن العربى يعتز بالعصبية ، ويرى فى بنية درعا يحميه ، وقوة تسمو به وتعليه .

٣ — علاقة الرجل بأبناء عمه وذوى قرباه :

كانت تتمثل فى تلك الحكمة المأثورة « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » وفى قول شاعرهم :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم
فى النائبات على ما قال برهانا

٤ — أما إذا بعدت القرابة :

وتشعبت البطون ، فإن هذه المحبة تنقلب إلى عداوة شديدة بسبب التنافس القبلى الذى أشرنا إليه ، وحينئذ تبرز الأثرة فى شكلها المعيب وتتسعر بين القبائل نيران الحروب ، ومن ذلك ماوقع بين الأوس والخزرج وبين عبس وذبيان ، وبين بكر وتغلب ، إلى غير ذلك .

وبهذا يتجلى لنا أن المجتمع الغربى لم يكن فى درجة من الرقى توازى غيره من المجتمعات الأخرى ، فى نواحى المدنية والنظام العام واتحاد الكلمة ، ولكنه فى الداخل وبالنظر إلى كل قبيلة على حدة ، كانت تسود فيه كثير من الخلال الطيبة والصفات الكريمة .

ثانياً ـ حالتهم السياسية :

لم يكن فى شبه الجزيرة العربية نوع من الحكومات المعروفة فى عصرنا الحاضر ، وإنما كان الحكم فيها قبليا ، فالقبيلة أسرة كبيرة ، ورئيسها له سلطة الأب على الأبناء ، وكان هذا النظام القبلى يشمل معظم أنحاء شبه الجزيرة ، ولم يكن يشذ عن هذا النظام إلا اليمن ، إذ كان يحكمها فى أغلب الأحيان ملوك متوجون .

الملك باليمن :

تشعبت القبائل والبطون من العرب القحطانيين باليمن ، وكان أعظمها قبيلتا حمير وكهلان ، إذ كانتا تتنافسان فى الملك والسطوة ، وقد قسموا البلاد بينهم إلى أربعة وثمانين مخلافا لكل مخلاف رئيس يحكمه ، وكانوا يسمون رؤساء تلك المخاليف(١) بالملوك .

---

(١) المخلاف هو القسم ، ويكاد يشبه المديرية فى عصرنا الحاضر .

ومن أشهر ملوك اليمن « بلقيس » ملكة سبأ ، وهى التى أشار القرآن الكريم إليها فى قوله تعالى حكاية عن قول الهدهد لسليمان عليه السلام : (إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم) .

ومن أشهر ملوك اليمن أيضا « يوسف ذو نواس » وكان يهوديا متعصبا، فاضطهد النصارى من رعيته وأحرقهم بالنار سنة ٥٣٤ م ، وهم أصحاب الأخدود الذين ذكرهم الله فى سورة البروج .

وقد غزا الأحباش اليمن انتقاماً للنصارى ، وهؤلاء الأحباش هم أصحاب الفيل الذين حاولوا هدم الكعبة ، فجعل الله كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول .

نظام الحكم فى البادية :

كان لقبائل العرب رؤساء منهم ، تسودهم القبيلة ، لما يظهر فيهم من المزايا ، كالشجاعة والكرم والحلم ، والثروة وكثرة الأبناء . فإذا وجدت هذه الصفات فى رجل ساد العشيرة كلها ، وصارت تبعاً لرأيه يوجهها أنى شاء ، وتطيعه طاعة عمياء .

وإذا غنمت القبيلة فى حرب أخذ حقوق الرئاسة من هذه الغنيمة ، وهى حقوق تحتمها التقاليد العربية لهؤلاء الرؤساء ، فى نظير ما يتحملونه من تبعات ، وما يواجههم من أعباء .

وهذه الحقوق هى : المرباع ، والصفى ، والنشيطة والفضول .

فالمرباع : هو ربع الغنيمة .

والصفى : مايختاره الرئيس لنفسه قبل القسمة .

والنشيطة : ما أصاب الرئيس فى الطريق قبل أن تقع المعركة .

والفضول : ما فضل من القسمة ، مما لا تصح قسمته على عدة الغزاة ، كالبعير والفرس ونحوهما .

وفى هذه الحقوق يقول الشاعر :

لك المرباع منها والصفايا   وحكمك والنشيطة والفضول

وعلى الجملة فقد كان لهؤلاء الرؤساء فى قبائلهم مايشبه سلطان الملوك فى رعاياهم ، ولكنهم كانوا لا يتوجون .

الإمارة فى مكة :

كان يلى أمر مكة ولاة من جرهم . وهم الذين صاهرهم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام . وكان أبناء إسماعيل يعيشون مع أخوالهم الجراهمة ، ويتمتعون بنفوذ عظيم ، وإن لم يكن لهم من الحكم شىء .

ولما ارتحلت خزاعة من اليمن بعد انهدام سد مأرب ، قصدت إلى مكة وحاربت قبيلة جرهم ، فانتصرت عليها وأجلتها عن مكة . وفى ذلك يقول قائلهم :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا   أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا   صروف الليالى والجدود العواثر

وقد استمرت خزاعة فى ولايتها على مكة حتى قويت قريش وتغلبت عليها فى القرن الخامس الميلادى ، فاستولى قصى بن كلاب على أمر مكة والبيت الحرام سنة ٤٤٠م ، وأجلى خزاعة عنها بما كان له من العصبية القوية ، ومن ثم عظم نفوذه وأصبح الرئيس الدينى للبيت الحرام الذى كان يفد إليه العرب من كافة أنحاء الجزيرة(١) .

---

(١) كان العرب قبل الإسلام يحجون إلى البيت الحرام وكانت آلهتهم منصوبة حوله لكل قبيلة صنمها الخاص بها .

وكان لقصى من مظاهر الرئاسة أربعة أمور :

١ ـ رئاسة دار الندوة ، حيث يتشاور الكبراء وذوو الرأى فى مهام الأمور .

٢ ـ اللواء ، فكانت لا تعقد راية الحرب إلا بيده .

٣ ـ الحجابة : فلا يفتح باب الكعبة إلا هو أو نائبه ، وهو الذى يلى أمر خدمتها .

٤ ـ السقاية والرفادة : وهى سقيا الحجيج وإطعامهم ، وكان له ولأعوانه من ذلك فوائد كثيرة مادية وأدبية .

وظلت تلك الرئاسات والمزايا فى أيدى أبناء قصى وأحفادهم ، وهم أجداد الرسول وأعمامه وبنو أعمامه يقتسمونها فيما بينهم حتى جاء الإسلام والأمر على ذلك .

ثالثاً ـ حالتهم الاقتصادية :

بلاد العرب غنية بمواردها الطبيعية ، ففيها الذهب الأسود والأصفر ، وفيها من العيون والآبار والأودية الخصبة ما يكفى لسد حاجتهم ، لو تهيأت لها العناية الكافية ، والتوجيه السليم .

ولقد ظلت إلى عهد قريب لا تنتفع بهذه الموارد ولا تستغلها ، فكان الفقر حينئذ يختم على أرجائها ، ثم الوضع الاقتصادى فى عصرنا الحديث اكتشاف منابع البترول ، وارتباط هذه البلاد بالشركات الأجنبية لاستغلال هذه المنابع فتحسنت ثروتها ، وقوى مركزها بين دول العالم .

أما العصر الجاهلى الذى نؤرخه ، فالكلام عن الحالة الاقتصادية فيه ينحصر فيما يأتى :

١ — التجارة :

وهى الأساس الأول للثروة فى بلاد العرب . وقد كانت لهم أسواق شهيرة يجتمعون فيها من كل صوب لشراء ما يبغون ، وبيع ما يحصلون عليه من موارد بلادهم .

وكان لقريش رحلتان تجاريتان ، إحـــداهما لليمن فى زمن الشتاء ، والأخرى للشام فى زمن الصيف ، وعن طريق هاتين الرحلتين كانت تنقل حاصلات شبه الجزيرة العربية إلى الممالك المجاورة ، وهى حاصلات متنوعة كالتوابل ، والصبر ، والصمغ ، واللبن ، والحناء ، والسيوف اليمنية ، واللؤلؤ المستخرج من خليج عمان ، ولكنها كانت قليلة الكمية ولا تكفى لإسعاد العرب ورفاهيتهم .

وكذلك كانت تنقل حاصلات الممالك المجاورة إلى شبه الجزيرة بطريق القوافل .

ولم يكن للعرب نقود يتعاملون بها ، وإنما كانوا يتعاملون بنقود الدولتين المجاورتين لهما وهما الفرس والروم .

٢ — الزراعة :

كانت الزراعة منتظمة فى بلاد اليمن ، أيام كانوا يختزنون مياه الأمطار خلف سد مأرب ، وينظمون الرأى عن طريق هذا الخزان ، فكانت الثروة الزراعية تتدفق فى تلك البلاد حتى سميت بالأرض الخضراء أو البلاد السعيدة ، وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى :

(لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور) .

ولكن بعد أن انهدم سد مأرب بسيل العرم ، جف منبع الخير ، وتدهورت الحالة الاقتصادية .

وأما سائر البلاد فى شبه الجزيرة فيعيشون على المراعى ، وتتوقف ثروتهم على ماتجود به السماء من المطر ، هذا إذا استثنينا بعض الأماكن التى توجد فيها بعض العيون الجارية ، وذلك كالطائف ، ووادى فاطمة ، ومثل هذه الأماكن توجد بها الخضر والفواكه ، ولكنها لا تسد حاجة البلاد ، وتعتبر النخلة ملكة الأشجار العربية ، فهى توجد فى معظم نواحى شبه الجزيرة ، وتلتج أنواعا من أحسن أنواع البلح فى العالم ، وقد ذكر كتاب العرب القدامى أكثرمن مائة صنف من البلح ، وفى معظم الواحات يزرع التين . والعنب ، والرومان .

٣ — الصناعة :

كان العرب ـ ولا يزالون ـ أبعد الأمم عن الصناعة ، حتى أن البدو منهم كانوا يحتقرونها ويعيبون المحترف بحرفة ، وقد كانت فى بلاد اليمن صناعة دبغ الجلود ، وكان نساء العرب كافة يشتغلن بغزل الصوف . وكان العرب يرجعون فى صناعة البناء إلى عمال من الفرس والروم ومن الطبيعى أن يكون لهذا التأخر فى الصناعة أثره فى إضعاف الناحية الاقتصادية بهذه البلاد .

ويتضح لنا مما تقدم أن الحالة الاقتصادية كانت متأخرة فى شبه الجزيرة وعلى الأخص إذا قيست بغيرها من الدول المجاورة .

الفصل الأول

على هامش السيرة

قصة إسماعيل فى مكة :

يجمع المؤرخون على أن إبراهيم عليه السلام قد نشأ فى بلاد العراق بين قوم يتخذون الأصنام آلهة من دون الله . ولما أذن الله له أن يدعو الناس للحق بدأ بأبيه آزر ، فدعاه إلى التوحيد ، وبين له ما فى الوثنية من فساد وضلال .

وقد سجل القرآن الكريم قصة إبراهيم وجهاده فى سبيل القضاء على الوثنية فى سور كثيرة ، ومنها ما جاء فى سورة الأنعام (وإذا قال إبراهيم لأبيه آزر اتتخذ أصناما آلهة ، إنى أراك وقومك فى ضلال مبين) .

وما جاء فى سورة مريم : (واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً . إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا . يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً . يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً . قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا . .) إلى غير ذلك من الآيات الكريمة .

وقد عاش إبراهيم مدة طويلة دون أن يرزقه الله بولد من زوجته سارة . وكانت سارة حزينة من أجل ذلك ، فحملتها شفقتها على زوجها إبراهيم وحبها له أن تهب له جاريتها « هاجر » . وقالت له : إنى حرمت من الولد فعسى الله يرزقك منها غلاماً تقر به عينك .

وقد حقق الله آمال إبراهيم وزوجته سارة ، فحملت هاجر وولدت إسماعيل ، وكان أبوه إبراهيم فى السادسة والثمانين من عمره ، فاشتدت غيرة سارة ـ وتلك طبيعة النساء ـ ولم تطق رؤية هاجر وطفلها إسماعيل ، فصارحت إبراهيم عليه السلام بما تجده فى نفسها ، وطلبت إليه أن يأخذ هاجر وطفلها إلى أرض بعيدة عنها حتى لا تراهما . فتردد إبراهيم فى الأمر شفقة منه على ابنه الصغير .

ولكن الله أوحى إليه أن ينفذ رغبة سارة ، فأخذ هاجر وطفلها بأمر من الله ، وانتقل إلى شبه الجزيرة العربية ، حتى وصل بها إلى المكان الذى نبعت فيه بئر زمزم . وكان وادياً جدباً لا زرع فيه ولا ثمر .

ولما هم بالرحيل قالت له هاجر : إلى من تكلنا ؟ قال : إلى الله وأستودعكما إياه .

فقالت : آلله أمرك بهذا ؟

قال : نعم .

قالت : إذن لا يضيعنا .

ثم انصرف إبراهيم من عندهما وهو يقول : (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) .

وبقيت هاجر مع طفلها ، فنصبت لنفسها عريشا ، وكان معها شىء من الطعام والشراب قد تركه معها زوجها إبراهيم .

ولما نفذ ما لديهما من الماء عطش إسماعيل عطشا شديداً فجعلت أمه تبحث له عن ماء ، وأخذت تتردد بين الصفا والمروة سبع مرات فلم تجد شيئا ، فرجعت آسفة حزينة . ولكن حزنها لم يلبث أن انقلب سروراً واطمئنانا ،

حين رأت الماء ينبع من تحت أقدام إسماعيل ، فشربا وحمدا الله ، وأقاما بهذا المكان . وسمى ذلك المنبع العظيم الذى أكرم الله به هاجر وإسماعيل « بئر زمزم » .

وكان بنو جرهم بواد قريب من مكة ، فلما تفجر ماء زمزم لزمت الطير الوادى حين رأت الماء فلما رأت جرهم الطير لزمت الوادى قالوا ما لزمته إلا وفيه ماء فجاءوا إلى هاجر وقالوا : لو شئت فكنا معك فآنسناك والماء ماؤك ، فكانوا معها حتى شب إسماعيل وماتت هاجر ، فتزوج إسماعيل منهم.

ويذكر المؤرخون أن إسماعيل تعلم العربية منهم هو وأولاده

وقد رزق إسماعيل باثنى عشر ولداً ، وهم وذريتهم العرب المستعربة ، وقد ثبت لدى العلماء أن « عدنان » وهو الجد العشرون « لمحمد بن عبدالله » صلى الله عليه وسلم ، يمتد نسبه إلى « إسماعيل » عليه السلام .

وقد بنى إبراهيم عليه السلام البيت الحرام بعد ذلك ، وعاونه فى بنائه ولده إسماعيل . وكان بناء إبراهيم للبيت الحرام بأمر من الله عز وجل .

وقد ذكر ابن الأثير فى تاريخه أن إبراهيم قال ـ حينئذ ـ لولده إسماعيل: إن الله أمرنى أن أبنى له بيتا .

قال إسماعيل : فأطع ربك .

قال إبراهيم : وقد أمرك الله أن تعيننى على بنائه .

قال : إذن أفعل . فقام معه

وظل إبراهيم يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة .

ثم قال إبراهيم لإسماعيل : ائتنى بحجر أضعه على الركن ليكون للناس علما ، وأخذ حجراً من جبل أبى قبيس ، وقيل إن جبريل أخبره بحجر هو الحجر الأسود ، فأخذه ووضعه فى موضعه . فلما ارتفع البنيان كان إبراهيم

يقف على حجر وإسماعيل يناوله . وهذا الحجر هو مقام إبراهيم وهكذا تعاون إبراهيم وإسماعيل حتى رفعا قواعد البيت ، وأتما بناءه(١) .

وقد استجاب الله دعاء إبراهيم عليه السلام حينما طلب من ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوى إلى ذريته الذين أسكنهم بواد غير ذى زرع عند بيت الله المحرم ويرزقهم من الثمرات

استجاب الله له ووجهه لتحقيق ذلك بقوله : (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير)(٢) .

فأذن إبراهيم بالحج ، ولبى الناس نداءه ، وأصبح البيت الحرام منذ ذلك الحين مثابة للناس ، يفدون إليه من كل مكان وفى كل زمان .

الديانة فى شبه الجزيرة العربية :

هذا الكون العجيب الذى لا تدرك أسراره ، ولا تسبر أغواره ، يوحى إلى العقل بالتأمل ، ويصل بكل من يتأملون فيه إلى نتيجة حتمية ، وهى أن الأثر يدل على المؤثر ، والصنعة تدل على الصانع ، ووجود المخلوق يؤكد وجود الخالق .

ولكن من هو هذا الخالق ؟ وماهى حقيقة هذا الصانع الذى أوجد هذه الصنعة وأبدع هذه الآثار ؟؟

---

(١) الكامل لابن الأثير بتصرف جـ ١ ص ٦١ المطبعة المنيرية .
(٢) سورة الحج ٢٧ ، ٢٨

كل هذه الأسئلة تحتاج إلى جواب . وتلح على الإنسان منذ وجد ، ليظهر له الحق الذى يرضيه ، ويرشده ويهديه .

ولقد مرت على الإنسانية منذ القدم فترات مظلمة ، كان الناس فيها يتخبطون فى الضلالة ، ولا يعرفون لهم هدفا واضحا يتجهون إليه ، حتى لقد أوحت إليهم عقولهم القاصرة بفروض واحتمالات لم تلبث أن استقرت فى نفوسهم ، وتوارثها أبناؤهم جيلا بعد جيل ، وقبيلا فى إثر قبيل .

فمنهم من عبـــدوا الشمس . ومنهم من عبـدوا القمر أو النجوم والكواكب ، إلى غير ذلك من العبادات الفاسدة ، التى لا تقوم على أساس متين ، ولا تخضع لمنطق سليم .

ومن هنا كانت حاجة البشر إلى الرسل والأنبياء ، ليكونوا سفراء بين الخالق وبين عباده ، يكشفون لهم الطريق الصحيح إلى عبادة الله ، على هدى وبصيرة .

ولقد كان إبراهيم عليه السلام من الأنبياء الذين اصطفاهم الله لهداية الناس إلى الحق وإلى العبادة الصحيحة . وانتشرت دعوته السمحاء بين أولئك الذين نشأ فيهم ولده إسماعيل عليه السلام من العرب المستعرب به ، ومن قبيلة جرهم ومن يجاوورنهم فى ذلك الحين .

فكانوا يعبدون الله وحده ، ولا يشركون معه غيره .

ولكن تغيرت الأحوال ، وتسربت الوثنية بعد ذلك إلى الجزيرة العربية ، فاتخذوا الأصنام آلهة وعبدوها من دون الله .

فما هى الأسباب التى أدت إلى هذا التحول الخطير ، ووصلت بالعرب إلى هذا المصير ؟

ويمكننا أن نتلمس الجواب على هذا السؤال مما ذكره ابن الكلبي فى

كتابه الأصنام ، فقد ذكر لذلك سببين : أحدهما يبين مبدأ دخول الوثنية فى الجزيرة العربية . وثانيهما يبين سبب انتشارها فيقول :

إن عمرو بن لحى الخزاعى كان حاجب الكعبة ، ثم مرض مرضا شديداً . فذهب إلى البلقاء فى الشام ليستحم فى ماء هناك ، فاستحم وبرأ ، ووجد أهل البلقان يعبدون الأصنام ، فقال : ماهذه ؟ قالوا : نستسقى بها المطر ، ونستنصر بها على العدو ، فسألهم أن يعطوه منها ، ففعلوا . فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة(١) .

ثم يقول فى موضع آخر : وكان الذى سلخ بالعرب إلى عبادة الأوثان والحجارة ، أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصبابة بمكة . فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة . تيمنا منهم بها ، وصبابة بالحرم ، وحبا له ، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون . ثم انتهى الأمر إلى أنهم عبدوا ما استحبوا ، ونسوا ما كانوا عليه . واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره . فعبدوا الأوثان ، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم(٢) .

وهذا تعليل حسن فيما نعتقد ، لأنه يبين السبب الذى دعا العرب إلى إقامة الأصنام فى أمكنة بعيدة عن مكة ، مع احتفاظهم لمكة وللبيت الحرام بالتعظيم والتقديس .

ذلك بأن الأصنام التى فى بلادهم لم تكن إلا حجارة من الكعبة ، بنوا لها بيوتا خاصة واتخذوها معابد . . ولما طال الزمن واختلط الأمر عليهم نقلوا معبوداتهم الحجرية إلى الكعبة وملأوها بالأصنام .

---

(١) الاصنام لابن الكلبى ص ٨

(٢) الاصنام ص ٦

وقد ذكر الله عز وجل فى كتابه الكريم بعض هذه الأصنام ، وبين صفة العرب الذين كانوا يقدسونها ، وذلك حيث يقول :

(أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذاً قسمة ضيزى ، إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وماتهوى الأنفس)(١) .

وكان أهل مكة يحجون إلى هذه الأصنام ويقدمون لها القرابين . وكان لا يجوز أن تقتلع أشجار من حماها ، ولا يصاد صيد ، ولا يراق دم آدمى فيه . تعظيما لشأنها ، وتقديساً لها ، حتى أن بعض العرب كانوا يضيفون إليها أسماءهم . فكان عبد العزى من الأسماء الشائعة عندهم ، والمحبوبة لديهم

وكانت الكعبة فى ذلك العصر الجاهلى مقر الوثنية . إذ كانت تحيط بها الأصنام من كل جانب ، وكان أعظمها عندهم « هبل » وهو تمثال من العقيق الأحمر على شكل إنسان مكسور اليد اليمنى ، وقد أدركته قريش وهو على هذا الوضع فصنعت له يداً من ذهب

أما عقيدتهم فى تلك الأصنام فكانوا فريقين : فبعضهم كان يعبدها على أنها تشفع لهم عند الله وتقربهم إليه . ويقولون إذا سئلوا عن الخالق الرازق: إنه هو الله . وإذا سئلوا عن الأصنام يقولون : (مانعبدهم إلا ليقوبونا إلى الله زلفى) وبعضهم كان يعبدها على أنها هى الآلهة التى تضر وتنفع . وتعطى وتمنع ، وهؤلاء هم عامتهم وضعفاء العقول منهم ، وهم الذين أخبر الله عنهم أنهم عجبوا من محمد لأنه جعل الآلهة إلها واحداً .. وذلك فى قوله حكاية عنهم (أجعل الآلهة إلها واحداً ؟ إن هذا لشىء عجاب (٢) .

---

(١) سورة النجم آية ١٩ وما بعدها .
(٢) سورة ص آية ٥

وكان هناك قوم فى اليمن يعبدون الشمس، وهم الذين ذكر الله قصتهم فى القرآن الكريم مع سليمان عليه السلام فى قوله تعالى حكاية عن الهدهد :

(فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون)(١)

كما كان هناك طائفة من العرب يعبدون النار وهم المجوس ، وقد انتقلت إليهم هذه الديانة من الفرس الذين كانوا يجاورونهم .

وكذلك كانت توجد اليهودية فى يثرب وخيبر ، والمسيحية فى الحيرة وغسان .

وهكذا كانت توجد فى شبه الجزيرة العربية أديان مختلفة ، إلا أن الوثنية كانت هى السائدة ، إذ كانت تدين بها الغالبية العظمى والأكثرية الساحقة ، حتى يمكننا أن نقول عن العرب حينئذ غير مبالغين: إنهم كانوا قوماً وثنيين .

ومن الإنصاف لهذا العصر أن نقول : إن هناك أفراداً قلائل قد استطاعوا بين هذه الظلمات المتكاثفة أن يصلوا إلى طريق الحق ، ويهتدوا إلى فساد عبادة الأصنام بعقولهم ، ويدركوا أن هناك إلها واحداً لاشريك له ولامعقب لحكمه ، وهؤلاء هم الحنفاء ، أى الذين مالوا عن الباطل واتبعوا الدين الصحيح .. ومنهم زيد بن عمرو بن نفيل ، وهو ابن عم عمر بن الخطاب ويذكرون عنه أنه ترك عبادة الأصنام وصار يطوف ببلاد العرب وما جاورها يبحث عن دين إبراهيم عليه السلام ، حتى هداه الله إلى الحق . .

وهو الذى قال بعد أن ترك أن عبادة الأصنام :

(١) سورة النمل آية ٢٢ — ٢٤

أرب واحد أم ألف رب أدين إذا تقسمت الأمور

تركت اللات والعزى جميعا

كذلك يفعل الرجل البصير

فلا العزى أدين ولا ابنتيها

ولا صنمى بنى عمرو أزور

ولكن أعبد الرحمن ربى

ليغفر ذنبي الرب الغفور

وقد شاء الله أن يموت زيد قبل البعثة النبوية بقليل .

ومهما كان الأمر فهم قلة ضئيلة ، ضاقت نفوسهم بالوثنية الفاسدة ، فانطلقوا إلى الآفاق الرحبة الفسيحة « يلتمسون الهدى » ويرجون الحق لذاته فأدركتهم رحمة الله ، وصاحبتهم عنايته ورعايته ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

عام الفيل والطير الأبابيل :

وهو العام الذى ولد فيه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من الأعوام الخالدة فى تاريخ العرب ، لأنه يقترن فى نفوسهم بذلك الحادث العجيب الذى نصرهم الله فيه على أعدائهم من الأحباش الظالمين ، وتجلت حينئذ آية الله الكبرى التى سجلها القرآن الكريم فى سورة كاملة من سوره .

ويذكر الرواة فى ذلك أن الأحباش ـ وكانوا يدينون بالمسيحية أرادوا أن ينشروا هذا الدين فى جزيرة العرب بعد أن استولوا على اليمن . وخصوصا لما رأوه فى تقديس العرب لمكة وسيرهم إليها فى إجلال وطاعة

حاملين الهدايا والهبات إلى سدنتها الذين يدينون بالوثنية [illegible] القائد الحبشى فى بلاد اليمن ويسمى « أبرهة الأشرم » ببناء كنيسة سماها « القليس » وبذل لها ما استطاعه من العناية حتى انه نقل إليها من قصر بلقيس الأعمدة من الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب . ونصب فيه صلبانا من الذهب والفضة ، ومنابر من العاج والأبنوس ، ودعا الناس إلى الحج إليها(١) فغضب العرب ، وثار رجل من بنى مالك بن كنانة ، وأقسم ليعبثن بهذه الكنيسة ، وقدم إلى اليمن ودخل الكنيسة كأنه متعبد ، حتى إذا أظلم الليل وخلا المكان ، قام يعبث بأثاث الكنيسة ويلطخ جدرانها بالقاذورات .

ولما علم أبرهة فى الصباح بما أصاب كنيسته ، وعرف أن أعرابيا كان يبيت بها ، وأنه المتهم بالعبث ببنائه المقدس ، حلف ليهدمن الكعبة ، وجهز لذلك العدة والعديد ، والبأس الشديد .

وأقبل جيش الحبشة من اليمن ، فأشرف على مكة بعد أن تخطى إليها التلال والنجاد ، والهضاب والوهاد ، والصحراء القاسية المترامية ، وبعد أن كاد يضل فى شعاب الجزيرة الشائكة ومسالكها المشتبكة . . ثم استقر بمكان قريب من مكة يقال له (المغمس) ، وأرسل القائد الحبشى رسولا من قبله إلى مكة يدعى « حناطة الحميرى » فقال له : سل عن سيد أهل هذه البلاد وشريفها ثم قل : إن الملك لم يأت لحربكم وإنما جاء لهدم هذا البيت ، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة له فى دمائكم . . فإن هو لم يرد الحرب فأت إلى به

فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها ، فقيل له :

---

(١) الأصنام لابن الكلبى ص ٤٧ ، والروض الأنف ج ١ ص ٤٠

عبد المطلب بن هاشم ، فجاءه فأخبره بما أمره به أبرهة ، فقال له عبد المطلب والله ما نريد حربه ، ومالنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يخل بينه وبينه فوالله ماعندنا دفع عنه .

فقال حناطة : فانطلق معى إليه فإنه قد أمرنى بذلك .

فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه ، حتى أتى المعسكر وقف بباب أبرهة ، فقيل لأبرهة : إن عبد المطلب ببابك ، فقال : من هو عبد المطلب ؟

قيل : إنه سيد قريش وصاحب أمر مكة ، وهو الذى يطعم الناس فى السهل ، والوحوش فى رءوس الجبال .

فأذن له أبرهة .

وكان عبد المطلب وسيما جميلا شديد الهيبة والوقار ، فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه وأكرمه عن أن يجلس تحت ، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه .

فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه ، وأجلسه معه عليه إلى جنبه ، ثم قال لترجمانه : سله عن حاجته فسأله الترجمان . فقال : حاجتى أن يرد على الملك مائتى بعير أصابها إلى .

فلما قال له ذلك ، قال أبرهة لترجمانه . قل له : قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتنى .. أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه ؟

قال له عبد المطلب : إنى أنا رب الإبل : وأن للبيت رباً سيمنعه ويحميه

فرد أبرهة قائلا : ما كان ليمتنع منى .

فأجابه عبد المطلب : أنت وذاك .

فرد أبرهة على عبد المطلب المائتى بعير التى أصابها.

وانطلق عبد المطلب إلى قريش ، فأخبرهم الخبر ، ثم تعلق بحلقة الكعبة وأستارها فى ضراعة الخائف الوجل ، وإنابة العائذ المستغيث ، وأخذ يقول :

لا هم إن العبد يمنـــع رحله فامنع حلالك
وانصر على آل الصليـ ـب وعابديه اليوم آلك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبداً محالك
هم جردوا لك جمعهم والفيل كى يسبوا عيالك
إن كنت تاركهم وقبـ ـلتنا فأمر ما بدا لك

ثم طاف بالبيت منشداً والناس معه يرددون :

يارب لا أرجو لهم سواكا
يارب فامنع منهم حماكا
امنعهموا أن يخربوا قراكا
إن عدو البيت من عاداكا

وهكذا لجأ عبد المطلب ، ولجأت معه قريش إلى الله يطلبون عونه وحمايته ثم خرجوا من مكة لكى يتحرزوا فى شعف الجبال والشعاب ، وينتظروا عدل الله مع هؤلاء الطغاة الظالمين .

وتحرك بعد ذلك جيش الأحباش مدلا بعظمته وكبريائه ، وتتقدمه

الفيلة بشكلها المهيب المخيف ، الذى لم تألفه العرب فى حروبها ، وكان عددهم ثلاثة عشر فيلا ، توجهت جميعها فى طريقها إلى الكعبة ، ما عدا الفيل الأكبر منها ، فإنه ظل جامداً فى مكانه ، فإذا وجهوه إلى اليمن أسرع وهرول وإذا وجهوه إلى الكعبة وقف ولم يتحول . وكأن الله قد ألهم ذلك الحيوان الأعجم بما تخبئه الحدثان ، وما ينتظر ذلك الجيش المعتدى من خسف ونكال وهوان .

وما كان مثل هذا الجيش القوى ليغلب أو يتراجع ، لولا قدرة القوى القاهر ، التى تجلت فى هذه الآية الكبرى الباقية على الدهر . إذ أرسل إليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها .. حجر فى منقاره ، وحجران فى رجليه أمثال الحمص والعدس ، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك . وليس كلهم أصابت ، وذعر الأحباش ، واستولى عليهم الرعب والذهول ، فخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذى منه جاءوا . ويسألون عن الطريق إلى اليمن ، فقال أعرابى : رآهم فى هذه الحيرة بعدما أنزل الله عليهم من نقمته :

أين المفر والإله الطالب

والأشرم المغلوب ليس الغالب ؟

وظلوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك ، وأصيب أبرهة فى جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة . وكلما سقطت أنملة خرجت وراءها المدة والدم والقيح الكثير ، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ، فمات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يقولون .

وإلى هذا الحادث العجيب يشير الله تعالى بقوله :

(ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم فى تضليل .

وأرسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول) .

وأحب أن أذكر بهذه المناسبة أن بعض المفسرين من علماء هذا القرن قد جانب الصواب فى تفسيره للطير الأبابيل بأنها الرياح المتجمعة حملت إليهم ميكروب الجدرى ففتك بهم وفى قوله : إن الحجارة من السجيل هى ذرات التراب التى حملت الميكروب ، وذلك لأنه لم يعهد فى لغة العرب أن يقال عن الرياح : إنها طير أبابيل ، أى جماعات من الطير ، ولا ينبغى أن يقال ذلك إلا بطريق مجازى بعيد ، ولا يصح أن يلجأ إلى مثل هذا المجاز مادامت الحقيقة غير مستحيلة على قدرة الله .

ولا يقبل أن يقال أيضا عن ذات التراب إنها حجارة من سجيل . أى من طين مطبوخ وهو الآجر .

وإذا كانت الريح قد حملت ميكروب الجدرى فلماذا هلك الأحباش وحدهم ولم يهلك معهم العرب ؟

وإذا كان حادث الفيل قد وقع عام ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم فمن المعقول أن سورة الفيل قد نزلت على الرسول فى وقت كان يعيش فيه من أهل مكة أناس رأوا حادث الفيل بأعينهم وبعضهم من أعداء الرسول ، فلو لم تكن الطيور طيوراً حقيقية والحجارة حجارة حقيقية ، لظهر من العرب من يسارع إلى تكذيب هذه السورة ويعلن على رءوس الأشهاد . وينتهزها فرصة فى الكيد لمحمد والطن عليه ، ولكن الواقع أن سورة الفيل قد نزلت فتلقاها العرب بالقبول ، لأنها تقرر حقيقة معروفة عندهم لاشك فيها ؛ ولا يجرؤ أحد على إنكارها .

وهكذا حمى الله بيته الحرام من عدوان الظالمين ؛ لأنه البيت العتيق الذى كان مصدر الهدى والنور ؛ منذ رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل عليهما

السلام . . فلما تغيرت الأحوال وعبد العرب الأصنام ، وتركوا النور ، وتخبطوا فى الظلام ، شاء الله ألا يطول عليهم الأمد فى هذا الظلام ، وأراد بهم الخير ، فحمى هذا البيت من عدوان الأحباش ، ليعود إليه مجده التليد ، ويتلألأ النور فيه من جديد ، على يد محمد بن عبد الله ، نبى الإسلام الذى ولد فى هذا العام .

الفصل الثانى

حياة الرسول قبل البعثة

يذكر المؤرخون عن نسب الرسول صلى الله عليه وسلم أنه محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب ابن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة ابن إلياس بن نزار بن مضر بن معد بن عدنان . ويمتد نسبه بعد ذلك إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

وأما نسبه من جهة أمه : فأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ابن كلاب بن مرة . ومعنى ذلك أن نسبه من جهة أبيه ومن جهة أمه يلتقيان فى كلاب بن مرة ، وهو الجد الخامس من جهة أبيه والرابع من جهة أمه .

ولقد تناسل محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه من نكاح مشروع ، ولم يكن فى أجداده من تلوث بسفاح الجاهلية ، بل طهر الله أصوله تطهيراً ، ثم اصطفاه بعد ذلك من هذه الأصول الطاهرة ، ليكون هدى ونوراً ورحمة للعالمين .

وفى ذلك يروى الإمام مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » .

وقد ولد صلى الله عليه وسلم فى مكة فى سنة ٥٧١ م ، وهو العام الذى وقع فيه حادث الفيل على أرجح الأقوال، فكان مولده بشير يمن وبركة ، إذ حمى الله

بيته الحرام من أصحاب الفيل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول .

وكأنما شاءت العناية الإلهية أن يبقى هذا البيت العظيم ليعود إليه بعد ذلك مجده التليد ، على يدى هذا المولود الجديد ولد فى هذا العام ، وهو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

وكان عبد الله بن عبد المطلب قد تزوج من آمنة بنت وهب ، وهى يومئذ من أفضل نساء قريش نسبا ، وأكرمهم ذكراً .

ولكن لم يمكث عبد الله مع زوجته إلا وقتا قصيراً ، ثم خرج فى قافلة تجارية إلى الشام ، بعد أن حملت زوجته . وقد شاء الله أن ترجع القافلة التجارية من الشام ، ويتخلف عبدالله بالمدينة عند أخواله بنى عدى بن النجار لشدة مرضه ، حيث أدركته الوفاة ، وزوجته آمنة فى شهور الحمل الأولى ، وكان عمره ثمانية عشر عاما .

ولما تم حمل آمنة ، ووضعت ولدها ، جاء البشير إلى جده عبد المطلب فأخبره بهذا النبأ العظيم ، ففرح عبد المطلب بهذه البشرى ، وأقبل مسروراً ، وحمل الوليد الصغير بين يديه ، وذهب به إلى الكعبة ليباركه ثم سماه محمداً ، ولم يكن هذا الإسم شائعاً عند العرب قبل ذلك(١) ، ولكن الله ألهم جده بهذه التسمية وقال : سميته محمداً ليكون محموداً عند الله وعند الناس .

---

(١) ذكر ابن سعد فى كتابه « الطبقات الكبرى » أن العرب كانت تسمع من أهل الكتاب ومن الكهان أن نبيا يبعث من العرب اسمه محمد ، فسمى من بلغه ذلك من العرب ابنه محمداً طمعا فى النبوة . ومن هؤلاء محمد ابن خزاعى من بنى سليم ، ومحمد بن سفيان بن مجاشع من بنى تميم (الطبقات الكبرى ج ١ ص ١١١ ، ١١٢) .

رضاعة

وكان من عادة العرب أن يرضعوا أبناءهم خارج مكة ، ويلتمسوا المواضع لهم فى البادية ، حيث الجو الصافى المنطلق ، حتى ينشأ الطفل صافى الذهن صحيح الجسم ، فجاءت المرضعات يلتمس الرضعاء فى مكة فكان محمد ابن عبد الله من نصيب حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية . واسم زوجها أبو كبشة . وقد كان لرضاع محمد أثر محمود فى حياتهم ؛ فاتسعت أرزاقهم بفضل الله ورحمته ، وكان وجوده لديهم خيراً وبركة .

وتتحدث السيدة حليمة عن ذلك فتقول(١) :

خرجت مع زوجى وابن لى صغير فى نسوة من بنى سعد بن بكر نلتمس الرضعاء . حتى قدمنا مكة ، فما امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله محمد ﷺ فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم ، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى ؛ فكنا نقول : يتيم ، وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟ فكنا نتركه لذلك ، فما بقيت امرأة قدمت إلا أخذت رضيعاً غيرى .

فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى : والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعا ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه .

قال : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .

قالت : فذهبت إليه فأخذته ، وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره .

فلما أخذته رجعت به إلى رحلى ، ثم وضعته فى حجرى ، فأقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن فشرب حتى روى ؛ وشرب معه أخوه حتى روى ، وقلم

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٠٩

زوجي إلى شاتنا تلك ، فإذا بها حافل ، فحلب منها وشرب وشربت معه حتى انتهينا رياً وشبعاً ، فبتنا بخير .

قالت : يقول صاحبي حين أصبحنا : تعلمين والله ياحليمة ؟ لقد أخذت نسمة مباركة ، فقلت : والله إني لأرجو ذلك .

قالت : ثم خرجنا وركبت أتاني وحملته عليها معي ، فو الله لقطعت بالركب مايقدر عليها شيء من حمرهم ، وحتى أن صواحبي ليقلن لي : يا ابنة أبي ذؤيب ويحك ! أربعي علينا ، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها ؟ فأقول لهن : بلى ، والله لهي هي ، فيقلن : والله إن لها لشأناً .

قالت : ثم قدمنا منازلنا متى من بلاد سعد ، وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به معنا شباعا لبنا فنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح مراعي بنت أبي ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعا ما تبض قطرة لبن ، وتروح غنمي شباعا لبنا ، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته .

وهكذا تمضي السيدة حليمة في سرد هذه القصة العجيبة التي تدل دلالة قاطعة على يمن هذا الطفل وبركته .

وقد استمرت إقامته بينهم خمسة أعوام رجع في خلالها مرة واحدة إلى مكة ، حينما وقعت حادثة شق الصدر وهو في الثالثة من عمره .

حادثة شق الصدر :

ونخصها بالحديث لأنها كانت حدثا هاما في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم .

إذ وجهت الأنظار إليه وهو فى هذه السن المبكرة ، وقد جرت سنة الله مع أنبيائه أن يكرمهم بالمعجزات الخارقة قبل أن يبعثهم للناس ، حتى تتهيأ العقول بعد ذلك لقبول دعوتهم .

وتذكر الروايات التاريخية عن محمد وهو فى الثالثة من عمره أنه كان مع أخيه من الرضاع فى بهم(١) خلف بيوتهم . فعاد أخوه الطفل السعدى يقول لأبيه وأمه : ذلك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه(٢) ، تقول السيدة حليمة : فخرجت أنا وأبوه ، فوجدناه قائما ممتقعا وجهه ، فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا له . مالك يابنى ؟ قال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى فشقا بطنى فالتمسا فيه شيئا لم أدر ماهو .

وقد خشيت السيدة حليمة على محمد أن يكون قد أصابه شىء ، فأرجعته إلى أمه آمنة وقصت عليها النبأ العجيب ، فطمأنتها آمنة قائلة : إن لابنى هذا لشأنا . فلم أكن أحس أثناء حمله بشىء مما تجده الحوامل ، وقد رأيت وأنا أحمله كأن نوراً خرج منى فأضاء لى قصور الشام .

ثم طلبت إليها أن تعود به إلى البادية مرة ثانية . فعادت به حليمة ، وظل معها حتى قارب الخامسة من عمره .

وتروى كتب السنة والسيرة وقوع هذه الحادثة للرسول صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج .

فلقد روى الإمام أحمد والإمام مسلم عن الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) يقصد أنهما كانا بجوار البهم وهو حظيرة الغنم .

(٢) يقلبانه .

أنه قال : « فرج سقف بيتى وأنا بمكة ، فنزل جبريل ففرج صدرى ، ثم غسله من ماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب مملوء حكمة وإيماناً فأفرغه فى صدرى ثم أطبقه » .

ويختلف رأى العلماء فى معنى شق الصدر ، فيذهب البعض منهم إلى أنه شق حقيقى ، وأنه معجزة وقعت مرتين ، مرة قبل البعثة ، ومرة بعدها ، فأما قبل البعثة فلكى تكون إرهاصاً للنبوة ، وبشيراً بما ينتظر لمحمد صلى الله عليه وسلم من مركز كبير ومقام كريم ، وأما بعد البعثة فلكى تكون معجزة تضاف إلى المعجزات الأخرى التى كرم الله بها نبيه - صلى الله عليه وسلم - والتى تؤيد صدقه فى دعواه .

ويذهب البعض الآخر إلى أن حادث شق الصدر لم يقع حقيقة ، وإنما يقصد منه مايفهم من قوله تعالى (ألم نشرح لك صدرك) فهى بذلك تكون إشارة إلى تطهير الرسول صلى الله عليه وسلم من الشوائب التى توجد فى نفوس الناس ، والسمو به إلى درجة عالية من الطهارات النفسية والخلقية .

ولكن الذى نرتضيه هو أن حادث شق الصدر قد وقع بطريقة حسية ، وأنه من الإرهاصات التى تبشر بنبوة محمد وتسلط الأضواء عليه قبل النبوة ، إذ ليس هناك ما يمنع من ذلك ما دمنا نؤمن بالعناية الإلهية التى تصاحب الأنبياء منذ فجر حياتهم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

عهد الطفولة والشباب :

وهو العهد الذى يبدأ منذ رجع محمد من بادية بنى سعد وهو فى الخامسة من عمره إلى أن بلغ أشده ، وبلغ أربعين سنة ، ونزل عليه الوحى ليكون رسولا نبيا .

وقد مرت بمحمد صلى الله عليه وسلم : فى هذه الحقبة أحداث كثيرة تركت فى نفسه أعظم الآثار ، فكان يذكرها بعد النبوة ويتحدث عنها حديث الحب والشوق ، أو حديث الألم والحزن ، أو حديث الإعجاب والتقدير .

فمن ذلك سفره مع أمه إلى يثرب وهو فى السادسة من عمره لزيارة أخوال جده من بنى النجار . وفى هذه الرحلة رأى محمد قبر والده عبد الله فى يثرب ، فانطبعت فى نفسه معان عميقة ظل يشعر بها طول حياته ، ثم رأى والدته وهو عائد من يثرب إلى مكة يتخطفها الموت ، ويغيب عن عينيه فى أعماق الثرى ، ولا يرى معه فى هذا الظرف العصيب إلا جاريته أم أيمن تضرب به فى البيداء المترامية ، وبين الظلمات المتكاثفة من الخوف والحزن الذى ألم به بعد فراق أمه الرءوم ، حتى تعود به إلى جده عبد المطلب فيتسلمه .

ومنذ عاد محمد إلى جده العظيم عبد المطلب بدأت تزول مخاوفه وأحزانه ، لأنه رأى من عطفه وحنانه ما أنساه ألم اليتيم وعوضه عن فقد والديه . ويذكر الرواة من مظاهر هذا العطف والحنان أن عبد المطلب كان له فراش فى ظل الكعبة ، وكان بنوه يجلسون حول فراشه ، ولا يجرؤ أحد أن يجلس عليه إجلالا له واحتراما ، وكان محمد يأتى وهو غلام حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عن فراش جده . فيقول عبد المطلب حين يرى ذلك

منهم : دعوا ابنى فوالله إن له لشأناً ، ويجلسه معه على الفراش ، ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما كان يصنع .

ولكن القدر لم يمهل عبد المطلب بعد وفاة آمنة سوى عامين ثم أدركته المنية ، ومحمد لا يزال فى الثامنة من عمره ، وقد فزع محمد لفراق جده ، وامتلأت نفسه بالحزن العميق ؛ حتى لقد لفت هذا الحزن أنظار الناس وهم يشيعون عبد المطلب إلى مقره الأخير حيث كانوا يرون محمداً ـ وهو فى هذا السن الصغير ـ يمشى فى جنازة جده مطرق الرأس ، موزع الفكر ، دائم البكاء .

ومع ذلك سفره إلى الشام مع عمه أبى طالب الذى كفله بعد وفاة جده ، وكان خير مثال للعمومة الكريمة والأبوة الرحيمة .

وفى هذا الطريق التقى محمد براهب نصرانى يقال له (بحيرى) ، وكان محمد حينئذ فى الثانية عشرة من عمره ، وكان ذلك بالقرب من بصرى . وهى قرية فى الحدود بين الشام وبلاد العرب ، ويقال إن هذا الراهب أخذ يسأل محمداً عن كثير من أحواله ، وإن محمداً أخبره عن كل ما سأل عنه . فوجد هذا الراهب أن هذه الأوصاف هى أوصاف النبى الذي بشرت به التوراة والإنجيل . وحينئذ قال لعمه أبي طالب : ماهذا الغلام منك ؟ قال : إنه ابنى فقال له بحيرى : ماهو بابنك ، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً ، قال : فإنه ابن أخى ، قال : فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمه حبلى به ، قال : صدقت .

وقد نصح هذا الراهب أبى طالب بألا يوغل بمحمد فى بلاد الشام ، خوفاً عليه من أذى اليهود وشرهم إذا رأوا فيه تلك الأمارات التى تدل على أنه النبى المنتظر .

ولا شك أن هذه الرحلة كان لها أثر كبير فى حياة الرسول صلى الله عليه

وسلم . فلقد وسعت أفقه ، وزادت من تجاربه . وفتحت بين يديه أبوابا من الأمل الواسع فى مستقبل عظيم ، ومجد كبير .

ومن ذلك شهوده حرب الفجار ، وحلف الفضول .

فأما حرب الفجار فقد شهدها محمد مع أعمامه ، وكان عمره خمسة عشر عاما فكان يناول أعمامه السهام أحيانا ويقاتل معهم أحيانا أخرى ، وكانت هذه الحرب بين كنانة وقيس ، وقد انضمت قريش إلى كنانة دفاعا عن قداسة الأشهر الحرم ومكانة أرض الحرم ، واستمرت هذه الحروب أربعة أعوام ثم انتهت بالصلح بين الفريقين .

أما حلف الفضول . فهو ميثاق كريم يدعو إلى الدفاع عن الحقوق وحماية المستضعفين ، وقد عقدته قريش بعد رجوعها من حرب الفجار فى دار عبد الله بن جدعان بمكة ، وتعاهدت فيه أن تحمى الضعفاء والمظلومين حتى يأمن كل إنسان على ماله وعياله ، وقد رفع هذا الحلف مكانة قريش بين قبائل العرب . وكان محمد صلى الله عليه وسلم : وقت حضوره هذا الحلف فى العشرين من عمره ، وقد ترك هذا الحلف العظيم فى نفسه أعمق الآثار ، لأنه حلف إنسانى يدعو إلى الخير ومكارم الأخلاق ، ثم تحدث صلى الله عليه وسلم عنه بعد البعثة فأثنى عليه وقال : « لقد شهدت مع عمومتى حلفا فى دار عبد الله بن جدعان ما أود لو أن لى به حمر النعم(١) ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت(٢) » .

---

(١) حمر النعم : هى الإبل الحمراء وهى أجود أنواع الإبل.
(٢) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٣٦

زواجه من السيدة خديجة :

ثم نقف بعد ذلك عند العام الخامس والعشرين من عمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث يتغير به مجرى الحياة ، وتهيء له الأقدار الزوجة المباركة التى تشاركه فى السراء والضراء ، وفى الشدة والرخاء ، وهى السيدة خديجة رضى الله عنها .

فما هى الظروف التى هيأت لذلك الحادث العظيم ؟

يقول ابن هشام فى سيرته :

« فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم : خمسا وعشرين سنة ، تزوج خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب » .

ثم يقول : « وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه بشىء تجعله لهم ، فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : مابلغها من صدق حديثه ، وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه ، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج فى مالها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار مع غلام لها يقال له ميسرة »(١) .

وقد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرج مع غلامها ميسرة حتى نزل الشام ، وربحت التجارة ربحا عظيما ، وظهرت له بركات قصها ميسرة على سيدته بعد عودتهما ، فأحبت السيدة خديجة محمداً حبا جما من أجل مارأت منه وماسمعت عنه .

ذلك بأنه كان وهو فى طور الشباب ناضج العقل راشد الرجولة ، وكان

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢١١

مع ذلك صادق الحديث أمينا إلى أعلى ما تدل عليه هذه الكلمة من سمو وجلال كان أمينا على نفسه فلم يستسلم إلى شر أو رذيلة ، وكان أمينا على الناس . فلم ينتهك عرضا ، ولم يظلم أحداً ، ولم يفش سراً .

ودارت مراسلات بدأت من جانب السيدة خديجة فى جو من الأدب والحياء والطهر ، وانتهت بالموافقة بين الطرفين .. وتم عقد الزواج بإيجاب وقبول وصداق ، فكان زواجا شرعيا متمشيا مع مابقى حينئذ من دين إبراهيم عليه السلام .

وخطب أبو طالب هذا الزواج فقال : الحمد لله الذى جعل من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بيتا محجوجاً وحرماً آمنا ، وجعلنا الحكام على الناس .

ثم إن محمداً ابن أخى لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به شرفا ونبلا ، وفضلا وعقلا ، وإن كان فى المال قل فإن المال ظل زائل وعارية مسترجعة . وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك(١) .

وكانت خديجة حينئذ فى سن الأربعين ، وقد ظلت مع الرسول صلى الله عليه وسلم : إلى أن بلغت سن الخامسة والستين ، ثم ماتت فى العام العاشر من البعثة النبوية ، وكانت مثلا صادقا للوفاء والإخلاص والأمانة والتعاون أصدق ما يكون التعاون

وقد ولدت للرسول صلى الله عليه وسلم أولاده جميعا ، عدا إبراهيم عليه السلام .

ولدت القاسم ، والطيب ، وفاطمة ، ورقية ، وزينب ، وأم كلثوم ،

---

(١) الروض الانف للسهيلى ج ١ ص ١٢٢ وكان ولى النكاح هو خويلد ابن أسد والد السيدة خديجة . وقيل إنه كان قد هلك وأن الذى تولى إنكاح خديجة هو عمها عمرو بن أسد .

وقد ماتوا جميعاً فى حياته ، عدا فاطمة فإنها ماتت بعد النبى بوقت قصير .

وبعد استقرار حياة محمد صلى الله عليه وسلم بهذا الزواج ، بدأ يفكر ويطيل التفكير فيمن حوله ، فيراهم سادرين فى غيهم ، عاكفين على عبادة أصنامهم ، فلا يعجبه هذا الصنيع ، ولا يروقه هذا المظهر الوضيع ، فيتساءل فى نفسه : كيف يمكن أن يعبد الإنسان العاقل صنما لا يعقل ولا يفكر ولا يسمع ولا يبصر ؟ وكيف يمكن أن يوجد هذا العالم بما يحويه من عجائب وما يحيط به من أسرار دون حاجة إلى موجد عظيم سميع بصير عظيم حكيم ؟

وأشرقت نفسه بهذه الرياضة الروحية العالية ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، أى وقعت كما رآها فى المنام ، ليس فيها أوهام ولا أضغاث أحلام .

ثم حببت إليه الخلوة والانقطاع عن الناس ، فكان يخلو بغار حراء(١) ويتعبد فيه الليالى ذوات العدد . ويحمل معه الطعام والماء ، فإذا فرغ رجع إلى السيدة خديجة ، فحمل مايحتاجه من الزاد ثم ينطلق إلى الغار ليتعبد ، وكانت هذه العبادة على دين إبراهيم ، وقيل كانت بالتأمل والتفكير فى هذا الكون العجيب ، وما يحيط به من أسرار دقيقة تدل على وجود إله قدير (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) .

(إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) .

وحينما أراد الله أن يعلى كلمته ، ويتم على العالمين نعمته ، أذن للحق بالظهور ، لكى يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، فجاء جبريل الأمين إلى

---

(١) هو غار فى أعلى جبل يسمى الآن جبل النور فى طريق الذاهب من مكة إلى منى .

محمد الأمين ، وقد بلغ أشده وبلغ الأربعين ، ودخل عليه الغار ومعه صحيفة ، فضمه ضمة شديدة حتى بلغ منه الجهد ، ثم أرسله وقال له اقرأ ، فأجابه الرسول : ما أنا بقارىء ، وكرر جبريل هذا العمل والقول ثلاث مرات ، والرسول يجيبه بنفس الجواب ، فقال له جبريل :

(اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم)(١) .

وهكذا ابتدأت دعوة الحق نوراً أضاء فى غار تقاس مساحته بالأشبار، ولكن لم يلبث هذا النور إلا قليلا حتى ملأ الأقطار والأمصار ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

---

(١) سورة العلق من ١ - ٥

الفصل الثالث

من البعثة النبوية إلى الهجرة

وقد رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم عقب نزول الوحى عليه يرجف فؤاده ، ودخل على زوجته خديجة وقال : زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، ثم أخبر زوجته السيدة خديجة بما وقع له فى غار حراء وقال لها : لقد خشيت على نفسى ، فطمأنته السيدة خديجة وبينت له أن وراء هذا الحادث خيراً كثيراً حيث قالت له : « والله مايخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

ثم انطلقت به خديجة إلى ابن عمها « ورقة بن نوفل » وكان عنده علم بالكتب السماوية ، فلما سمع من الرسول صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى ، أدرك أن هذا هو الوحى الذى كان ينزل على الأنبياء من قبل ، فبشر محمداً صلى الله عليه وسلم بأنه سيكون نبى هذه الأمة . وتمني ورقة لو يطول به العمر حتى تظهر رسالة محمد فيكون من أنصاره وأعوانه .. ولكن شاء الله أن يموت ورقة قبل أن تتحقق أمنيته . وفتر الوحى بعد ذلك مدة من الزمان .

وقد اختلف العلماء فى هذه الفترة ، وأرجح الأقوال أنها أربعون يوما فحسب ، ولكن هذه المدة على قصرها مرت على الرسول صلى الله عليه وسلم وكأنها أربعون سنة ، ولاعجب فى ذلك فقد اشتد به الشوق لنزول الوحى عليه ، وخاف أن يكون الله قد حرمه من هذه النعمة الكبرى .

ولكن الله تعالى رحم محمداً من هذه الحيرة الأليمة ، فعاد إليه الوحى ،

ونزل عليه قوله سبحانه (يا أيها المدثر . قم فانذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر) .

الدعوة إلى الإسلام :

وكان لابد أن يبلغ الرسول تلك الرسالة الغالية التى حملها إلى الناس ، نذيراً لمن خالف بالعقاب ، وبشيرا لمن أطاع بالثواب ، ومبيناً للناس طريق الحق الذى يوصلهم إلى الخير ، وينأى بهم عن الشر والضلال . فاستجاب له جماعة من أقربائه وأصدقائه الذين أراد الله لهم الخير والهداية ، وهؤلاء هم السابقون الأولون ، ومنهم خديجة بنت خويلد رضى الله عنها ؛ وعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وزيد بن حارثة مولى الرسول ؛ وأم أيمن حاضنته ، وهؤلاء من عشيرة الرسول وأقربائه .

ومنهم أبو بكر الصديق ، وعثمان بن عفان والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص . وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن مسعود وغير هؤلاء ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه .

وكانت الدعوة فى مبدأ أمرها سرية تتم فى الكتمان والخفاء ، حتى لا يقاومها الأعداء وهى لما تزل فى مهدها الصغير ، ثم تطورت بعد ثلاثة أعوام من بدء الوحى حينما نزلت الآية الكريمة (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين)(١) ، واتخذت مظهر الجهرية الصريحة والإعلان العام ، فأصبح محمد يجمع القوم ويكاشفهم بأمر الدين الحنيف ، وقد بدأ بعشيرته الأقربين ، فكلف ابن عمه على بن أبى طالب أن يصنع لهم طعاماً ، ويدعو

---

(١) أى أظهر الدين ولا تلتفت إلى المشركين ولا تبال بهم (الحجر آية ٩٤) .

أهله إليه ، وفيهم عمومته بنو عبد المطلب وأولادهم نحو الأربعين رجلا .
فلما اجتمعوا كلمهم الرسول فى شأن الدعوة الإسلامية وما تنادى به من
نبذ معتقداتهم الفاسدة والإيمان بالله وحده ، فغضبوا وقاطعوا كلامه
وانصرفوا مسرعين .

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يفقد الأمل ، ولم تضعف عزيمته ؛
فأعاد الوليمة ثانية فى الغداة . فلما اجتمعوا قال لهم : ما أعلم أن إنسانا فى
العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، لقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة .
وقد أمرنى ربى أن أدعوكم إليه ، فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر ؟ فأعرضوا
عنه وهموا بتركه .

وكان عجيبا أن ينهض على وهو لا يزال صبيا فيقول : أنا يا رسول الله ،
أنا حرب على من حاربت . وحينئذ ابتسم بنو هاشم وقهقه بعضهم ، وأخذ
نظرهم ينتقل بين أبى طالب وابنه ، ويقولون لأبى طالب فى سخرية : لقد
أمرك أن نسمع لابنك وتطيعه ، ثم انصرفوا مستهزئين .

على أن استخفافهم هذا لم يقعده عن عزمه ، ولم يسلمه إلى يأس ، بل
انتقل بدعوته من عشيرته الأقربين إلى أهل مكة جميعا .

واتجه الرسول صلى الله عليه وسلم نحو الصفا(١) يوما وصعد إلى أعلى
ونادى : يامعشر قريش ، فقالت قريش : محمد على الصفا ينادى ، وأقبلوا
عليه يسألونه عن حاجته ، فقال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا
الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك
كذبا قط ، قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد(٢)، يابنى عبد المطلب

---

(١) جبل معروف فى مكة ، ومنه يبدأ السعى بين الصفا والمروة .
(٢) أى نذير لكم بالعذاب ما دمتم على الباطل .

يابنى عبد مناف ، يابنى زهرة ـ وأخذ ينادى على باقى القبائل ـ إنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا : لا إله إلا الله .

وهنا صاح أبو لهب ـ وكان رجلا بذيئا سريع الغضب ـ تبا لك(١) سائر هذا اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟

فسكت محمد صلى الله عليه وسلم ، ونظر إليه نظرة يملؤها الأسى والأسف ثم لم يلبث أن نزل عليه الوحى بقوله تعالى (تبت يدا أبى لهب وتب. ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارا ذات لهب ...)

وهكذا دمغه الوحى بهذه الآيات البينات التى كانت بمثابة التشجيع للنبى محمد صلى الله عليه وسلم ، كما كانت سابقة فأل ومقدمة بشارة بأن الله سينصر الحق على الباطل ويتم نوره ولو كره المشركون .

ولم يكن ذلك الموقف العدائى من مشركى مكة ليهدىء من حماس الرسول صلى الله عليه وسلم للدعوة والتفانى فى سبيلها ، بل كان حافزا قويا على النشاط فى إذاعتها ، والمضى فى سبيل انتشارها ، مؤمنا كل الإيمان واثقا كل الثقة بأن يدى أبى لهب هالكتان ، وأنه لن يتمكن من العبث بالدعوة والوقوف فى سبيل انتشارها بين أهل مكة .

ولقد أسلم من زهد فى الدنيا ، ومن لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن النظر فى هذه الدعوة الجديدة التى كانت قائمة على التسامح والمحبة والعطف والمودة والتى كان شعارها الحرية الحبيبة إلى نفس كل عربى يسكن شبه الجزيرة العربية ، فلا سلطان لغير الله وحده . أما « هبل » و « اللات » و « العزى » وغيرها من الأصنام فهى لا تنفع ولا تضر ، بل ولا تغنى عن نفسها شيئا .

---

(١) أى هلاكا .

قال الله تعالى : (قل من رب السماوات والأرض قل الله ، قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً . قل هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلمات والنور)(١) .

(قل أتدعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا)(٢) .

(ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وأن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب)(٣) .

موقف قريش من النبي وأصحابه

وكان من الطبيعي أن تقف قريش من الدعوة الإسلامية موقف العداء السافر ، لأنها رأت فيها الخطر الداهم الذى يهدد كيانها المادى والأدبى ، فلقد كانت الكعبة مركز عبادة الأصنام ، وكانت محج العرب ومورد ثروتهم . وكان زعماء قريش يستمدون مجدهم وفخارهم وعزهم وعظمتهم على سائر الناس من صلتهم بالبيت الحرام : وقيامهم على حراسة الأصنام وسقاية الحجاج . كما كانوا يعتبرونها مـــورد رزق وينبوع ثروة بالتجارة التى يحترفونها . فانتصار محمد معناه ضياع سلطانهم الأدبى والمادى ، وهو أعز مايعتمدون عليه فى حياتهم ، لذلك عظم الأمر واشتد ، فصممت قريش على أن تقف من محمد موقف الحزم والصرامة ، وأن تعمل على قتل الدعوة الإسلامية باضطهاد صاحبها ومن اتبعه .

---

(١) سورة الرعد آية ١٩

(٢) سورة الانعام آية ٧١

(٣) سورة الحج آية ٧٣

فأما موقفهم من الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أفاضت كتب السيره فى سرد المساءات التى لقيها الرسول منهم .

ونضرب لذلك بعض الأمثلة عسى أن يكون فيها عبرة وتبصرة ، وعسى أن تكون درساً عملياً يعلم الناس كيف يكون الصبر على البأساء والضراء ، وكيف تكون التضحية المخلصة من أجل المبدأ والعقيدة .

فمن ذلك ماروى عن طارق المحاربى أنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السوق يقول : أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحون ، ورجل خلفه يرميه بالحجارة وقد أدمى عقبه(١) ، ويقول : لا تطيعوا محمداً فإنه كذاب ، فقلت من هذا ؟ قالوا : محمد وعمه أبو لهب .

وكذلك مافعلته زوج أبى لهب ، وهى أم جميل بنت حرب أخته أبى سفيان ، فكثيرا ما كانت ترمى الشوك فى طريقه ، وتلق بالقاذورات النجسة أمام بيته ، ولم تترك عملا فيه إيذاء للرسول صلى الله عليه وسلم إلا وفعلته . وحتى لم تكتف بهذا الإيذاء العملى ، بل كانت تسب الرسول عليه الصلاة والسلام وتذمه ، وتوقع العداوة بينه وبين الناس ، فأنزل الله فى شأنها من كتابه الكريم ما يدل على ما ينتظرها يوم القيامة من سوء المصير حيث يقول :

(وامرأته حمالة الحطب . فى جيدها(٢) حبل من مسد(٣)) .

---

(١) العقب : مؤخر القدم

(٢) فى عنقها حبل من مسد . والمراد أنها تعذب فى النار وهى على هـذا الوضع .

(٣) المسد : ما يفتل من الحبال فتلا شديداً .

«أبو جهل» لعنه الله، فكثيراً ما أساء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد ألقى عليه مرة أثناء صلاته رحم شاة مذبوحة، فتحمل الأذى وذهب إلى بنته «فاطمة» رضى الله عنها فأزالت عنه النجاسة والأقذار، ونهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فى البيت الحرام، فلما لم يلتفت تعرض له بالمنع، فقابل الرسول عمله بالشدة وهدده: فقال: أتهددنى وأنا أكثر أهل الوادى ناديا ومنزلا؟ فرد الله تعالى عليه تهديداً ووعيداً.

(كلا لئن لم ينته لنسفعن(١) بالناصية. ناصية كاذبة خاطئة. فليدع نادية. سندع الزبانية(٢). كلا لا تطعه واسجد واقترب)(٣).

وكان «عقبة بن أبي معيط» يجاور رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منزله، ومما صنعه ذلك الشقى: ما رواه فى صحيحه قال: بينما النبي يصلى فى حجر الكعبة. إذ أقبل «عقبة بن أبى معيط» فوضع ثوبه فى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم فخنقه خنقا شديدا، فأقبل «أبو بكر»، حتى أخذه بمنكبه ودفعه عن النبى صلى الله عليه وسلم وقال: «أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟

وكان «الأسود بن عبد المطلب» ابن عم «السيدة خديجة» كان هو وحزبه إذا مر عليهم المسلمون يتغامزون بهم سخرية واستهزاء. وفيهم نزل قوله تعالى: (إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون. وإذا مروا بهم يتغامزون)(٤)

---

(١) لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها إلى النار.

(٢) المراد بها ملائكة النار

(٣) أى تقرب إلى ربك سورة العلق ١٥ — ١٩

(٤) سورة المطففين آية ٢٩، ٣٠

وغير هؤلاء وهؤلاء ممن عميت بصائرهم ، وطمس الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم ، وقد هلكوا جميعاً بعد الهجرة ، فمنهم من قتل ومنهم من ابتلاه الله بالأمراض الفتاكة فقضت عليه .

وأما عن موقفهم من أصحاب الرسول الذين اتبعوه ، وأيدوه ، فقد كان أشد قسوة وعنفا .

وحسبنا ماروى عن بلال بن رباح رضى الله عنه ، فلقد لاقى من « أمية ابن خلف » أنواعا من الأذى ، وألوانا من التعذيب لا يصبر عليها إلا مؤمن قوى الإيمان ، فكان إذا حميت الشمس وقت الظهيرة يلقيه سيده على وجهه وظهره ، ثم يضع حجرا على صدره ، ويقول له : ستظل هكذا حتى تكفر « بمحمد » وتؤمن باللات ، ولكنه احتمل كل هذه الآلام ، وصبر على الأذى والنكال ، وكلما التمسوا منه جوابا ، لا يرد عليهم إلا بتلك الكلمة التى ملكت نفسه ومشاعره « أحد .. أحد » .

وقد رآه أبو بكر يوما يقاسى أشد العذاب ، فقال لسيده « أميه » ألا تتقى الله فى هذا المسكين ؟ فقال : أنت أفسدته وفتنته عن دين آلهتنا وعبادة أصنامنا ، فعرض عليه أبو بكر ثمنا له . وما زال يساومه حتى اشتراه منه وأعتقه فى سبيل الله ، بعد أن خلصه من تعذيب سيده :

وفى هذا نزل قول الله تعالى :

(فأنذرتكم نارا تلظى . لا يصلاها إلا الأشقى . الذى كذب وتولى . وسيجنبها الأتقى . الذى يؤتى ماله يتزكى . وما لأحد عنده من نعمة تجزى . إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى . ولسوف يرضى)(١) .

---

(١) سورة الليل آية ١٤ — ٢١

والمقصود بكلمة الأشقى فى الآية الكريمة هو أمية بن خلف . والأتقى هو أبو بكر الصديق ، رضى الله تعالى عنه ، وقد نبه الله عز وجل على أن بذل « أبى بكر الصديق » لماله فى شراء بلال وغيره ، لم يكن إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، وكفى بهذا شرفا وفضلا .

وما روى عن عمار بن ياسر وأبيه وأمه رضوان الله عليهم . فلقد كان أبو « ياسر » ، حليفا لبنى مخزوم ، ولما كان عمار وأبوه وأمه واقعين تحت نفوذ المشركين من بنى مخزوم ، فإنهم أوقعوا بهم من العذاب ما لا طاقة لأحد به . فكانوا إذا اشتدت حرارة الشمس ألبسوهم أدرع(١) الحديد وصهروهم فى الشمس . ويالها من قسوة بالغة إذا عرفنا حر « مكة » فى فصل الصيف .

ولقد مر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم فى العذاب فقال لهم : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة . أبشروا آل عمار وآل ياسر فإن موعدكم الجنة » .

وقد مات ياسر فى العذاب ، أما امرأته « سمية » فقد أغلظت القول « لأبى جهل » مرة فطعنها فى قلبها بحربة فى يده فماتت . وشددوا العذاب على عمار بتعريضه للشمس المحرقة بين صخور « مكة » ورمالها تارة ، بوضع الصخر على صدره تارة أخرى ، قائلين له : لا نتركك حتى تسب « محمداً » وتقول فى اللات والعزى خيراً ، ففعل ، فتركوه . فأتى النبى صلى الله عليه وسلم يبكى فقال : ما وراءك ؟ قال : شر يارسول الله ، كان الأمر كذا وكذا ، وقص عليه الخبر . فقال : فكيف تجد قلبك ؟ قال : أجده مطمئنا بالإيمان ، فقال : ياعمار إن عادوا فعد . فأنزل الله تعالى : (من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) .

---

(١) درع الحديد مؤنثة ، وقيل يذكر ويؤنث . ودرع المرأة قميصها .

وكذلك ما روى عن خباب بن الأرت رضى الله عنه . فلقد كان من السابقين فى الإسلام . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبه ويألفه قبل النبوة . ولما أسلم أخذه الكفار وسحبوه على وجهه ، وعذبوه عذاباً شديداً، فنزعوا ثوبه عن جسده وألقوه على الرمضاء(١) . وجاءوا بالحجارة المحماة ووضعوها على ظهره ولووا رأسه ، كل ذلك من أجل أن يعود فى الكفر ، ولكنه لم يجبهم إلى شىء مما أرادوا ، ولم يزده التعذيب إلا إيماناً وتثبيتا .

ولقد اشتكى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مما يقاسيه فى سبيل الله طالبا منه التوجه إلى الله لكى يكشف عن المسلمين هذا الكرب والبلاء . فضرب له الرسول مثلا مما كان يصيب المؤمنين السابقين ، وطمأنه على مستقبله ومستقبل المسلمين .

وفى ذلك يقول خباب : شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برده فى ظل الكعبة ، فقلنا : يارسول الله ، ألا تدعو لنا ؟ ألا تستنصر لنا ؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤتى بالرجل فيحفر له حفرة فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فوق رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه وعظمه ، فما يصرفه ذلك عن دينه . والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون .

بل لقد كان ممن أوذى فى الله « أبو بكر الصديق » رضى الله تعالى عنه على الرغم من مكانته فى قريش . فلقد وجه إليه المشركون كثيراً من الأذى والعنت ، حتى خرج مهاجرا إلى الحبشة . فلقيه « ابن الدغنة » ، وهو من سادات العرب ، فسأله : إلى أين يا أبا بكر ؟ فقال : أخرجنى قومى وإنى

---

(١) الرمضاء : هى الرمل شديدة الحرارة.

أريد أن أسيح فى الأرض وأعبد ربى ، فقال : مثلك يا أبا بكر لا يخرج ، وأنت فى جوارى وحماى .

فرجع مع ابن الدغنة ، وعرفت قريش أن أبا بكر فى جواره وحماه ، فطلبت قريش من حامى « الصديق» أن يأمره بعبادة ربه فى داره ، ولا يجهر بصلاته وقراءته ، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا . فلبث أبو بكر فى داره يعبد ربه ، ثم بدا له أن يبنى مسجدا بفناء داره ، فبناه وكان يصلى ويقرأ القرآن ، فيهرع إليه نساء المشركين وأبناؤهم ينظرون إليه ويستمعون إلى مايقرأ — وكان أبو بكر رجلا بكاء ، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن — فأفزع ذلك أشراف قريش ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة وقالوا له : إن أبا بكر قد أخل بالشروط ، فابتنى مسجدا ، وأسمع الناس صلاته وقراءته ، وقد خشينا الفتنة على نسائنا وأبنائنا : فأتى ابن الدغنة أبا بكر ، وقال له : إما أن تلتزم شرط الجوار ، وإما أن ترجع إلى ذمتى ، فقال « أبو بكر » إنى أرد عليه جوارك ، وأرضى بجوار الله ، وكان ذلك سببا فى أن لحق بأبي بكر الكثير من الأذى والاضطهاد .

هذا إلى جانب ما كانوا يسمعونه من فحش القول واللغو من الكلام أينما كانوا ، فلم يزدهم ذلك إلا استمساكا بدينهم وحرصا على عقيدتهم .

ولا غرو ، فهم لم يدخلوا فى دين الله لغرض دنيوى يرجون حصوله ، بل شرح الله صدورهم للإسلام ، وخالطت بشاشته قلوبهم .

وهكذا كانت تلك الفترة من أروع الفترات فى تاريخ الإسلام والمسلمين وكان هؤلاء الأبطال مثلا عاليا فى التضحية والفداء ، وقوة العزيمة وثبات الإرادة ، فضربوا للناس الأمثال ، وخلدوا ذكرهم بجلائل الأعمال ، ورسموا لأصحاب المبادىء السامية كيف يجاهدون فى سبيل الله ، وكيف يعملون لنصرة الحق وهزيمة الباطل .

وفى خلال هذه الفترة الرهيبة التى مرت بالرسول صلى الله عليه وسلم لجأ المشركون إلى طريقة الإغراء والترغيب، وظنوا أنهم سوف يستطيعون أن يفتنوا محمداً عن دينه ، أو يحولوه عن وجهته ، ولكن لم يعبأ محمد بكل ماقدموه من مغريات ومرغبات ، بل لقد وضعها جميعا تحت قدميه ، وآثر المضى فى طريقه مع مافيه من متاعب وآلام .

ويروون فى ذلك أن عتبة بن ربيعة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : يا ابن أخى ، إنك منا حيث قد علمت من المكان فى النسب ، وقد اتيت قومك بأمر عظيم ، فرأت به جماعتهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها :

إن كنت انما تريد بهذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تصير أكثرنا مالا .

وإذا كنت تريد ملكا ملكناك علينا .

وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ .

فلما فرغ من قوله تلا عليه محمد سورة السجدة ، وأنصت عتبة إلى هذا الكلام المعجز ، والأسلوب الفريد، ثم تأمل فى شخص محمد ، فرأى أمامه رجلا مكتمل العقل ، ناضج الفكر . لامطمع له فى مال ، ولا فى تشريف ، ولا فى ملك ، وإنما يدلى بالحق ، ويدعو إلى الخير ، ويدفع بالتى هى أحسن ، فانصرف عتبة إلى قريش مأخوذاً بجمال مارأى وماسمع ، مفتونا بعظمة هذا الرجل وسحر بيانه . فلما أفضى إليهم بما انطبع فى نفسه نحو محمد من إعجاب وتقدير، غضبوا عليه وسخروا منه ، وقالوا له : سحرك محمد يا أبا الوليد

وكما لجأوا إلى محمد يستميلونه ويغرونه ، فقد لجأوا إلى عمه أبي طالب ، يوغرون صدره على ابن أخيه حتى يتخلى عن نصرته .

وذلك أن رجلا من أشراف قريش ، وفي مقدمتهم أبو سفيان بن حرب ، مشوا إلى أبي طالب فقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فردهم أبو طالب رداً جميلا .

ولكن محمداً مضى في طريق إعلان دعوته ، وازداد مضيه وإقدامه يوماً بعد يوم . فمشت قريش إلى أبي طالب مرة ثانية ، وأخذوا معهم عمارة ابن الوليد بن المغيرة ، وكان أنهد فتى في قريش . وطلبوا إليه أن يسلم إليهم محمداً ويتركوا له عمارة ليتخذه ولداً ، فسخر أبو طالب من رأيهم ولم يجبهم إلى طلبهم .

ولما نفذ صبرهم ، وأعيتهم الحيل ، وطفح أمامهم الكيل ، ذهبوا إلى أبي طالب مرة ثالثة منذرين متوعدين ، فقالوا له : يا ابا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وقد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين .

وقد وجم أبو طالب أمام هذا الموقف الخطير الذي صممت عليه قريش وأصابه هم عظيم . ولا غرو فقد أصبح بين أمرين أحلاهما مر ، فإما أن يترك ابن أخيه لقريش تنزل عليه النقمة والعذاب وتفعل معه ما تشاء حتى تقضى على دعوته . وإما أن يقف وجها لوجه أمام قريش في حرب دامية لا يدرك مداها ولا يعرف نهايتها .

ومن أجل ذلك كله فإنه استدعى محمداً صلوات الله عليه ، وقص عليه الموقف الأخير الذي انتهت إليه قريش ، ثم قال له : فابق علىّ وعلى نفسك يا ابن أخى ، ولا تحملني من الأمر مالا أطيق » .

وهنا يتجلى الإيمان فى أروع صوره وأسمى مظاهره . ذلك بأن محمداً توقع أن عمه سيخذله أمام هذا الضغط العنيف من قريش ويسلمه إليهم ، فنظر فى هذا الأمر من خلال المعانى العميقة التى انطبعت فى نفسه بعد نزول الوحى عليه ، والحصانة القوية التى أفرغتها العناية الإلهية فى قلبه .

وحينئذ هان كل شىء فى هذا الوجود أمام أداء تلك الرسالة الكبرى التى كرمه الله بها ، وقال كلمته المأثورة : « والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » .

وقد عجب أبو طالب لهذا الموقف الرائع من ابن أخيه ، وثارت فى نفسه عاطفة قوية غلابة لمؤازرته فى هذه المحنة الأليمة ، فقال له ـ وقد رآه يخرج وينصرف ـ : أقبل ، ثم قال له : اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشىء تكرهه أبداً .

أجل ، أصر أبو طالب على الدفاع عن ابن أخيه محمد ، وأخبر بنى هاشم وبنى المطلب عن قول محمد وموقفه . ثم دعاه إلى حمايته ، وطلب منهم أن يمنعوه من قريش ، فاستجابوا له جميعاً ، إلا « أبا لهب » فإنه أمعن فى غيه وضلاله ، وصارحهم بالعداوة للدعوة الإسلامية وصاحبها وأنصارها .

وفى ذلك يقول أبو طالب من قصيدة طويلة :

ولما رأيت القوم لا ود فيهم ... وقد قطعوا كل العرى والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى ... وقد طاوعوا أمر العدو المزايل(١)
صبرت لهم نفسى بسمراء سمحة ... وأبيض عضب من تراث المقاول(٢)

---

(١) المزايلة : المفارقة .

(٢) يقصد الاستعداد للحرب بالرماح والسيوف البيضاء التى تركها الفصحاء .

وأحضرت عند البيت رهطى وإخوتى(١)
وأمسكت من أثوابه بالوصائل

هجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة :

بدأت هذه الهجرة فى السنة الخامسة من البعثة النبوية ، وذلك بأن النبى صلى الله عليه وسلم قد عز عليه أن يرى أتباعه يتعرضون للسخرية والازدراء حينا ، وللتعذيب والاضطهاد حينا آخر ، فأشار عليهم بأن يتفرقوا فى الأرض فراراً بدينهم . فسألوه أين نذهب ؟ فأشار إلى الحبشة المسيحية ، لأن فيها ملكا لا يظلم أحد عنده(٢) فخرج إليها بعض المسلمين . وكان خروجهم على مرتين .

ففى المرة الأولى خرج أحد عشر رجلا وأربع نسوة ، ومنهم عثمان ابن عفان ، وزوجته رقية ابنة النبى صلى الله عليه وسلم ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان ابن مظعون ، والزبير بن العوام ، وعبد الله بن مسعود ، وقد خرجوا متسللين سرا . ولما وصلوا إلى البحر الأحمر ركبوا سفينة أوصلتهم إلى الحبشة ، فأقاموا فى خير جوار من النجاشى ، ولكنهم رجعوا بعد ثلاثة أشهر إلى مكة ، لأن الإقامة لم تيسر لهم ، ولأنهم علموا أن المسلمين فى مكة قد أصبحوا فى مأمن من قريش بعد إسلام حمزة وعمر .

وكانت هذه الفترة القصيرة التى قضاها هذا العدد القليل من المسلمين فى الحبشة ذات أثر بالغ فى مستقبل الدعوة الإسلامية ، فلقد أقنعت المشركين أن أتباع محمد يقابلون الصعاب بصدر رحب من أجل دينهم ، وأنهم مصممون على التضحية مهما عظمت فى سبيل الله ورسوله .

---

(١) رهط الرجل : قومه .

(٢) كان بين الحبشة ومكة تجارة واسعة تحملها قافلة سنوية ، وكان يحكمها النجاشى واسمه وقتئذ أصحمة ، والنجاشى اسم لكل ملك يحكم الحبشة .

إسلام حمزة وعمر

وفى هذه الفترة العصيبة حيث كان المسلمون يحيط بهم الضعف والخوف ويئنون من ظلم المشركين وطغيانهم ولا يجدون ملجأ من البأساء إلا إلى الضراء .

فى هذه الفترة أسلم حمزة بن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم وأسلم من بعده بأيام معدودة عمر بن الخطاب رضى الله عنه. فكان إسلامهما فتحاً وأساساً متينا أعز الله به الإسلام والمسلمين .

فأما عن إسلام حمزة : فلقد كان فى مبدأ أمره عن حمية واندفاع . وبسبب العصبية القبلية التى كانت تمتلىء بها نفوس العرب في ذلك الحين ، ولكن لم يلبث أن شرح الله صدره للإسلام ، فمضى فى طريق الحق لا يخشى فيه لومة لائم ، وجاهد فى سبيل الله حتى قضى نحبه ولقى ربه .

وقد كان إسلام حمزة فى السنة السادسة من البعثة النبوية . وذلك أن أبا جهل مر بمحمد صلى الله عليه وسلم يوما عند « الصفا » فسبه وشتمه وأسمعه ما يكره ، فأعرض عنه النبي ، ولم يرد عليه بكلمة ، وكان حمزة رجلا قوياً ذا ولع بالصيد ، فلما رجع من صيده فى ذلك اليوم علم بما أصاب ابن أخيه من سفاهة أبى جهل ، فامتلأ غضباً وذهب إلى الكعبة ولم يقف مسلما على أحد ممن كان عندها ، وقصد أبا جهل فهجم عليه وقال له : كيف تسب « محمدا » وأنا على دينه ؟ وضربه بقوسه وتحداه . وأراد رجال من بنى مخزوم أن ينصروا أبا جهل فمنعهم حسما للشر معترفا بما وقع منه « لمحمد » ثم أعلن حمزة إسلامه ، وعاهد النبي على النصرة والتضحية فى سبيل الله حتى النهاية(١) .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٨٥ ، والكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٥٦

وتألمت قريش وأصابها هم عظيم بإسلام حمزة ، فقد عرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عز وامتنع بإسلام هذا البطل .

وأما عن إسلام عمر : فقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى مبدأ أمره من ألد أعداء الإسلام ، وأشد الناس خصومة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقد صمم يوماً على قتل الرسول صلى الله عليه وسلم ليقضى على الدعوة الإسلامية ، ولكن الله أراد به الخير ، فشرح صدره للإسلام ، ثم لم يلبث أن صار من أحب الناس لرسول الله ، وأشدهم تفانيا فى نصرة الحق ، وإعلاء الدين الحنيف .

وإليك ماذكره المؤرخون عن إسلامه :

خرج عمر يوما متوشحا بسيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقيه نعيم بن عبد الله ، فقال له : أين تريد ياعمر ؟ فقال ؟ أريد « محمداً » هذا الصابىء الذى فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فأقتله ، فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك ياعمر ، أترى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ فقال : وأى أهل بيتى ؟ قال ابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب زوجته ، فقد ـ والله ـ أسلما وتابعا محمداً على دينه . فعليك بهما .

فرجع عامداً إلى أخيه وزوجها وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها « سورة طه » يقرئهما إياها . فلما سمع صوت عمر اختفى خباب فى البيت ، وأخفت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب . فلما دخل قال : ماهذه الهينمة(١) التى سمعت ؟

---

(١) الهينمة : الصوت الخفى .

قالا له ماسمعت شيئاً .

قال : بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه ، وبطش بسعيد بن زيد ، فقامت إليه فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها ، فضربها .

فلما فعل ذلك قالت أخته وزوجها : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك .

فلما رأى ما بأخته من آثار الضرب ندم على ما صنع فارعوى(١) وقال لأخته : أعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرءونها لأنظر ما هذا الذي جاء به « محمد » .

فقالت له أخته : إنا نخشاك عليها .

قال : لا تخافي ، وحلف لها بآلهته ليردنها إليها إذا قرأها .

فقالت له أخته : إنك نجس ومشرك وإنه لا يمسها إلا الطاهر .

فقام فاغتسل ، فأعطته الصحيفة وفيها سورة « طه » فلما قرأ منها قدراً قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه .

فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال له : ياعمر ، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإني سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب : فالله الله ياعمر .

فقال له عند ذلك عمر : فدلني ياخباب على محمد حتى آتيه فأسلم . فقال له خباب : هو في بيت عند الصفا ومعه فيه نفر من أصحابه .

فأخذ عمر سيفه فتوشحه ، ثم عمد إلى رسول الله وأصحابه فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله فنظر من خلال

---

(١) ارعوى عن القبيح : كف عنه .

الباب فرآه متوشحا بالسيف ، فرجع إلى رسول الله عليه وسلم وهو فزع ، فقال : يارسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف .

فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له ، فإن كان يريد خيراً بذلنا له . وإن كان يريد شرا قتلناه بسيفه .

فقال رسول الله : ائذن له . فأذن له الرجل . ونهض إليه رسول الله حتى لقيه بالحجرة ، فأخذ بمجمع ردائه ثم جذبه جذبة شديدة وقال : ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة(٢) .

فقال عمر : يارسول الله جئتك لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله .

فكبر الرسول تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب الرسول أن عمر قد أسلم.

وهكذا تم إسلام عمر فى جو ملىء بالإخلاص والإيمان .

ويتحدث عمر بن الخطاب عما فعله بعد ذلك فيقول :

« ثم جئت إلى خالى أبى جهل عمرو بن هشام - وكان شريفا - فقرعت عليه الباب فقال : من هذا ؟ فقلت : ابن الخطاب وقد صبأت (أى دخلت فى الإسلام) فدخل وأغلق الباب دونى .

فذهبت إلى رجل من عظماء قريش وأخبرته بدخولى فى الإسلام ، فأغلق الباب دونى ولم يصبنى بسوء .

---

(١) القارعة : الشديدة من شدائد الدهر وهى الداهية .

فقلت ماهذا ؟ إن المسلمين يضربون وأنا لا أضر(١) .

فقال لى رجل أتحب أن يعلم بإسلامك ؟ قلت : نعم ، قال : فإذا جلس الناس فى الحجر فأت فلانا فقل له فإنه لا يكتم السر ، فجئت وقد اجتمع الناس فى الحجر فقلت لذلك الذى سماه لى الرجل إنى قد صبأت ، قال : أو قد فعلت ؟ قلت : نعم . فنادى بأعلى صوته : إن ابن الخطاب قد صبأ . فبادروا إلى ، فما زلت أضربهم ويضربوننى ، واجتمع على الناس فأجارنى خالى أبو جهل ، فرددت عليه جواره . ومازلت هكذا فى نزاع وخصام مع أعداء الله حتى أعز الله الإسلام .. »

وتتعددت الروايات حول إسلام عمر . ولكنها تتفق جميعاً على أن عمر خرج يريد شرا بالرسول ، أو على الأقل لم يكن يريد الدخول فى الإسلام ولكن الله وجهه وهداه ، فكان إسلامه فتحا ونصرا كبيرا للدعوة ، وحدثا قويا اهتزت له قريش خوفا وفزعا(٢) .

وفى الحق لقد قوى المسلمون واشتد ساعدهم بدخول حمزة وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما فى الإسلام ، لما كانا عليه من الشجاعة والإقدام ، ولما كان لهما فى مكة من مكانة ممتازة ، ولا سيما عمر ، فقد كانت قريش تخافه وتهابه ، ولذلك اهتزت قلوبهم هلعا وضاقوا إسلامهما ذرعا ، فسلكوا سياسة عنيفة مليئة بالأحداث الجسام للقضاء على هذه الفئة المسلمة مما أدى إلى الهجرة الثانية لبلاد الحبشة .

---

(١) كانت نفس عمر — حينئذ مشتاقة إلى التعذيب فى سبيل الله حتى يعظم أجره ويتساوى مع المسلمين الذين سبقوه إلى الإسلام وبذلوا كثيراً من التضحيات .

(٢) راجع سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢١٦ - ٢١٩ ، والكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٥٧ - ٥٩

الهجرة الثانية إلى الحبشة :

وأما المرة الثانية فقد تمت بعد عام واحد من رجوع المسلمين الذين خرجوا فى المرة الأولى . وذلك لأن المسلمين وجدوا أن موقف العنف والاضطهاد من قريش لم يتغير ، بل ازداد شدة وخطورة ، وتبين لهم أن إسلام حمزة وعمر قد زاد من حقد المشركين وطغيانهم ، ولذا فكر كثير ممن هاجر إلى الحبشة فى المرة الأولى أن يعود إليها مرة ثانية ، كما رغب غيرهم فى مرافقتهم ؛ وعلى الأخص حينما علموا من إخوانهم بما فعله الأحباش معهم من إعزاز وتقدير ، وما قاموا به نحوهم من تكريم .

وقد رسم المسلمون لأنفسهم خطة السير إلى الحبشة ، واستعدوا إلى الرحلة لإقامة كريمة ينعمون فيها بعبادة الله وحده آمنين ، حتى يأتى نصر الله ويعم نور الإسلام .

فخرج فى هذه المرة الثانية ثلاثة وثمانون رجلا وإحدى عشرة امرأة ، فوصلوا إليها ، وأقاموا فيها مدة طويلة ، ثم عادوا بعد أن أذن الله لرسوله بالهجرة إلى المدينة .

وكان هذا العدد الكبير الذى هاجر فى هـذه المرة مقلقا لقريش ، فأخذت الظنون والوساوس الشيطانية تلعب بعقولهم ، ففكروا فى سد هذا الطريق على المسلمين . وأرسلوا إلى « عمرو بن العاص » و« عمارة بن الوليد » ومعهما الهداية النفيسة إلى النجاشى لكى يرد المسلمين إلى مكة . فلما دخلا عليه قالا له : أيها الملك ، إن نفرا من بنى عمنا نزلوا أرضك ، ورغبوا عنا وعن ملتنا ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت . وقد بعثنا أشراف قومهم لتردهم إليهم .

وقد أبى النجاشى أن يرد المسلمين الذين هاجروا إليه حتى يسمع مقالتهم

[illegible] فيه قومكم

فرد عليه جعفر بن أبي طالب قائلا: أيها الملك كنا قوما نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ويأكل القوى الضعيف. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصـــدق الحديث، وأداء الأمانة، وحسن الجوار. ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم، فصدقنا وآمنا برسالته، فعذبنا قومنا ليردونا إلى عبادة الأصنام. فلما ظلمونا وضيقوا علينا خرجنا إلى بلادك واخترناك على سواك.

فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله شيء تقرؤه على؟

قال جعفر: نعم، وتلا عليه سورة مريم من أولها إلى قوله تعالى (وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا. والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا).

فقال النجاشي: إن هذا هو ما جاء به موسى وسيدنا يسوع المسيح. انطلقا فوالله لا أسلمهم أبدا(١)

- وحينئذ عاد عمرو وصاحبه إلى مكة دون أن ينجحا فى مهمتهما.

وعاش المسلمون إلى جوار النجاشي فى أمن وسلام، واستقروا إلى أن كانت الهجرة الكبرى إلى المدينة.

---

(١) ويذكر ابن الاثير فى كتابه الكامل أن النجاشي لما سمع ما تلى من القرآن بكى هو وأساقفتهم ج ٢ ص ٥٥

مقاطعة ريش لبنى هاشم وبنى المطلب :

وأمام هذا الخطر الزاحف الذى هدد قريشا وأفزعها ، وعلى الأخص بعد أن أسلم حمزة وعمر ، واشتد بها ساعد المسلمين ، وبعد أن هاجر هذا العدد الكبير من المسلمين إلى الحبشة ، وعجزت قريش عن إرجاعه، وأصبح وجوده فى هذه البلاد مثاراً للقلق ومبعثا للشكوك . ونواة لشر منتظر عما قريب .

وأمام ذلك كله ، فكرت قريش فى سلاح رهيب تقاوم به هذا الشر والخطر ، وهو سلاح المقاطعة الاقتصادية . على أن تقاطع بنى هاشم وبنى المطلب مقاطعة تامة ، فلا يتزوجون من نسائهم ، ولا يبيعون لهم شيئا ولا يشترون منهم ، ولا يخالطونهم ، ولا يقبلون منهم صلحا ، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل . وسجلوا هذه القرارات فى صيغة ختمت بأختام ، وعلقت فى جوف الكعبة تأكيدا لاحترامها ، فيكون الخروج عليها أو عدم الوفاء بما فيها بمثابة الخروج على العقيدة الموروثة .

وكانوا يعتقدون أن سياسة التجويع والمقاطعة سيكون لها من الأثر مايحقق أغراضهم .

وإزاء هذه المقاطعة الجائرة الغاشمة ، انتقل كل بنى هاشم وبنى المطلب ومعهم الرسول إلى شعب كان يطلق عليه شعب أبى طالب بظاهر مكة ، يعانون الحرمان ألوانا ، حتى لقد بلغ من سوء حالهم أن أكلوا أوراق الأشجار . ولم يتخلف عن الإنضمام إلى محمد من بنى هاشم سوى عمه أبى لهب

الذى أسرف فى تعصبه للأصنام، وفجر فى بغضه للإسلام، ولم يرع للقرابة حرمة، ولا للرحم مودة.

واستمرت هذه المقاطعة المروعة ثلاثة أعوام متتابعة، لم يجرؤ أحد من بنى هاشم وبنى المطلب خلالها أن يدخل مكة .. ومع ذلك فقد ضربوا أروع الأمثال فى الصبر والاحتمال . . وكان أبو طالب يعلن قريشاً بأنه سوف يظل مؤيدا لمحمدا مهما بلغت التضحيات وعظمت المتاعب . ويروى عنه أنه قال فى وسط هذه المحنة :

فلسنا ورب البيت نسلم أحمدا
لعزاء من عض الزمان ولا كرب
ولسنا نمل الحرب حتى تملنا
ولا نشتكى ماقد ينوب من النكب
ولكننا أهل الحفائظ والنهى
إذا طار أرواح الكماة من الرعب

ثم أذن الله لهذا الليل الطويل بالانتهاء، فقام خمسة كرام الرجال، هم هشام بن عمرو، وزهير بن أمية، والمطعم بن عدى، وأبو البحترى بن هشام، وزمعة بن الأسود، فشقوا صحيفة هذه المقاطعة، وأعلنوا نقضها، وحينئذ خرج بنو هاشم وبنو المطلب من هذا السجن الضيق المميت، إلى معترك الحياة، ضاربين فى الإخلاص لمحمد صلوات الله وسلامه عليه أروع الأمثال، محتملين من التضحية ماينوء بالأبطال(١) .

---

(١) راجع سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣١ وما بعدها

عام الحزن :

ولم يشأ الله لرسوله أن ينعم بعد خروجه من الشعب بفترة طويلة من الراحة والطمأنينة ، إذ لم تمض عـــدة شهور على تمزيق صحيفة المقاطعة ، وخروجه مع أهله إلى الحياة ، حتى فجأت محمداً فى عام واحد فاجعتان اهتز لهما قلبه ، وهما موت أبى طالب ، وموت السيدة خديجة رضى الله عنها .

ولقد حزن الرسول عليهما حزناً شديداً ، لمـا كان لهما من أثر بالغ فى نصرة الإسلام ، والدفاع عنه ضد أعدائه .

فأبو طالب وإن كان قد مات مشركا ، ولكنه كافح وجاهد فى مؤازرة محمد صلى الله عليه وسلم . ولم يتخـــل عن حمايته — كما رأينا — فى أحرج الظروف وأعنف الأزمات ، حتى قال الرسول عنه « والله ما نالت منى قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب » .

وأما السيدة خديجة رضى الله عنهـا ، فحسبها ما قاله الرسول عنها فى مواجهة نسائه الأخريات «ولقد آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس . ورزقنى الله ولدها إذ حرمنى أولاد النساء » .

فلا عجب إذ سمى هـذا العام فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم عـام الحزن ، لكثرة ما أصاب الرسول فيه من الهموم والأحزان .

خروجه إلى الطائف :

وكان موت أبي طالب ، وموت السيدة خديجة ، مشجعا لقريش على المضى فى عدائهم للرسول ، بل أخذوا يسرفون فى العدوان والأذى ، حتى بلغ الأمر بهم إلى أن ألقى بعض السفهاء الأقذار عليه وهو فى طريقه إلى بيته .

وهذا مثل من أمثلة كثيره فعلها هؤلاء المشركون الآثمون مع محمد فى هذه الفترة .

وكان ذلك من أهم الأسباب التى جعلته يخرج إلى الطائف ، لعله يجد من قبيلة ثقيف - وهى أهم قبائل العرب بعد قريش - من ينصره ويؤازره . ولكن - ويا للأسف - لم يجد منهم إلا الجحود والإعراض ، والسخرية والاستهزاء ، حتى لقد أغروا به عبيدهم وسفهاءهم يسبونه ويصيحون وراءه ، ويقذفونه بالحجارة حتى ابتعد عن الطائف ، ولجأ لحديقة مملوكة لعتبة وشيبة ابنى ربيعة ، فاحتمى بها ، وجلس تحت ظل شجرة من أشجارها . وقد أجهده التعب ، ودميت عقبة ، وضاق صدره . واشتد به الكرب والبلاء . ثم لجأ إلى الله بهذا الدعاء .

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس - يا أرحم الراحمين : أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى : إلى بعيد يتجهمنى ؟ أو إلى عدو ملكته أمرى : إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من فن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى(١) حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

---

(١) العتبى : هى الرضا

فلما رأى عتبة وشيبة ما أصاب محمداً من جهد وتعب، رقا له، وتحركت فيهما نخوة الكرم، فأرسلا إليه عبدهما المسيحى (عداساً) بقطف من العنب. فلما مد الرسول إليه يده قال (باسم الله): ثم أكل، فنظر عداس إلى وجهه ثم قال: إن هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلاد. فقال له الرسول: من أى البلاد أنت؟ وما دينك؟ قال: نصرانى من نينوى، قال: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ قال صلى الله عليه وسلم: ذاك أخى، أنا نبي وهو نبى، فأكب عداس على محمد يقبل رأسه ويديه وقدميه.

ولما رجع إلى عداس إلى ابنى ربيعة قالا له: ويلك يا عداس، مالك تقبل رأس هذا الرجل؟ فأجابهما قائلا: ما فى الأرض خير من هذا الرجل(١).

وقد رجع الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إلى مكة، فوجد قومه يقفون بالمرصاد لكى يمنعوه من الدخول، فاستجار بالمطعم بن عدى، فأجاره المطعم، وتسلح هو وبنوه لحمايته حتى دخل مكة وطاف بالبيت ثم انصرف إلى منزله فى حراسة المطعم وأولاده ليعود إلى الكفاح من جديد، وليستأنف تبليغ الدعوة فى هذا الجو العاصف المليء بالأخطار والمخاوف.

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٦٤

الإسراء والمعراج

وبين هذه العواصف العنيفة ، والأخطار المخيفة ، التى كانت تحيط بمحمد صلى الله عليه وسلم، تمتد يد الرحمن بالرحمة والخير والحنان، وتحتضن العناية الإلهية محمداً صلى الله عليه وسلم ، لترتفع به إلى أسمى مكان . . ويقع حادث الإسراء والمعراج تكريماً من الله لنبيه ، ليكون فى ذلك عوض أى عوض عما لحقه من أذى المشركين وعنتهم ، وما أصابه من آلام ومتاعب فى طريقه الشاقة إلى غايته الكريمة ، (وذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما) .

ولقد وقع الإسراء والمعراج فى السنة الثانية عشرة من البعثة النبوية ، وفى الليلة السابعة والعشرين من شهر رجب كما هو المشهور .

ولقد ثبت الإسراء بصريح القرآن الكريم ، حيث يقول الله تعالى (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير)(١) .

وثبت الإسراء والمعراج معا بالأحاديث النبوية الصحيحة التى لا يتطرق إليها الضعف والوهن .

ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أتيت بالبراق وهو دابة فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفـــه ، قال : فركبته حتى أتيت بيت المقدس ، فربطته بالحلقة التى تربط بها الأنبياء . ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت ، فأتانى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فاخترت اللبن ، فقال جبريل : اخترت الفطرة .

---

(١) سورة الإسراء آية ١

ثم عرج بنا إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل وقد بعث إليه ؟ قال : بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بآدم ، فرحب بى ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية . فاستفتح جبريل فقيل : من أنت ؟ قال جبريل قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بابنى الخالة يحي وعيسى بن مريم . فرحبا بى ودعوا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة ، فذكر مثل الأولى ، ففتح لنا ، وإذا أنا بيوسف ، فرحب بى ، ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة ، فذكر مثله ؛ فإذا أنا بإدريس ، فرحب بى ، ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة ، فذكر مثله ، فإذا أنا بهارون ، فرحب بى ، ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة ، فذكر مثله . فإذا أنا بموسى ، فرحب بى ، ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة ، فذكر مثله ، فإذا أنا بإبراهيم ، ثم ذهب بى إلى سدرة المنتهى ، فأوحى إلى ماأوحى . ففرض على وعلى أمتى خمسين صلاة فى كل يوم وليلة ، فنزلت إلى موسى فقال . مافرض ربك على أمتك ؟ قلت : خمسين صـــلاة ، قال ارجع إلى ربك فسله التخفيف ، فإن أمتك لايطيقون ذلك ، فإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم .

يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : فما زلت أراجع ربى حتى جعلها خمس صلوات فى اليوم والليلة وقال : يامحمد . هن خمس فى العدد ،

ولكنها خمسون فى الأجر والثواب « مايبدل القول لدى ، وما أنا بظلام عبيد » .

هذه قصة الإسراء والمعراج كما ذكرها لنا رسولنا الصادق الأمين ، وهى ـ كما تبين لنا ـ رحلة حقيقية بالجسد والروح معا ، ولم تكن رؤيا فى منام كما وهم الواهمون ، ولو كان الإسراء والمعراج بالروح لحسب لما كذبه المشركون من قريش وسائر العرب ، ولما عجبوا له هذا العجب ، وقابلوه بالإنكار والجحود والسخرية والإزدراء ، بل لما ذكره الله عز وجل فى مقام التكريم والإمتنان على رسوله حيث يقول :

(سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) .

وقد حاول بعض العلماء المحدثين أن يستدل على إمكان الإسراء والمعراج ، أو يقرب إمكان وقوعه إلى الأذهان ، بما وصل إليه العلم من مخترعات حديثة ، تطوى المسافات الشاسعة فى زمن قليل ، كالطائرات النفاثة التى تسبق سرعتها سرعة الصوت ، وكالصواريخ التى تحمل الإنسان إلى القمر ثم ترجع به إلى الأرض . إلى غير ذلك .

ولكننا لا نذهب مثل هذا المذهب ، فإن هذه المخترعات الحديثة ـ مهما بلغت من عظمة ـ لها مقومات من الأسباب والمسببات ، وكل شىء يقوم وجوده على سبب فهو أمر لا يدعو إلى العجب .

والمعجزات التى اختص الله بها الرسل والأنبياء ، إنما هى أمور خارقة للعادة ، تدعو إلى العجب ولا تخضع ـ فيما نعلم ـ لسبب .

وما دمنا نحن المسلمين نؤمن بأن عيسى بن مريم عليه السلام كان يحيى الموتى بإذن الله ، ويبرىء الأكمة والأبرص بإذن الله ، ونؤمن بأن الله سخر

لسليمان الريح تحمله وتجرى بأمره غدوها شهر ورواحها شهر ، ونؤمن بغير ذلك من المعجزات لجميع الرسل والأنبياء ، فلماذا يصعب علينا أن نؤمن بأن الإسراء والمعراج آية خالدة كرم الله بها خاتم الرسل والأنبياء . . ؟

أجل ، لقد كان الإسراء والمعراج رحلة حقيقية بالروح والجسد ولقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأى من الآيات الكبرى ، ثم رجع بعد تلك الرحلة المباركة إلى مكة المكرمة تحف به السكينة ، ويغمره الرضا والطمأنينة .

فلما أصبح الصباح ، وأخبر الناس بحادث الإسراء ، أيقن الكثير منهم أن هذا كذب وافتراء ، أو جنون وهذيان ، بل لقد ارتد عن الإسلام قوم لما يدخل الإيمان فى قلوبهم ، وقالوا . هذا والله الأمر البين !! والله وإن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة ، وشهراً مقبلة ، فكيف يذهب محمد إلى بيت المقدس ويرجع إلى مكة فى ليلة واحدة ؟

ولقد طلبوا منه أن يصف لهم بيت المقدس ، ولم يكن رآه قبل هذه الليلة ، فأخذته الحيرة والألم ، فجلاه الله له ، فصار يصفه وصفا شاملا لا شك فيه .

وسألوه عن آية أخرى على صدق كلامه ، فقال لهم : لقد مررت بعير فلان بوادى كذا فأنفرهم حس الدابة فندلهم بعير فدللتهم عليه وأنا متوجه إلى الشام . ثم أقبلت ، حتى إذا كنت بضجنان (مكان معروف) مررت بعير بنى فلان فوجدت القوم نياماً ولهم إناء فيه ماء ، وقد غطوا عليه بشىء فكشفت غطاءه وشربت مافيه ثم غطيت عليه كما كان ، وآية ذلك أن عيرهم الآن عند ثنية التنعيم يقدمها جمل أورق عليه غرارتان ، إحداهما سوداء والأخرى برقاء . فأسرع القوم إلى الثنية فوجدوا الجمل كما وصفه لهم ، وسألوهم عن الإناء فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءاً ماء ثم غطوه ، وأنهم هبوا

فوجدوه مغطى كما غطوه ولم يجدوا فيه ماء، وسألوا الآخرين بعد ذلك، فقالوا : صدق، والله لقد ند لنا بعير المكان الذى أخبركم عنه، فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه حتى أخذناه(١) .

وهكذا ذكر لهم من الأمارات والعلامات مالا سبيل إلى الطعن فيه، ولكنهم على الرغم من ذلك كله لم يزداد إلا كفرا وعناداً، ولم يزدد الرسول بإزاء ذلك العناد منهم إلا صبراً وجهادا .

وأما أقوياء العقيدة من المؤمنين المخلصين فقد زادهم هذا الحادث العجيب إيمانا على إيمانهم .

وحسبنا فى ذلك موقف أبى بكر الصديق رضى الله عنه، فلقد ذهب إليه أناس وقالوا له : ماتقول يا أبا بكر فى صاحبك؟ يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة !!

فقال لهم أبو بكر فى ثقة المؤمن المخلص : والله لئن كان قال لكم ذلك، لقد صدق، ووالله إنه ليخبرنى أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه .

ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول صلى الله عليه وسلم فأخبره الرسول بما وقع له من ذلك الحادث العجيب، فلم يزدد الصديق المؤمن إلا إيماناً بالرسول وتصديقاً، حتى لقد سمى منذ ذلك اليوم صديقاً .

وهكذا الإيمان القوى، لاتضعفه الفتن مهما عصفت ريحها، وهكذا الصداقة المخلصة، تعظم فى المحن قيمتها، وتظهر عند الشدائد ثمرتها .

---

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٢٤٨

بيعتا العقـــبة

« ولماذا كانت قلوب أهل يثرب أسرع قبولا للدعوة من قلوب أهل مكة » .

كان بين الأوس والخزرج منذ استقروا فى مدينة يثرب(١) صراع قوى على المجد المادى والأدبى ، أوجدته العصبية الجاهلية التى كانت تمشى فى أرجاء الجزيرة العربية كما يمشى الوباء ، وتسرى بين القبائل والبطون كما تسرى النار فى الهشيم .

وكثيرا ما أدت هذه العصبية بين الأوس والخزرج إلى حروب دامية ، لم تكن تهدأ حيناً إلا لتبدأ من جديد قوية عنيفة ، وكان آخر هذه الأحداث ماوقع بين الفريقين فى يوم بعاث ، وهو يوم مشهور فى تاريخ الأوس والخزرج ، هلك فيه قادتهم ورؤساؤهم . وتصدعت قوتهم ، وتعرض مركزهم فى يثرب للدمار والانهيار .

وكان يجاورهم فى يثرب جماعات من اليهود وهم : بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة .

وطالما كان هؤلاء اليهود يثيرون العداوة والبغضاء بين الأوس والخزرج حتى يأكل بعضهم بعضاً ، وحينئذ يقيم اليهود على أنقاض هذا الضعف قوة لهم .

وقد أدرك الأوس والخزرج هذا الشعور من اليهود ، فأخذو يعضون بنان الندم ، ويحسون بالخطر الداهم يحيط بهم ، ويتطلعون ذات اليمين وذات الشمال إلى قائد وزعيم يوحد كلمتهم ، ويجمع شملهم .

---

(١) سميت بعد هجرة الرسول إليها المدينة المنورة .

وكان يزيد من خوف الأوس والخزرج أن اليهود كانوا يتوعدونهم بين الحين والحين بظهور نبي من العرب يبعث قد قرب زمانه ، يعرفونه بأوصاف ذكرت فى كتابهم ، ويتمنون لقاءه والالتفاف حوله ، حتى يقوى أمرهم ، ويطردوا الأوس والخزرج من المدينة .

وهذا الشعور الذى امتلأت به نفوس الأوس والخزرج ، هو الذى جعل قلوبهم مستعدة لقبول الإسلام ، والخضوع لقيادة محمد عليه الصلاه والسلام .

وقد شاء الله أن يلتقى جماعة من الخزرج بمحمد صلى الله عليه وسلم فى مكة ، وكان ذلك فى موسم الحج سنة ٦٢٠م فسألهم الرسول عن أحوالهم وعن علاقتهم باليهود . وحدثهم عن الدين الجديد ، وبين لهم أصله وتعاليمه ودعاهم إلى الدخول فيه ، وتلا عليهم بعض آيات من القرآن ، فتأثروا إلى حد كبير بما سمعوا ، ونظر بعضهم إلى بعض وقالوا : والله إنه النبي الذى تتحدث عنه اليهود وتهددنا به ، فأسلم ستة منهم . ووعدوه بنشر الإسلام بين أهلهم .

ثم عاد هؤلاء الستة(١) إلى المدينة (يثرب) وذكروا لقومهم أمر ملاقاتهم لمحمد ، وعرضه عليهم الإسلام ، فصدقوا به وآمنوا برسالته ، فسارع بعضهم إلى الدخول فى هذا الدين قبل اليهود ، ولم تبق دار من دورهم إلا وفيها ذكر محمد عليه الصلاة والسلام .

وفى تلك الأثناء كان النبى فى مكة ينتظر أخبار هؤلاء الستة الذين وعدوه المجىء فى الموسم القادم ، ليرى أثر دعوتهم فى المدينة .

---

(١) من هؤلاء الستة اثنان من بنى النجار أخوال عبد المطلب جد النبى صلى الله عليه وسلم .

البيعة الأولى :

ومضت الأيام، وأقبل موسم الحج عام ٦٢١م، وفيه وفد إثنا عشر رجلا من أهل يثرب ، فأزالت أخبارهم السارة كل هموم النبي صلى الله عليه وسلم عند ما لاقاهم فى المكان المتفق عليه مع الستة الذين أسلموا فى الموسم الماضى (عند العقبة بالقرب من منى) .

وحينما التقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بوفد المدينة، حدثوه بأن أهل بلدهم ينتظرونه ليلتفوا حوله ويعتنقوا رسالته، حتى يمكنهم أن ينتصروا على اليهود ، ويتخلصوا مما يحيط بهم من الخلاف والشقاق .

وفرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بلقاء الوفد ، فلقد زاد عدد المسلمين إلى اثنى عشر رجلا ، ومن ورائهم أهل يثرب مستعدين لقبول الدعوة الإسلامية وحماية صاحبها ، وفى هذه المقابلة تمت بيعة (العقبة الأولى) .

وقد تحدث عن هذه البيعة عبادة بن الصامت رضى الله عنه فقال :

« بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف، ثم قال : فإن وفيتم فلكم الجنة » .

وتسمى هذه البيعة فى التاريخ بيعة النساء ، لأنها توافق الشروط التى ورد ذكرها فى سورة (الممتحنة) خاصة بيعة النساء (يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم) .

وتعرف أيضا ببيعة العقبة ، نسبة إلى المكان الذى عقدت عنده .

وبعد أن تمت هذه البيعة ، واستعد القوم للرحيل والعودة إلى يثرب ،

بعث النبي صلى الله عليه وسلم معهم (مصعب بن عمير) رضى الله عنه ، يقرئهم القرآن ، و يعلمهم الإسلام ، ويجمع المسلمين ويصلى بهم .

ولقد كان لتعاليم الإسلام التى شرحها لهم (مصعب) أثر عظيم فى إقبال الناس على الدخول فى الدين الإسلامى ، لأنهم لم يروا فيه عنتا أو مشقة ، وإنما وجدوا يسراً وفضائل يصلح بها حالهم،ويستقيم أمرهم فى الدنيا والآخرة مع ما كان من استعداد وترقب لرسول تحدثت به اليهود ، وأخبرت عنه الكتب السماوية، ولذلك زاد عدد الداخلين فى الإسلام بيثرب زيادة واضحة، وأسلم على يد مصعب عدد كبير حتى لم تبق دار إلا وفيها مسلمون .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم هادىء النفس ، ولا تبدو عليه آثار التحمس للدعوة فى الفترة التى كان الإسلام يتغلغل فيها فى المدينة ، وظنت قريش أن هدوء النبي صلى الله عليه وسلم ما هو إلا أمارة من أمارات الانصراف عن الدعوة ، بعد أن لقى من قريش وثقيف أنواع العذاب ؛ ولذلك رأت أن تخفف من اضطهادها له .

ولكن الحقيقة هى أن (محمداً) صلى الله عليه وسلم حول اهتمامه من قريش فى مكة إلى أهل يثرب الذين كانوا دعاة صادقين ، وأنصاراً متحمسين لأن نفوسهم كانت متلهفة إلى دين يوحد كلمتهم ، ويجمع صفوفهم ، ويطهر نفوسهم من العداوة والبغضاء والفرقة والاختلاف ، فجاءت تعاليمه على يد أولئك الذين أسلموا ، وكأنها الدواء الشافى لأمراضهم وعللهم . (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً) .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يفكر فى (مصعب) أثناء غيبته ، ويفكر فى أهل المدينة ، ويدعو (لمصعب) بالتوفيق ، ولأهل المدينة بالخير والهداية .

وقد أخذ يتحرى أخباره ، وما لاقاه من (الأوس والخزرج) هل لبوا

النداء ؟ رهل أجابوا داعى الله ؟ وهل تكون (يثرب) مشرق النور الإلهى وينبوع الخير الأبدى ؟

وظل هكذا . حتى عاد (مصعب) إلى مكة فى موسم الحج بعد إقامة دامت هناك حوالى عام تقريبا ، وقص على النبى صلى الله عليه وسلم خبر المسلمين بالمدينة وأنهم فى ازدياد وقوة ، وأنهم بعد أيام سيجيئون فى موسم الحج أكثر عدداً وأعظم إيماناً بالله ورسوله .

بيعة العقبة الثانية

وبعد أن أعد الرسول صلى الله عليه وسلم للأمر عدته ، فكر فى بيعة ثانية أعظم من البيعة الأولى ، وأوسع مما كان يدعو إليه أهل مكة ومن حولها .

وجاء حجيج المدينة إلى مكة فى الموسم ، مؤمنهم وكافرهم ، وكان فيهم خمسة وسبعون مسلما ، ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان ، إثنان وستون من الخزرج ، وأحد عشر من الأوس ، وعلم الرسول صلى الله عليه وسلم بمجيئهم ورغبتهم فى لقائه، فاتصل سراً بزعمائهم حتى لا تعلم قريش بالأمر فتعمل على إلحاق الأذى بالنبي وأتباعه ، وتفسد على الرسول والمسلمين خطة اجتماعهم ، كما أخفى مسلمو يثرب أمرهم على من معهم من المشركين .

اجتماع الرسول صلى الله عليه وسلم بمسلمى يثرب :

وقد واعد النبى صلى الله عليه وسلم مسلمى يثرب أن يقابلهم فى آخر موسم الحج حتى لا يكون هناك شبهة عند قريش، فهم فى كل يوم يغدون ويروحون أمامهم . أما إذا غابوا عن الأنظار انكشف أمرهم ، كما واعدهم أن تكون المقابلة ليلا ، وأن يكون مكانها عند العقبة ، وانتظر مسلمو يثرب حتى انتهى أمر الحج وحان الموعد ، فخرجوا من رحالهم بعد انقضاء ثلث الليل

مستخفين حتى لا ينكشف أمرهم ، ووصلوا العقبة وعلى رأسهم الإثنا عشر رجلا الذين بايعوا النبى صلى الله عليه وسلم البيعة الأولى وقاموا ينتظرون مقدم صاحب الرسالة

وأقبل محمد صلى الله عليه وسلم إلى المكان المحدد « العقبة » ومعه عمه (العباس بن عبد المطلب) وهو يومئذ على دين قومه من الشرك ، إلا أنه أحب أن يحضر مجلس ابن أخيه ليطمئن ويستوثق له، وكان ذلك قبل الهجرة بشهور وفى سنة ٦٢٢ م .

ولما تكامل المجلس كان (العباس) أول متكلم فقال : يا معشر الخزرج إن « محمداً » منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا، وهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده ، وقد أبى إلا الانحياز إليكم ، واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم خاذلوه بعد خروجه إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده .

فقال اليثربيون وقد سمعوا كلام العباس : « قد سمعنا ما قلت » وإن عزائمنا معقودة على ما أتينا من أجله ، فتكلم يا رسول الله . فخذ لنفسك وربك ما أحببت » .

عند ذلك تكلم عليه الصلاة والسلام . وبدأ حديثه بآيات من القرآن الكريم ، كما كانت عادته قبل البدء فى الحديث ، ثم دعا إلى الله ، ورغب فى الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .

فأخذ سيدهم (البراء بن معرور) - وكان له فى تلك الليلة المقام الكريم - يد النبى صلى الله عليه وسلم وقال : « والذى بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه ذرارينا ، فبايعنا يارسول الله ، فنحن والله أبناء الحرب . ورثناها كابراً عن كابر » .

وتبعه الباقون ، فمدوا أيديهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم واحداً بعد واحد يبايعون ، وجاء بعدهم النساء فبايعهن أيضاً .

ولما فرغوا من البيعة قال لهم النبي عليه الصلاة والسلام : « اخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيباً يكونون على قومهم أمراء » .

فاختار القوم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم لهؤلاء النقباء : « أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيلي على قومى » .

وكذلك تمت البيعة الثانية ، وذهب كل إلى رحله فى ظلام الليل ، وهم على ثقة ويقين من أنه لا يعلم بهم أحد إلا الله .

ولم يكد نور الصباح حتى كان أمر تلك البيعة حديث قريش ، فبدأت نفوسهم تضطرب لما سمعت ، وقلوبهم تمتلىء فزعا لهذا الحادث الخطير ، وهذا التحول فى أمر الدعوة وصاحبها « محمد » حيث أجمعوا أمرهم على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ، فساروا إليهم وخاطبوهم قائلين : « يا معشر الخزرج : بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ، والله ما من « حى » من العرب يغضبها أن تنشب الحرب بيننا وبينهم أكثر منكم ، فلم يجبهم أحد ممن أسلم بكلمة .

أما المشركون منهم فقد حلفوا لهم أنه لم يحدث من ذلك شىء وما علموا به .

وقال « عبد الله بن أبى ، وهو سيد من سادات مشركى يثرب : إن هذا الأمر جسيم ما كان قومى ليتفقوا على مثل هذا وما أعلم به فاعتقد رؤساء قريش صدق قوله وانصرفوا .

وبعد ذلك بقليل بدأت قوافل الحجاج تعود إلى أوطانها .

ولما مضى على رحيل أهل يثرب بضعة أيام ، تأكد لدى قريش أن ماعلموه من أمر البيعة صحيح ، وأن حديث عبد الله بن أبى حديث غير العارف بها ووقفت على تفاصيل ما دار فى بيعة العقبة ، فعرفت عدد الذين بايعوا ، ولم يخف عليهم كذلك ما تعاهدوا عليه من حمايتهم للرسول صلى الله عليه وسلم والدفاع عنه .

لذلك قامت قيامتهم ، وخرجوا يتعقبون الركب المدنى للإيقاع به ، فلم يدركوا منهم إلا « سعد بن عبادة » وكان قد تأخر عن القافلة ، فأخذوه وردوه إلى مكة مسحوبا من شعره الطويل وعذبوه حتى أجاره « جبير ابن مطعم بن عدى » وأطلق صراحه ، ثم عاد إلى المدينة .

الفصل الرابع

الهجرة النبوية ، وتأسيس الدولة الإسلامية

هجرة المسلمين إلى المدينة :

أصبح الرسول والمسلمون بعد بيعة العقبة الثانية يشعرون بأن قوة جديدة تقف إلى جانبهم ، وأن أرضا طيبة تتهيأ لاستقبالهم .

وأخذ الأوس والخزرج - بعد رجوعهم إلى يثرب - يبشرون بالدعوة الإسلامية بين أهليهم وذويهم ، فتقع فى نفوسهم موقع الرضا والقبول ، ويمدون أيديهم لتأكيد البيعة التى التزم بها إخوانهم الذين سبقوهم إلى لقاء محمد صلى الله عليه وسلم .

وهكذا أشرقت يثرب بنور الحق ، وانتشرت فيها مبادىء الإسلام ، وأصبحت مكاناً مناسباً يأمن فيه المسلمون على أنفسهم من أذى المعتدين وطغيان الظالمين .

أما مكة فقد اشتد فيها الأذى بالمسلمين والتضييق عليهم ، حتى أصبح عيشهم فيها جحيما لا يطاق ، ومن أجل ذلك أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه بالهجرة إلى المدينة ، فصاروا يتسللون ويخرجون من مكة فى ظلام الكتمان والخفاء ، يحذرون قريشاً ويخشون خطرها ، ويرجون ألا تحول بينهم وبين الانتقال من هذا الوسط الخبيث وتلك البيئة الفاسدة إلى جو المدينة الطاهر بالجميل .

وأول من خرج أبو سلمة المخزومى زوج أم سلمة رضى الله عنهما .

ثم تتابع المهاجرون بعد أبى سلمة ، فراراً بدينهم ليتمكنوا من عبادة الله الذى امتزج حبه بنفوسهم ، ولم يبق بمكة منهم إلا أبو بكر ، وعلى ، وقليلون من المستضعفين الذين لم تمكنهم أحوالهم من الهجرة

وقد كان بقاء أبى بكر وعلى بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذلك أن أبا بكر أراد الهجرة فقال له الرسول : على رسلك فإنى أرجو أن يؤذن لى ، فقال أبو بكر : وهل ترجو ذلك يارسول الله بأبى أنت ؟(١) قال : نعم ، فحبس أبو بكر نفسه انتظاراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليكون فى شرف صحبته وجهز راحلتين عنده استعداداً لذلك اليوم الموعود .

ولاشك أن هجرة المسلمين مكة إلى المدينة كانت مبعث سعادة نفسية كبرى لهم ، لأنهم تنفسوا الصعداء ، وشعروا بالحرية التى لم يكونوا يألفونها ، وأخذوا ينشرون دين الله فى جو طليق بعيد عن الضغط والإرهاب والظلم والعدوان .

كما كانت ضربة قاضية على المشركين فى مكة . إذ خاب أملهم ، وأفلت المسلمون من قبضتهم ، وأصبحوا يتوقعون منهم خطراً كبيراً لا ريب فيه .

المؤامرة الكبرى :

وكانت دار قصى بن كلاب(٢) هى ندوة قريش ، يجتمعون فيها للنظر فيما يعنيهم من الأمور ، وما يصادفهم من المشكلات .

ولاشك أن أمر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم قد أصبح شغلهم الشاغل ومشكلتهم الكبرى ، وعلى الأخص بعد ماتم من بيعتى العقبة وظهور الإسلام فى المدينة .

(١) بأبى أنت : أى أفديك بأبى .

(٢) قصى بن كلاب هو الجد الرابع للرسول صلى الله عليه وسلم

ومن أجل ذلك فإن قريشاً قد اجتمعوا بدار الندوة ليتشاوروا فيما يصنعون بمحمد بن عبدالله ، بعد أن عظم أمره واشتد خطره .

قال قائل منهم : نخرجه من أرضنا ، وننفيه إلى مكان بعيد كى نستريح منه ، فرفض هذا الرأى لأنهم قالوا : إذا خرج إلى مكان آخر اجتمعت حوله الجموع لما يرونه من حلاوة منطقه وعذوبة لفظه .

وقال آخر : نوثقه(١) ونحبسه حتى يدركه ما أدرك الشعراء قبله من الموت ، فرفض هذا الرأى كذلك ، لأنهم قالوا : لئن حبستموه كما تقولون ليظهرن أمره ، وليبلغن أصحابه ، وليوشك هؤلاء أن يثبوا عليكم(٢) ليخلصوا محمداً من أيديكم ، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم . . .

وأخير قال أبو جهل بن هشام : والله إن لى فيه رأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد ، قالوا وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليداً نسيبا وسيطا ، ثم نعطى كل واحد منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إن فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا ، ويرضون بالدية فنعطيها لهم . وقد وقع هذا الرأى فى نفوسهم موقع الرضا والقبول ، فوافقوا عليه ، وتهيئوا للإسراع فى تنفيذه .

وهذا هو مكرهم ، ولكن الله الذى يكتب مايبيتون ، ويعلم مايفعلون ، لم يتخل عن رسوله ، فأوحى إليه بما دبره له الأعداء فى ندوتهم ، وأمره بالهجرة من مكة إلى المدينة ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

---

(١) نوثقه : أى نقيده

(٢) يثبوا عليكم . أى يهجموا عليكم .

(وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك(١) أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)(٢) .

ومما تقدم يتبين لنا أن أسباب الهجرة تتلخص فيما يأتى :

١ — شدة إيذاء المشركين من قريش للرسول صلى الله عليه وسلم وللمسلمين ، وقد بلغ هذا الأذى نهايته فى الحقبة الأخيرة ، أى بعد وفاة السيدة خديجة رضى الله عنها ووفاة أبى طالب عم الرسول صلى الله عليه وسلم .

٢ — بيعتا العقبة . وفى هاتين البيعتين وضح للرسول صلى الله عليه وسلم الأوس والخزرج مخلصون له وللإسلام ، وأنهم سيدافعون عنه وينصرونه .. وأن المدينة قد أصبحت بعد إسلام الكثيرين من الأوس والخزرج مكانا طيبا يمكن أن تنمو فيه الدعوة الإسلامية وتترعرع .

٣ — المؤامرة الكبرى ، وهى تلك المؤامرة التى اتفق المشركون فيها على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم والتخلص منه ، ليخلو الجو لهم ، ويرجع المجد والسلطان لآلهتهم المزعومة ، وعقائدهم الفاسدة .

بدء الهجرة النبوية :

وتتحدث السيدة عائشة رضى الله عنها عن يوم الهجرة النبوية فتقول :

« كان لا يخطىء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار ، إما بكرة وإما عشية ، حتى إذا كان اليوم الذى أذن الله فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة والخروج من مكة ، ومن بين ظهرى قومه أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهاجرة(٣) فى ساعة كان

---

(١) ليثبتوك : أن يقيدوك أو يحبسوك .

(٢) من سورة الأنفال آية ٣

(٣) بالهاجرة : أى وقت شدة الحر بين الظهر والعصر .

لا يأتى فيها ، قالت : فلما رآه أبو بكر قال : ماجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الساعة إلا لأمر حدث ، قالت : فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عند أبى بكر إلا أنا وأختى أسماء بنت أبى بكر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرج عنى من عندك ، قال : يارسول الله إنما هما ابنتاى ، وما ذاك فداك أبى وأمى ؟ قال : إن الله أذن لى بالخروج والهجرة ؟ قالت : فقال أبو بكر : الصحبة يارسول الله ؟ قال : الصحبه ، قالت : فوالله ماشعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكى » .

وقد بكى أبو بكر – رضى الله عنه – من فرط السرور ، لأنه أدرك مدى النعمة التى من الله بها عليه ، إذ شرفة بصحبة الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا الوقت العصيب . وفى تلك الرحلة الخالدة التى ستكون حداً فاصلا بين الحق والباطل ، وسيتقرر بها مصير الإسلام والمسلمين .

وكان أبو بكر قد جهز راحلتين له وللرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم استأجر دليلا خبيراً بطرق الصحراء واسمه عبدالله بن أريقط . وعلى الرغم من أن هذا الرجل كان كافراً إلا أنهما وثقا فى أمانته وإخلاصه ، فواعداه غار ثور(١) بعد ثلاث ليال .

وكانت الليلة التى خرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة فى العشر الأواخر من شهر صفر وفى السنة الثالثة عشرة من البعثة النبوية .

وكان المشركون قد ترصدوا للرسول فى تلك الليلة ، وأحاطوا بداره لكى ينفذوا مؤامرتهم الغادرة .

---

(١) غار ثور : هو غار فى أعلى « جبل ثور » بأسفل مكة .

وقد أمر رسول الله على بن أبى طالب رضى الله عنه أن يبيت فى مكانه ، وسجاه(١) ببردته . فكان المشركون إذا نظروا من ثقب الباب وجدوا شبحاً نائماً وعليه بردة الرسول فيعتقدون أنه محمد فيطمئنون .

ثم خرج محمد صلوات الله وسلامه عليه على المشركون وهو يقرأ (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون) .

فألقى الله النوم عليهم فلم يره أحد منهم ، ثم تقابل الرسول مع أبى بكر وسارا حتى بلغا غار ثور ، فاحتبآ فيه ثلاث ليال حتى ينقطع الطلب عنهما ، وتيأس قريش من مطاردتهما .

فى غار ثور :

وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى غار ومعه صاحبه الوفى الأمين أبو بكر الصديق رضى الله عنه . وقد سبق أبو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دخول الغار ليستبرئه(٢) فلما اطمأن إلى سلامته من الهوام والحشرات نادى الرسول صلى الله عليه وسلم بالدخول ، ومكثا فى ذلك الغار الموحش ثلاث ليال .

وكان عبد الله بن أبى بكر قد عرف من أبيه حين الهجرة من مكة أنه سيلجأ مع النبى إلى غار ثور . فكان إذا كان الليل ينطلق إلى الغار فيقص على رسول الله وعلى أبيه ما رآه من مشركى قريش وما سمع من تدبيرهم ، ثم يأتى عامر بن فهيرة مولى أبى بكر بأغنامه فينال الرسول وأبو بكر من ألبانها ولحومها ما يشاءان ، ثم يعود عبد الله بن أبى بكر ويعود عامر بالقطيع وراءه ليعفى(٣) على أثره ، ويعود اللاجئان إلى عزلتها بالغار يؤنسهما الإيمان ، وتحيط بهما عناية الرحمن .

---

(١) سجاه : أى غطاه (٢) ليستبرئه أى ليختبره .

(٣) ليعفى : أى ليغطى على أثره ، حتى لا يعرف .

وقد فزع مشركو قريش لهجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخروجه من مكة أشد الفزع ، فطاردوه فى كل مكان وقعدوا له كل مرصد ، وتتبعوا آثاره وآثار صاحبه ، حتى انتهى بهم المطاف إلى مقربة من غار ثور ، وقد ساورهم الشك فى أن يكون محمد وصاحبه قد لجآ إلى ذلك الغار . فأخذوا يتشاورون فيما بينهم ويتساءلون ، وكان على مقربة من الغار راع . فلما رآه المشركون سألوه : هل رأيت محمداً وأبا بكر ؟ وهل تعرف أين ذهبا ؟ وأجاب الراعى : قد يكونان بالغار ، وإن لم أر أحداً أمه(١) .

وسمع الرسول صلوات الله وسلامه عليه وأبو بكر هذا الحديث وسمعا وقع أقدام المشركين وهم يتقدمون نحو الغار فاستولى الخوف الشديد على أبى بكر الصديق حتى تصبب عرقاً وقال يارسول الله لو نظر أحدهم إلى موقع قدمه لرآنا ، ولكن الرسول كان يطمئنه ويقول له : « يا أبا بكر ما ظنك فى رجلين الله ثالثهما . يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا » .

ثم تقدم واحد منهم نحو الغار ، ودار حوله ، وأمعن النظر فيه ، فلم يلبث أن عاد أدراجه ، وسأله أصحابه : ماذا رأيت بالغار ؟ فقال : إن العنكبوت عليه من قبل ميلاد محمد ، وقد رأيت حمامتين وحشيتين على فم الغار ، فعرفت أن ليس فيه أحد ، فاعتقد المشركون أن الغار مهجور ورجعوا خائبين .

وهكذا تتجلى عناية الله ، ورعايته للرسول فى كل خطوة من خطواته وفى ذلك يقول الله عز وجل :

(إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما

---

(١) أمه : قصده .

فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم)(١) .

وإذا كان القرآن الكريم لم يشر إلى نسيج العنكبوت ، ولا إلى وجود حمامتين وحشيتين عند الغار ، فإن كتب الحديث النبوى قد أشارت إلى شيء من ذلك ، فقد ذكر أحمد فى مسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أهل مكة لما اقتفوا أثر الرسول بعد خروجه من مكة وصلوا إلى جبل ثور ، فصعدوا فيه فمروا بالغار فرأوا على بابه نسيج العنكبوت ، فقالوا : لو دخل هنا أحد لم يكن نسيج العنكبوت على بابه(٢) .

على أننا يمكن أن نستشف من قوله سبحانه (فقد نصره الله) أى أيده بعنايته . ومن قوله (وأيده بجنود لم تروها) أن نسيج العنكبوت ووجود الحمامتين الوحشيتين وإخفاء هذه الأشياء لمحمد وصاحبه عن عيون الأعداء إنما هو أثر من عناية الله ورمز لجنود الله .

إن جنود الله هى القوى التى يمتلىء بها الكون ويسخرها الله ـ إذا شاء ـ للقضاء على الظالمين ، أو إعانة الضعفاء ، أو إغاثة الملهوفين ، وقد يتمثل ذلك فى إنسان أو حيوان ، أو طائر ، أو أى كائن صغير أو كبير .

ومن عجب أن المفسرين حينما يفسرون قوله سبحانه (وأيده بجنود

---

(١) من سورة التوبة آية ٤٠

(٢) المسند للإمام أحمد ج ٣ ص ٢٧ ، المنتخب من السنة ١ / ١٢٧

لم تروها) يقولون عنها : إنها الملائكة التي نزلت فى يوم بدر ، وفى يوم حنين . !

ولا أن الآية تتحدث عن الغار وما وقع فيه من رعاية إلهية لمحمد وصاحبه ، وكل الأفعال الواردة فى الآية الكريمة من إنزال السكينة وتأييد الرسول بالجنود ، وجعل كلمة الذين كفروا هى السفلى ، وكلمة الله هى العليا . . وكل ذلك إنما يتعلق به الظروف التى اختصها الله بالذكر فى هذه الآية وأعنى بها (إذ أخرجه) و (إذ هما فى الغار) و (إذ يقول لصاحبه لا تحزن) .

ومن هنا يسوغ لنا أن نقول ـ والله أعلم ـ إن تأييد الله لرسوله بالجنود يقصد به فى هذه الآية ماسخره الله من القرى لنصرة محمد وتيسير طريقه إلى يثرب ، وإخفـــاء المعالم التى تدل عليه حتى يصل إلى غايته فى أمن وسلام .

ولله قول شوقى حينما يسجل تلك العناية فى قصيدته نهج البردة :

سل عصبة الشرك حول الغار حائمة
لولا مطـــاردة المختـار لم تحم

هل أبصروا الأثر الوضاء أم سمعوا
همس التسابيـح والقرآن من أمم

وهل تمثل نسج العنكبوت لهم
كالغاب والحائمات الزغب كالرخم ؟

فأدبروا ووجـــوه الأرض تلعنهم
كباطـل من جـلال الحق منهزم

لولا يد الله بالجـارين ماسلمـــا
وعينه حول ركـن الدين لم يقم

تواريا بجناح الله واستترا
ومن يضم جناح الله لا يضم

وبعد ثلاثة أيام قضاها الصاحبان فى غار ثور ، وبعد أن هدأ الطلب وسكن الناس عنهما ، أتاهما الدليل عبدالله بن أريقط ببعيرين لهما ، وبعير له ، وأتتهما أسماء بنت أبى بكر بطعامهما .

فلما ارتحلا لم تجد ماتعلق به الطعام والماء فى رحالهما ، فشقت نطاقها وعلقت الطعام بنصفه وانتطقت بالنصف الآخر ، فسميت ذات النطاقين(١) :

وتتحدث السيدة أسماء عما أخذه أبوها من ماله فى يوم الهجرة فتقول :

« لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرج أبو بكر معه ، احتمل أبو بكر معه خمسة آلاف درهم ، وكانت هى كل ماله ، فدخل علينا جدى أبو قحافة ، وقد ذهب بصره فقال : والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه . فقلت له : كلا ياأبت إنه قد ترك لنا خيراً كثيرا ، قالت ثم أخذت أحجارا فوضعتها فى كوة فى البيت الذى كان أبى يضع ماله فيها ثم وضعت عليها ثوباً ثم أخذت بيده فقلت . يا أبت ضع يدك على هذا المال ، قالت : فوضع يده عليه فقال : لا بأس إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفى هذا بلاغ لكم . ثم تقول السيدة أسماء : ولا والله ما كان قد ترك لنا شيئا . ولكنى أردت أن أسكن الشيخ بذلك(٢) .

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ٤ ، ويذكر ابن هشام أن أبا بكر أردف وراءه مولاه عامر بن فهيرة ليخدمهما فى الطريق .

(٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ٥

حديث سراقة :

وكانت قريش قد رصدت مائة ناقة مكافأة ناجزة لمن يأتيهم بمحمد حياً أو ميتا ، وهى مكافأة يسيل لها لعاب الباحثين عن الثروة وطلاب المال ، وقد تطلع الكثيرون من الشبان الأقوياء والفرسان الشجعان ، فبحثوا عن محمد فى كل مكان ، وتتبعوا آثاره وأخباره حتى كادوا ينبشون الجبال ويسألون الحصى والرمال .

وكان من أكثرهم حرصا وتلهفا على الظفر بهذه الجائزة الكبرى ، رجل من بنى مدلج يقال له سراقة بن مالك ، وكان قد سمع من بعض المسافرين القادمين من مكة أمارت واضحة تدل على الطريق الذى يسير فيه محمد وأصحابه وكان عددهم جميعا أربعة(١) فأخذ يضلل السامعين ويعمى عليهم حتى يظفر وحده بالإبل المائة ، ويظفر إلى جوار ذلك بالفخر أمام أهل مكة الذين أعياهم البحث عن محمد واستسلموا فى النهاية لليأس والفشل .

وقد جهز الرجل عدته وسلاحه وامتطى فرسه ، وانطلق يعدو ميمما الطريق والمكان الذى توقع فيه ضالته المنشودة ، حتى أصبح على مرمى البصر من محمد ومرافقيه . ويقول سراقة إن فرسه عثرت به ثلاث مرات ، وفى المرة الثالثة ساخت قوائمها فى الرمال ، فانتزعها من الأرض ، فتصاعد منها دخان كالإعصار(٢) وحينئذ فزع سراقة ، وأدرك أن سراً عجيباً وعناية خاصة تحيط بهؤلاء الناس ، وأنه إن استمر فى طلبهم فسوف يسعى

---

(١) والثلاثة الآخرون هم : أبو بكر ، وعامر بن فهيرة ، وعبد الله ابن أريقط .

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ٦ ، والإعصار : هو الريح الشديدة .

إلى حتفه بظلفه ، فناداهم قائلا : أنا سراقة بن جعشم ، انظرونى أكلمكم ، فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : قل له : وماذا تبتغى منا ؟ فقال ذلك أبو بكر ، فأجابه سراقة : أريد أن تكتب لى كتابا يكون آية بينى وبينك . قال : أكتب له يا أبا بكر ، فكتب له كتابا بما طلب ثم ألقاه إليه(١) .

ورجع سراقة إلى مكة مأخوذاً بما وقع له ، ومصمما على تنفيذ ماتعهد به من إبعاد الأذى عن محمد وصاحبه ، وتضليل كل من يريد بهم الشر والسوء .

ويذكر الرواة أن أبا جهل وجه اللوم إلى سراقة حينما رجع دون أن يتحقق له شىء ، فقال سراقة وكان شاعراً .

أبا حكم والله لو كنت شاهداً

لأمر جوادى إذ تسوخ قوائمه

علمت ولم تشكك بأن محمداً

رسول ببرهان فمن ذا يقاومه ؟

عليك بكف القوم عنه فإننى

أرى أمره يوماً ستبدو معالمه

---

(١) ظل سراقة محتفظا بهذا الكتاب حى كان يوم فتح مكة فأقبل يزاحم بمنكبيه بين الناس ويطلب لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا مثل بين يديه قال : يا رسول الله أنا سراقة بن مالك وهذا هو كتابك لى أيام الهجرة . . فقال الرسول : اليوم يوم وفاء وبر ثم دنا سراقة من الرسول وأعلن إسلامه .

بأمر يود الناس فيـه بأسرهم
بأن جميع الناس طرآ يسالمه(١)

وسواء أكان هذا الشعر لسراقة نفسه أم أنه من كلام غيره، فإنه بلا شك تعبير صادق عما كان يجيش فى صدره بعد ما رأى تلك العناية التى تحيط بمحمد وتحول بين أعدائه وبين ما يشتهون .

وقد واصل الرسول صلى الله عليه وسلم سيره فى هذا الركب مولياً وجهه شطر يثرب ولكن الدليل سلك بهم طريقاً غير مألوف حتى يمعن فى تضليل الأعداء والاستخفاء عن أعينهم ، فاتجه إلى تهامة على مقربة من شاطىء البحر الأحمر ، ومر على أمكنة يصعب فيها السير ، ولكنه اختارها لبعدها عن الطريق المعروف، فمر بعسفان، وسميت بذلك لتعسف السير فيها ، ومر بالجداحد ، وهو مكان كثير الصخور ، ومر بالعرج ، وهو مكان ينعرج فيه الطريق ، وهكذا حتى وصلوا إلى قباء بعد رحلة فى صحراء الجزيرة العربية استمرت اثنى عشر يوماً ، لقى الرسول وأصحابه خلالها من وعثاء السفر ووحشة الطريق وكيد الأعداء ما ينوء بالأبطال .

وقد أقام الرسول صلى الله عليه وسلم أربعة أيام فى قباء ، وفيها أسس مسجدها المبارك ، الذى وصفه الله عز وجل بقوله : (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين)(٢) .

ثم غادر رسول الله صلى الله عليه وسلم قباء واتجه إلى المدينة، حيث كان الأوس والخزرج وهم الأنصار يحيطون به عن يمين ويسار ، وقد تقلدوا

---

(١) الروض الأنف للسهيلى ج ٢ ص ٦

(٢) من سورة التوبة آية ١١٠

سيوفهم ، وامتلأت نفوسهم بالبشر والسرور ، فكانت لحظات خالدة في تاريخ المدينة وكان يوما عظيما في تاريخ الإسلام، وخرج النساء والصبيان في جو من النشوة والفرح تتردد فيها الأناشيد الجميلة .

ثم سار في المدينة في موكب من النور ، وكلما مر الرسول على دار من دور الأنصار ، دعاه أهلها للنزول عندهم ، وأخذوا بزمام ناقته ، فيقول لهم الرسول صلى الله عليه وسلم : « دعوها فإنها مأمورة » ، ولم تزل سائرة حتى بركت في محله(١) من محلات أخواله بني النجار، أمام دار أبي أيوب الأنصاري فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هنا المنزل إن شاء الله » ، (رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين) فاحتمل له أبو أيوب رحله فوضعه في منزله وخرجت ولائد من بني النجار يقلن :

نحن جوار من بني النجـــار يا حبذا محمـــد من جار

فقال عليه الصلاة والسلام : أتحببنني ؟ فقلن : نعم . فقال الرسول : إن قلبي يحبكن .

واختار عليه الصلاة والسلام: النزول في الدور الأسفل من بيت أبي أيوب ليكون أريح لزائريه، ولكن أبا أيوب رضي الله عنه كره ذلك، وأبى إلا أن ينزل الرسول في الطابق الأعلى إكراماً وإعزازاً لشأنه ، وكان الأنصار يتسابقون في إكرام الرسول صلى الله عليه وسلم ، فما من ليلة إلا وعلى بابه الثلاث أو الأربع من جفان(٢) الثريد ، يأكل منها عليه الصلاة والسلام هو وأضيافه من الأنصار والمهاجرين .

---

(١) في محلة : في مكان .

(٢) الجفنة : القصعة الكبيرة .

تأسيس الدولة الإسلامية الكبرى

ومنذ أول يوم استقر فيه الرسول صلى الله عليه وسلم فى يثرب ، بدأ يؤسس « الدولة الإسلامية الكبرى » التى أذن الله لها فيما بعد أن تمتد فى كل اتجاه ، وتضم بين ذراعيها أقوى دولتين كانتا تتحكمان فى هذا العالم ، وهما دولة الفرس ، ودولة الروم .

وإذا كان كثير من المؤرخين قد درجوا على أن يجعلوا الأسس التى أقيمت عليها الدولة الإسلامية حينئذ ثلاثة فحسب ، وهى بناء المسجد ، والمؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين والمعاهدة بين الرسول وبين اليهود .

فإننا لدى التأمل نستطيع أن نضيف إليها أسساً أخرى ، لها أهميتها حيث حول الكبرى ، وهى إعلاء العصبية القبلية بين الأوس والخزرج ، حيث حول الإسلام قوتها المدمرة إلى قوة نافعة معمرة ، وتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ، إذ ترتب على هذا التحويل ترغيب كثير من القبائل العربية فى الإسلام الذى يقدس بيت الله الحرام ، وتوجيه المسلمين إلى القتال فى سبيل الله ، حتى يتطهر الجو الذى كان يحيط بهم من عوامل الشر والفساد وينفتح المجال أمام الراغبين فى الإسلام ، دون خوف من اضطهاد أو فتنة .

وسوف نتحدث الآن عن بعض هذه الأسس مادام هذا المجال المحدود لا يتسع لها جميعا .

١ — بناء المسجد

شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ وصل إلى المدينة فى بناء مسجده، فى المكان الذى بركت فيه ناقته، وكان هذا المكان مربداً (١) للتمر، مملوكا لغلامين يتيمين فى المدينة، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغلامين وطلب إليهما المربد ليتخذه مسجداً، وتحدث معهما فى شرائه، فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى عليه السلام أن يقبله منهما هبة ولكنه ابتاعه(٢) منهما.

وكان فيه قبور للمشركين وبعض حفر ونخل فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقبور فنبشت، وبالحفر فسويت، وبالنخل فقطع، ثم أمر بالبناء، وكان بناؤه باللبن(٣) ولكن عضادتى(٤) الباب كانتا من الحجارة، وكان سقفه من الجريد، وأعمدته من خذوع النخل، ولا يزيد ارتفاعه عن القامة إلا القليل، وقد اشترك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى حمل اللبنات والأحجار على كواهلهم، وكانوا يروحون عن أنفسهم عناء الحمل والنقل والبناء، فيرددون هذا الغناء :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخره　　فارحم الأنصار والمهاجره

وقد ضاعف من حماس الصحابة فى العمل أنهم رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل بنفسه كواحد منهم، ويكره أن يتميز عليهم، فارتجز بعضهم هذا البيت :

---

(١) المربد : هو مكان التمر　　(٢) ابتاعه : أى اشتراه

(٣) اللبن : هو الطوب الأخضر　　(٤) عضادتا : أى جانباه

لئن قعدنا والرسول يعمل   لذلك منا العمل المضلل

وهكذا تم بناء المسجد فى جو يملؤه الإيمان ، وتشيع فيه الأخوة والمساواة .

ولم يكن المسجد على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم مكانا للصلوات الخمس وصلاة الجمعة فحسب ، ولكنه كان مدرسة للتعليم والتهذيب ، أستاذها ومعلمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطلابها هم أصحابه الأبرار رضوان عليهم ، وكان محكمة للقضاء بما أنزل الله يفصل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من ينيبه بين المتخاصمين ، وكان داراً للشورى ، يتداول فيه الرسول والمسلمون فى أخص شئونهم وأمورهم ، وكان مركزاً لقياده الجيش تعقد فيه الألوية للرؤساء والقواد ، ويزودون بالنصائح والتعليمات . وكان نزلا لاستقبال الوفود والرسل الذين توجههم الدول للقاء الرسول صلى الله عليه وسلم .

وهكذا كانت رسالة المسجد فى ذلك الوقت ، رسالة خير وإصلاح وتهذيب .

وقد وردت فى فضل المسجد النبوى أحاديث كثيرة ، فقد ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدى هذا ، والمسجد الحرام والمسجد الأقصى » .

وجاء فى الصحيحين أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة » .

وقد بنى بجانب المسجد حجرتان إحداهما لسودة بنت زمعة، والأخرى لعائشة بنت أبى بكر ، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم متزوجا غيرهما

إذ ذاك ، وكانت الحجرتان متجاورتين وملاصقتين للمسجد على شكل بنائه ثم صارت تبنى الحجرات كلما تزوج الرسول على عدد زوجاته(١) .

٢ — المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

كان موقف الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المهاجرين بعد أن تركوا وطنهم، وخرجوا من ديارهم وأموالهم، موقفا دقيقا يتطلب الإخلاص والتضامن ، ويقتضى أن يسود التعاون بينهم وبين إخوانهم الأنصار .

وكان الأنصار وهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة(٢) .

ولا غرو فقد شعروا بحاجة إخوانهم المهاجرين وقدروا ظروفهم العصبية ، فآووهم ونصروهم وضربوا فى الإخلاص لهم والتفانى فى خدمتهم أروع الأمثال ، حتى لقد وصفهم الله عز وجل بذلك الوصف الرائع حيث يقول (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) ، أى يفضلون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم مهما كان فقرهم ومهما اشتدت حاجاتهم .

---

(١) ذكر أبو القاسم السهيلى فى كتابه الروض الأنف ، أن بيوت الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تسعا . بعضها من جريد مطين بالطين وسقفا جريد ، وبعظها من حجارة موضوعة بعضها فوق بعض ، مسقفة بالجريد أيضا . وكانت حجرة عليه السلام أكسية من شعر مربوطة فى خشب عرر . ولما توفى جميع زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم خلطت البيوت والحجر بالمسجد ، وذلك فى زمن عبد الملك بن مروان ، فلما ورد كتابه بذلك ضج أهل المدينة بالبكاء كيوم وفاته عليه الصلاة والسلام .

(٢) الخصاصة الفقر .

وكانت سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذه الظروف القاسية سياسة القائد المحنك الرشيد، فقد عمل على تنظيم صفوف المسلمين وتوكيد وحدتهم، فربط بينهم برباط قوى متين، وذلك أنه عقد تلك الأخوة النادرة المثال بين الأنصار والمهاجرين، وجعل لها من الحقوق والواجبات ما لأخوة النسب(١).

فكان أبو بكر الصديق أخا لخارجة بن زهير «الأنصارى».

وكان عمر بن الخطاب أخا لعتبان بن مالك «الأنصارى».

وكان أبو عبيد بن الجراح أخا لسعد بن معاذ «الأنصارى».

وكان عبد الرحمن بن عوف أخا لسعد بن الربيع «الأنصارى».

وكان عثمان أخا لأوس بن ثابت «الأنصارى».

وهكذا أصبح المهاجرون والأنصار بنعمة الله إخوانا.

وقد أظهر الأنصار من الكرم والتسامح مع إخوانهم المهاجرين ماخفف عنهم آلام الغربة، وعوضهم عن فراق الأهل والعشيرة، حتى ليروى أن سعد بن الربيع عرض على (أخيه) عبد الرحمن بن عوف - وكان لا يملك بيثرب شيئا - أن يشاطره(٢) ماله، فأبى عبد الرحمن وطلب إليه أن يدله على السوق، وبدأ يبيع الزبدة والجبن فى سوق المدينة، فنما ماله، واتسعت ثروته، وأصبحت له قوافل تجارية عظيمة. وصنع غير عبد الرحمن،

---

(١) كان يترتب على هذه الأخوة أن يتوارث الاخوان كما يتوارث الاخوان من النسب إلى أن نزلت آية (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض) فاقتصر التوارث على الأخوة من النسب.

(٢) شاطره ماله: قاسمه إياه مناصفة.

ومن بعض المهاجرين الذين لهم خبرة بالتجارة كما صنع عبد الرحمن ، فيسر الله عليهم وبارك لهم .

أما المهاجرون الذين لم تكن لهم دراية فى التجارة ، فقد عملوا فى أراضى الأنصار ، واشتغلوا بالزراعة بطريق المزارعة مع ملاك الأرض ، وكانوا يلقون كثيراً من الشدة والتعب فى حياتهم ، ولكنهم يأبون أن يكونوا كلا(١) وعالة على إخوانهم الأنصار ، مهما كلفهم ذلك من جهد وآلام .

٣ — المعاهدة بين الرسول واليهود

وكانت المؤاخاة التى عقدها رسول الله صل الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار فى المدينة أساسا لتقوية المسلمين وتوكيد وحدتهم وألفتهم ، وضمانا لحياة كريمة صافية وعيشة راضية .

وكان اليهود يقيمون بجوار المسلمين فى المدينة ، وهم يهود بنى قينقاع وبنى النضير ، وبنى قريظة(٢) ، وكان هؤلاء اليهود أعداء للاوس والخزرج (الأنصار) قبل أن يدخلوا الإسلام ، فلما دخلوا فى الإسلام وقوى أمرهم بمجىء إخوانهم المهاجرين إليهم لمزدادت عداوتهم وحقدهم عليهم (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) .

فكان من سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم وحسن تدبيره أن يبدأ هؤلاء اليهود بالمودة ، ويبسط لهم يد الأخوة ، ويتفق معهم على التضامن

---

(١) الكل : الثقل . والعالة : بهذا المعنى أيضا .

(٢) كان يهود بنى قينقاع يقيمون فى المدينة ، وكان يهود بنى النضير ويهود بنى قريظة على مقربة منها .

والتعاون ، حتى تكون المدينة كلها صفا واحداً وقوة واحدة ، وحتى لا يطمع فى المدينة طامع وينال منها عدو .

وقد كتب الرسول صلى الله عليه وسلم معاهدة بين فيها حقوق المسلمين وواجباتهم ، وحقوق اليهود وواجباتهم ، وكان أساس هـذه المعاهدة الأخوة فى السلم ، والدفاع عن المدينة وقت الحرب ، والتعاون التام بين الفريقين إذا نزلت شدة بأحدهما أو كليهما .

وقد جاء فى هذه المعاهدة : « وأن اليهود أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم . ومن ظلم أو أثم منهم فإنه لا يوتغ (لا يهلك) إلا نفسه وأهل بيته ، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة(١) وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ، وأن ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وأن من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم ، وأن الله جار لمن بر واتقى » .

وقد كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه المعاهـدة معاهدات خاصة مع اليهود ، تتجه إلى هذه الأهداف وتدور حول تلك الأغراض . وقد دلت هذه المعاهدات الجليلة على سمو تفكير الرسول صلى الله عليه وسلم وحسن سياسته ، فهى تقرر حرية العقيدة ، وحرية الرأى ، وحرمة المدينة وتحرم الجرائم ، وتحارب الظلم والإثم ، وقد وضعها رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قرابة أربعة عشر قرنا من الزمان ، ولكنها لا تزال إلى هذا العصر الذى نعيش فيه نبراسا يهتدى به الساسة والقادة ، إذا اضطربت الأمور وأظلم السبيل .

---

(١) أهل هذه الصحيفة : أى أصحاب هذه المعاهدة وهم المسلمين واليهود .

ولاشك أن هذه المعاهدات الخالدة كانت ذات أثر كبيرة فى تقوية عزائم المسلمين ، وحفظ المدينة مع مطامع المشركين المعتدين ، ولولا أن اليهود غدروا وخانوا ، ونقضوا العهود والمواثيق ، وبدأوا بالعدوان على المسلمين ، لما وقف رسول الله منهم موقف العداء ، ولظلت المدينة يغمرها الوئام والصفاء ، ولكن اليهود غدروا وخانوا وبدأوا بالعدوان ، فرد الرسول والمسلمون على إساءتهم وظلمهم ، بما جعلهم عبرة أمام القرون والأجيال وما ظلمهم الله ولكن كانوا لأنفسهم ظالمين .

الفصل الخامس

القتال فى الإسلام ، وغزوة بدر الكبرى

١ — القتال فى الإسلام :

حينما نتتبع الآيات القرآنية التى تعرضت للقتال ، يتجلى لنا أنها تهدف إلى غرضين : أولهما الدفاع عن النفس ورد الظلم والعدوان ، وثانيهما الدفاع عن الدعوة إذا وقف أحد فى سبيلها بفتنة من آمن ، أو بصد من أراد الدخول فى الإسلام ، أو بمنع الداعى من تبليغ دعوته .

وفى ذلك يقول الله عز وجل فى سورة الحج : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) .

وفى هذه الآيات يظهر السبب الذى من أجله فرض القتال على المسلمين ، وهو أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق .

ثم تنبه الآيات المؤمنين الذين أذن لهم بالقتال إلى ما يجب أن يفعلوه إذا هم انتصروا على عدوهم وهو أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، ليكونوا خير دعاية لهذا الدين الحنيف .

ثم ينتقل الله بالمسلمين إلى مرحلة أخرى ، فيأمرهم بعد أن ردوا الظلم

والعدوان الذى أصابهم من قريش بأن يقاتلوا كل من يتعرض لهم بسوء أو يبدؤهم بشر ، فيقول فى سورة البقرة .

(وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين) .

ثم يأمرهم بالقتال لتقرير حوية العقيدة ، والبعد بها عن الأغراض والأهواء . كى يكتمل لها الجو الملائم ، فينضوى تحت لوائها من يشاء دون خوف من اضطهاد وفتنة ، وذلك بقوله فى السورة نفسها :

(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) .

وقوله فى سورة الأنفال :

(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير) .

ثم يأمرهم الله بالجنوح للسلم متى جنح لها أعداؤهم ، حتى ولو كانوا يريدون به الخداع ويخفون وراءه الأطماع ، لأن الغرض هو تأمين الدعوة ، وألا تكون فتنة ، والسلام كفيل ذلك .

وفى ذلك يقول الله عز وجل فى سورة الأنفال :

(وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ، وإن يريدوا أن يخدعــوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين) .

ويبين الكتاب الكريم أن المسلمين لا سبيل لهم على من يعتزل الفتنة من المشركين ويترك القتال ويلقى للمسلمين بالسلام فيقول :

(فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) .

أما إذا لم يكن ميلهم للسلام حقيقياً ، بل كانوا مذبذبين مخادعين ، فعلى المسلمين أن يقاتلوهم حتى يستأصلوا الشر ويقطعوا دابر الفتنة .

وفى ذلك يقول الله سبحانه :

(ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً)(١) .

وكان الأمر مقصوراً على قتال قريش ومن يحاربهم ويخالفهم من يهود المدينة ، فلما اتحدت قبائل العرب المختلفة على المسلمين ، أمر الله المسلمين بقتال المشركين من كافة القبائل ، فقال سبحانه : (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) .

وبهذه الآيات التى سقناها من الكتاب الكريم ، يتبين لنا أن الإسلام لم يشرع القتال للمسلمين إلا للدفاع عن أنفسهم ، ولتأمين الدعوة من أن تقف الفتنة فى طريقها .

وحسبنا برهانا على تلك الروح الطيبة المسالمة : أن الإسلام لا ينهى

---

(١) من سورة النساء آية ٩١

عن البر والإحسان لمن يخالفوننا فى الدين ، ما داموا هادئين مسالمين .

وفى ذلك يقول الله عز وجل فى سورة الممتحنة :

(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولوهم فأولئك هم الظالمون) .

وأما من الناحية العملية فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، فهى تطبيق دقيق لما أمره الله به من الهدوء والمسالمة للمسلمين ، والعدوان على الظالمين المعتدين .

ونحن إذا استقصينا كل مواقف الرسول مع أعدائه ، فإننا لا نجد فيها بدءاً بهجوم أو عدوان . وإنما نراها جميعاً رداً للظلم والعدوان .

فغزوة بدر مثلا ـ وهى الغزوة الكبرى الأولى فى الإسلام ـ لم تكن عدواناً من جانب المسلمين . وإنما كانت لرد الظلم والعدوان السابقين ، وهى ـ فى واقع الأمر ـ دفاع عن النفس والمال والوطن .

ولا غرو فقد أخرج المسلمون من ديارهم بغير حق إلا أنهم قالوا ربنا الله وكان عليهم بعد أن اكتملت لهم أسباب القوة فى المدينة ، أن يثبتوا وجودهم ، ويردوا الظلم الذى أصابهم . ولذا أمرهم الله بالقتال ، ووصفهم بأنهم يقاتلون ، أى يقاتلهم غيرهم ، ووصفهم ـ كذلك ـ بأنهم ظلموا ، لأن العدوان قد أصابهم من قبل فقال :

(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله

الناس ببعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع صلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز)(١) .

ثم تتابعت غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان المشركون هم الذين يبدأون دائماً بالشر والعدوان ، كما وقع فى غزوة أحد ، وفى غزوة الأحزاب ، حتى إذا كان العام السادس الهجرى تم صلح الحديبية بين قريش والمسلمين . وأعلنت بهذا الصلح الهدنة بين الفريقين إلى عشر سنوات مادام كلا الفريقين يحترم العهود والمواثيق ، ولكن قريشا هى التى غدرت وخانت ، فحاربت قبيلة خزاعة التى كانت حليفة للمسلمين ، فكانت هذه الخيانة عدواناً صريحاً من جانب مشركى قريش لا يصح السكوت عليه .

ومن أجل ذلك تجهز الرسول صلى الله عليه وسلم فى عشرة آلاف من المسلمين ليغزو قريشاً فى مكة . فسلمت إليه مكة ، وأذعنت . وكان ذلك فى العام الثامن الهجرى .

ومثل هذا الموقف العدائى الذى بدأ بالشر والعدوان ، كان موقف اليهود من الرسول صلى الله عليه وسلم - كما تبين لنا فيما تقدم - ذلك بأنهم لم يحترموا العهود والمواثيق التى أبرمها الرسول معهم فحاق بهم سوء صنيعهم حيث كتب الله على فريق منهم الجلاء ، وقضى على الفريق الآخر بالهلاك والفناء (وما ظلمهم الله لكن كانوا أنفسهم يظلمون) .

٣ — غزوة بدر الكبرى :

كانت غزوة بدر الكبرى تطبيقاً عملياً ، وضحت به مشروعية القتال فى الإسلام ، وهى الدفاع عن النفس ، ورد الظلم والعدوان ، كما كانت الغزوات

---

(١) من سورة الحج الآية ٣٨ ، ٣٩

التى جاءت بعدها فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم دفاعاً عن النفس ، ورداً للظلم ، وتأميناً لطريق الدعوة ، حتى لا تقف فى سبيلها الحواجز ، وحتى لا يكون فتنة ويكون الدين كله لله .

ولقد كانت غزوة بدر الكبرى هى أول معركة كبيرة فى الإسلام ، قامت بين الحق والباطل .

وكان سببها أن قافلة تجارية لقريش بقيادة أبى سفيان ، كانت قادمة من الشام ، وفى طريقها إلى مكة ، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعترض طريق هذه القافلة ، ليفجع قريشا فى أموالها ، كما فجعت قريش المسلمين من قبل فى أموالهم وأنفسهم ، وخرج الرسول صلى الله عليه وسلم فى ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا من أصحابه فى اليوم الثامن من رمضان ومعهم سبعون بعيراً وفرسان .

وحينما علم أبو سفيان بخروج الرسول وأصحابه فزع كل الفزع ، وأرسل إلى قريش يطلب الغوث والنجدة ، فثار القرشيون ثورة عنيفه ، ونفروا سراعا وعلى رأسهم سادتهم وكبراؤهم ، وكانت عدتهم تسعمائة وخمسين رجلا ، ومعهم مائة فرس وسبعمائة بعير ، ومضى مشركو قريش فى طريقهم لنجدة أبى سفيان ، وتخليص أموالهم من قبضة المسلمين ، وبينما هم فى الطريق وصلهم رسول من أبى سفيان يخبرهم بنجاته هو وقافلته ويطلب إليهم الرجوع .

ولكن أبا جهل تحمس للحرب والقتال ، وأبى إلا أن يتقدم حتى يصل إلى بدر(١) ، وصاح قائلا : والله لا نرجع حتى نصل إلى بدر ، ونقيم عليها ثلاثاً ننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا

(١) بدر : مكان معروف فى الجنوب الغربى من المدينة ، وكان للعرب فيه سوق تعقد كل عام ثمانية أيام .

القيان(١) . وتسمع بنا العرب وبمسيرتنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها .

وتردد القوم بين اتباع أبي جهل مخافة أن يتهموا بالجبن والخور ، وبين الرجوع إلى مكة ، مادامت البعير قد نجت ، أموالهم قد سلمت ، فلم يرجع إلا بنو زهرة الذين اتبعوا مشورة الأخنس بن شريق ، وكان سيداً مطاعاً فيهم ، واتبعت سائر قريش رأى أبي جهل ، ومضوا فى طريقهم حتى وصلوا وادى بدر ، ونزلوا بالعدة القصوى عن المدينة .

وحينما علم الرسول صلى الله عليه وسلم بأن قريشاً خرجوا بجموعهم ليمنعوا عيرهم ، جمع أصحابه واستشارهم ، فتكلم أبوبكر ، ثم عمر ، بما يؤيد الرسول صلى الله عليه وسلم ويعضده ، ثم تكلم المقداد بن عمرو فقال : يارسول الله امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

ثم تكلم سعد بن معاذ من الأنصار فقال : « لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك ، فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وماتخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر فى الحروب ، صدق فى اللقاء ، ولعل الله يريك منا ماتقر به عينك . فسر بنا على بركة الله »(٢) .

وهنا يجدر بنا أن نقف وقفة إعجاب وتقدير ، فإن عظمة الجنود إنما

---

(١) القيان : الجوارى .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٦٤

ترتكز على أساس من عظمة القائد . ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقود أصحابه إلى ميدان الجهاد مستضيئاً بهدى القرآن وتعاليم الإسلام ، التى تعد المجاهدين فى سبيل الله إحدى الحسنيين ، وتبشر الشهداء بالحياة السعيدة الخالدة حيث يقول الله عز وجل :

(ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون)(١) .

ومن أجل ذلك نجحت تلك القيادة الرشيدة وسادت . حتى علا لواء الإسلام فى كل مكان ، وانسابت كلمة الحق بين الأمم تحيى موات الأنفس والأرواح والقلوب ، وإن فى ذلك لعبرة .

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى طريقهم، وقد أشرق وجه الرسول بالمسرة لما رأى من قوة إيمان المسلمين وقال لهم : سيروا وأبشروا فإن الله وعدنى إحدى الطائفتين(٢) ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم ، وهكذا ظلوا سائرين حتى نزلوا بعدوة الوادى الدنيا ، أى القريبة من المدينة

وقد صدق الله وعده ، فالتقى المسلمون باحدى الطائفتين ، وهى الطائفة الكبيرة ذات الشوكة ، مع أنهم كانوا يريدون غير ذات الشوكة وهى العير ، ولكن الله أراد لهم أن يلتقوا بالنفير ، وهو الجيش الكبير الذى نفر لإنقاذ العير وكان ذلك لحكمة جليلة أرادها الله وسجلها فى محكم كتابه حيث قال :

---

(١) من سورة آل عمران آية ١٦ ، ١٧

(٢) أى العير التى يقودها أبو سفيان ، أو النفير الذين خرجوا من مكة لإنقاذ العير .

(وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون)(١) .

وكان الحباب بن المنذر بن الجموح خبيراً بهذه الأمكنة التى نزل فيها المسلمون فلما رأى الموقع الذى استقر فيه المسلمون لم يرق فى نظره ولم يطمئن إليه ، فقال للرسول صلى الله عليه وسلم : يارسول الله : أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخرعنه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال محمد : بل هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فقال الحباب : يارسول الله فإن هذا ليس بمنزل . فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزل ، ثم نعور(٢) ماوراء من الآبار ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون(٣) .

وحينئذ فكر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فاقتنع بهذا الرأى السديد ، وأعلن أمام المسلمين أنه قد نزل على رأى الحباب ، وأن فى ذلك الحكمة والصواب .

وهنا ـ أيضاً ـ ينبغى أن نقف وقفة إعجاب وتقدير ، فلم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم مستبداً برأيه ، ولا راكباً متن الغرور ، بل كان يشاور أصحابه كى يلتمس وجه الخير والرشاد ، عملا بقوله تعالى : (وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله) .

وكان يحترم الرأى الصائب وينفذه ولو تعارض مع رأيه .

فهل يكون لنا فى ذلك عبرة وتبصرة ؟

---

(١) من سورة الأنفال آية ٧ ، ٨ (٢) أى نتلف ما وراءه

(٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٦٢

إن القادة والرؤساء كثيراً ما يعميهم التعصب الممقوت ، والاستبداد بالرأى ، فينزلقون إلى الشر ، ويجرون وراء الأمم والشعوب إلى مهاوى الفناء .

ولو استطاع هؤلاء القادة والرؤساء السادرون فى عماية الكبرياء والأنانية أن ينتفعوا بهذا الدرس العملى من المربى الأول محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وبمثله من الدروس التى ألقاها الزعماء والمصلحون على الإنسانية لتغير مجرى التاريخ فى كثير من الأزمنة والعصور .

ولما نفذوا رأى الحباب وبنو الحوض قال سعد بن معاذ : يانبى الله نبنى لك عريشا تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يانبى الله مانحن بأشد حباً منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ماتخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك .

وقد أثنى الرسول ﷺ على سعد ، ودعا له بخير ، لأنه قدر الظروف ، وعرف أن مكان القائد هو الإشراف والتوجيه ، فلا ينبغى أن يتعرض للأخطار ، لأن فى حياته حياة الأمة وكيانها وكرامتها .

ثم بنى العريش للنبى حتى يكون فى مأمن من العدو إذا لم يكن النصر فى جانب المسلمين ، وهذا هو الإخلاص والإيثار ، إخلاص الجندى الأمين لقائده الأمين ، وإيثار المؤمن لنبيه على نفسه .

ويمثل هذا الإخلاص والإيثار من الله على المسلمين ، ومكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وبدلهم من بعد خوفهم أمنا . وإن فى ذلك لعبرة ،

في ميدان المعركة :

وقد بدأت المعركة فى اليوم السابع عشر من رمضان ، وفى السنة الثانية من الهجرة النبوية ، حيث وقف الحق أمام البـــاطل وجها لوجه ، والتقى الجمعان : فئة قليلة تقاتل فى سبيل الله ، وفئة كثيرة كافية تقاتل فى سبيل الشيطان .

فانتصر الحق بفضل الله وعلا لواؤه ، ولاذ الباطل بالفرار ، وقد أفل نجمه ، وطاش سهمه .

وأخذ الرسول صلوات الله وسلامه عليه ينظم صفوف المقاتلين من المسلمين ، ثم أعلن بدء المعركة بهذه الكلمة القوية المؤمنة « والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » .

ولا ريب أن الكلمة المؤمنة إذ صادفت القلوب المؤمنة كانت كالغيث الهتون ، يصيب الأرض النقية الطيبة فينبت فيها الخير الكثير .

فلم يكد المسلمون المؤمنون يسمعون هذه الكلمة من نبيهم ، حتى نسوا الدنيا بما فيها من سعادة ونعيم وملك كبير ، وحتى أن أحدهم وهو عمير بن الحمام كان يأكل بعض تمرات فألقاها لأنه آثر عليها تمر الجنة ، وكأنما يراه بعينيه ويلمسه بيديه ، ثم ينطلق مسرعا إلى القتال ، لكى يحظى بنعمة الاستشهاد فى سبيل الله ، وهو ينشد بقلبه ولسانه :

ركضا إلى الله بغير زاد   إلا التقى وعمل المعاد
والصبر فى الله على الجهاد   وكل زاد عرضة النفاد
غير التقى والبر والرشاد

وظل يقاتلهم ويقتل منهم ما شاء الله أن يقتل حتى قتل فى سبيل الله ،
فشفى الله صده بالجهاد ، وحقق له نعمة الاستشهاد . وهكذا :

تردى ثيـاب الموت حمراً فما أتى
لها الليل إلا وهى من سندس خضر

ولقد تجلى فى هذا اليوم وفى هذه المعركة عدل الله مع الظالمين ، إذ لمسوا نتيجة ظلمهم وجنوا عاقبة غدرهم وإثمهم .

(وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد) .

فهذا أمية بن خلف الجمحى القرشى رأس الكفر والضلال ، وداعية الظلم والظلام ، وباعث الشر والفتنة فى مكة والعدو الألد للإسلام منذ ظهوره ، تسلط بظلمه على بلال بن رباح ـ وكان مملوكا له ـ فكان يخرج به وقت الظهيرة فى الرمضاء(١) . ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له « لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيقابل بلال ذلك الأذى بالصبر الجميل والإيمان العميق ، ويتنفس الصعداء من خلال الألم الممض والأسى المرمض قائلا : أحد أحد ..

أجل هذا هو أمية بن خلف فى مكة وقبل يوم بدر . . . ، ثم ها هو ذا الآن فى يوم بدر يتنكر له الزمن ، وتدور عليه الأيام ، فماذا عسى أن يكون ؟

لقد لمس هو والطغاة عاقبة ظلمهم وبغيهم . ونظروا إلى قوتهم فوجدوها متضائلة متخاذلة ، وقد كانت إلى الأمس القريب صائلة وجائلة ، واستصرخوا

---

(١) الرمضاء : هى الرمل الشديدة الحرارة ولو وضعت عليها قطعة لحم لنضجت .

آلهتهم المتعددة فلم تسمع ولم تجب . بينما كانوا المسلمون ينادون إلههم الواحد فيرونه قريباً ، ويجدونه سميعاً مجيباً .

ونظر أمية بن خلف فى صفوف المسلمين فرأى عبده القديم بلال بن رباح يمرح فى نعيم الحرية ، ويصول ويجول تحت ظلال العزة الإسلامية .

ونظر بلال بن رباح فى صفوف المشركين فرأى أمية بن خلف وقد ساقه الله مع جند الباطل ، حتى أصبح أمامه وجهاً لوجه ، فأدرك تمام الإدراك أن هذا اليوم يوم القصاص ، وتذكر تاريخ أمية الملطخ بالخزى والعار ، فثارت نفسه وصاح قائلا : « أمية بن خلف رأس الكفر والضلال ، لا نجوت إن نجا » .. وحاول أمية بن خلف أن يتواري عن الأنظار ، ويلوذ بالفرار ، ولكن القضاء العادل نفذ وحكم الله بأمره ، فكان القصاص الرهيب فى الدنيا قبل الآخرة ، وذهب أمية بن خلف صريع بغيه وعدوانه ، على يدى بلال . ورأى بلال فى أمية ما أطفأ ألمه القديم ، وداوي قلبه الكليم ، كان خير عوض عن حقه المهضوم ، وإن فى ذلك لعبرة .

وعقبة بن أبي معيط عدو الله ورسوله .

والنضر بن الحارث عدو الله ورسوله .

وأبو جهل عدو الله ورسوله(١) .

هؤلاء وغيرهم من أئمة الكفر الذين لا إيمان لهم ، وقفوا فى يوم بدر للقصاص ، ورأوا بأعينهم نكال أمرهم وعاقبة بغيهم وظلمهم ، وكانت نهايتهم الأليمة عبرة وعظة ، سجل التاريخ فيها أن الظلم لايدوم ، وأن مرتع البغى وخيم ، وأن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله .

---

(١) ذكرت هذه الحوادث فى جميع كتب السيرة والتاريخ لدى الكلام على غزوة بدر .

اللجوء إلى الله :

وحينما اشتدت المعركة ، وثار الغبار ، وحمى وطيس القتال ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم كثرة عدد المشركين وقلة عدد المسلمين لجأ - كعادته - إلى الله ليجعل له من هذا الكرب والضيق فرجا ومخرجا ، وتوجه إلى ربه بهذا الدعاء : « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم إلا تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » .

وما زال ماضيا فى دعائه ، ورافعا يديه إلى السماء ، طالبا من الله ألا يردهما خاليتين من رحمته ، وأبو بكر رضى الله عنه من ورائه يهتف به قائلا : يانبى الله ، بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ماوعدك .

وهكذا يظل الرسول مع ربه ضارعا خاشعا ، حتى أخذته سنة من النعاس ، فرأى خلالها نصر الله يضىء ويملأ الآفاق . فاستيقظ وهو فرح مستبشر يتلو قول الله تعالى (سيهزم الجمع ويولون الدبر) .

وقد ابتدأت معركة بدر صباح يوم الجمعة ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وانتهت فى مسائه بنصر مبين للمسلمين ، وهزيمة ساحقة للمشركين ، فولوا مدبرين بعد أن قتل منهم سبعون ، وأسر منهم مثل هـذا العدد ، واستشهد من المسلمين أربعة عشر ، وبقى المسلمون فى بدر ثلاثة أيام بعد المعركة ثم غادروها عائدين إلى المدينة ، فرحين بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ..

دور الملائكة فى يوم بدر :

وكان يوم بدر يوم السماء ، نزلت فيه الملائكة إلى الأرض تثبت الذين آمنوا ، وتلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب .

وفى ذلك يقول الله عز وجل (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم)(١) .

ويقول : (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان)(٢) .

موقف الرسول من الأسرى :

وقد استشار الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه بعد أن أتم عليهم النعمة بالنصر فى أمر الأسرى من مشركى قريش ، وكان عددهم سبعين أسيراً .

فقال عمر بن الخطاب : يارسول الله قد كذبوك وقاتلوك وأخرجوك فاضرب أعناقهم ، فهم رءوس الكفر وأئمة الضلالة .

ووافقه على ذلك جماعة من الصحابة .

وقال أبو بكر : يارسول الله هؤلاء أهلك وقومك ، وقد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم ، وإنى أرى أن تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم ، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله للإسلام فيكونوا لنا عضداً .

ووافق على هذا الرأى كذلك جماعة من الصحابة .

وقد تلطف الرسول مع صاحبيه الكريمين أبى بكر وعمر ، فضرب لهما أمثلة من الملائكة والأنبياء .

---

(١) سورة الأنفال آية ٩ ، ١٠

(٢) سورة الأنفال آية ١٢

فأما أبو بكر فمثله فى الملائكة كمثل ميكال ينزل برضا الله وعفوه عن عباده .

ومثله فى الأنبياء كمثل إبراهيم ، كان ألين على قومه من العسل ، قدمه قومه إلى النار وطرحوه فيها فما زاد على أن قال (فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم)(١) .

وكمثل عيسى إذ يقول : (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم)(٢) .

وأما عمر فمثله فى الملائكة كمثل جبريل ينزل بالسخط من الله والنقمة على أعداء الله .

ومثله فى الأنبياء كمثل نوح إذ يقول : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً(٣) .

وكمثل موسى إذ يقول : (ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم)(٤) .

ثم أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم برأى أبى بكر وترك رأى عمر . وقبل الفداء من الأسرى ، وقال لأصحابه : لا يفلتن أحد من أسراكم إلا بفداء .

فنزل قوله تعالى : (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض

---

(١) سورة إبراهيم آية ٣٦

(٢) سورة المائدة آية ١١٨

(١) سورة نوح آية ٢٦ ، ٢٧

(٤) سور يونس آية ٨٨

تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم. لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم)(١) .

وكان ذلك عتابا من الله لرسوله ، وتبياناً للنهج القويم الذى كان يجب أن يسير عليه .

وبعد : فقد كانت غزوة بدر درسا عمليا تجلت فيه ثمرة الإيمان ، فنصر الله المسلمين وهم قلة ، لأنهم آمنوا بالله وأخلصوا الإيمان وخذل المشركين وهم كثرة ، لأنهم حادوا عن الحق وابتعدوا عن الإيمان .

(ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) .

جلاء بنى قينقاع

وكان انتصار المسلمين فى غزوة بدر محركا لنزوات الشر لدى النفوس الخبيثة والطباع اللئيمة ، فلقد شعر اليهود بعد غزوة بدر بمزيد قوة المسلمين فامتلأت نفوسهم غلا وحقداً ، وأخذوا يتكلمون فى « محمد » صلى الله عليه وسلم وفى المسلمين ، ويطعنون عليهم ، ويتربصون بهم الدوائر .

وكان يهود بنى قينقاع يقيمون فى جوار المسلمين بالمدينة ، وكان بينهم وبين المسلمين عهود فنبذوها وبدأوا المسلمين بالشر والعدوان .

وذلك أن امرأة من نساء الأنصار قد قدمت إلى سوق اليهـــود من بنى قينقاع ومعها حلية لكى تعرضها على صائغ منهم ، فجلست إلى صائغ فى تلك السوق ، فجعل اليهود يريدونها على كشف وجهها وهى تأبى ، فجاء يهودى من خلفها فى سر منها فأثبت طرف ثوبها بشوكة إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتها فضحك اليهود ، وصاحت المرأة صيحة هى مزيج

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٧ ، ٦٨

من الحزن والندم والخجل والاستغاثة فوثب رجل من المسلمين على الصائغ لليهودى فقتله ، واجتمعت اليهود على المسلم فقتلوه .

وحينئذ دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤساءهم وحذرهم عاقبة البغى ونكث العهد وطلب إليهم أن يكفوا عن أذى المسلمين ، وأن يحفظوا عهد المودة والسلام ، حتى لا يصيبهم ما أصاب قريشاً فى غزوة بدر ، ولكنهم استخفوا بوعيده ، وأجابوه قائلين له : « لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قومك لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة . إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس » ثم تظاهروا بالعداوة وتحصنوا فى حصونهم .

فأنزل الله تعالى فى سورة آل عمران : (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ، قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار)(١) .

ثم سار إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم بعد غزوة بدر بشهر واحد يحمل لواءه عمه حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه. فحاصرهم خمس عشرة ليلة متتابعة ، لا يخرج منهم أحد ولا يدخل إليهم بطعام أحد ، ولما رأوا من أنفسهم العجز عن مقاومة المسلمين وأدركهم الرعب ، سألوا رسول الله أن يخلى سبيلهم فيخرجوا من المدينة ولهم النساء والذرية وللمسلمين الأموال . فقبل الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك ، ووكل بجلائهم عبادة بن الصامت وأمهلهم ثلاث ليال رحلوا بعدها إلى أذرعات بالشام .

وهكذا كانت نهاية يهود بنى قينقاع فى أرض الحجاز . وتلك نهاية الخيانة فى كل عصر وحين .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٣

وفى موقف بنى قينقاع من المسلمين نزل قول الله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لايهدى القوم الظالمين، فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة(١) ، فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين)(٢) .

(١) يقصد فى هذه الآية عبد الله بن أبى الذى لم يتبرأ من يهود بنى قينقاع بعد خيانتهم للرسول والمسلمين : وظل متشبثاً بالحلف معهم وقال : إنى رجل أخشى الدوائر .

(٢) سورة . المائدة آية ٥١ ، ٥٢

الفصل السادس

غزوة أحد

مضى عام كامل على قريش بعد هزيمتهم فى غزوة بدر وهم يتوجعون على قتلاهم ، ويهيئون أنفسهم ليوم آخر يستردون فيه كرامتهم ويأخذون بثأرهم . ويسترجعون هيبتهم بين قبائل العرب ، ويؤمنون طريق تجارتهم إلى الشام، حتى لا يتعرض لها المسلمون إذا لاحت لهم فرصة ثانية للإنتقام .

وفى خلال هذه الفترة كانت الجزيرة العربية كلها تغلى بالحقد على المسلمين ، وتتسمع إلى أنبائهم بمزيد من العجب والدهشة . وتحاول بين الحين والحين أن تنال منهم حتى تضعف من شوكتهم وتقلل من خطرهم . . .

ولكن يقظة المسلمين وقوة عزيمتهم أفسدت كل هذه المحاولات .

ومن أمثلة ذلك ما فعله أبو سفيان حينما تجهز بمائتى فارس من مكة ، وقرر أن يباغت محمداً وأصحابه فى خلال نشوة النصر التى يعيشون فيها . فقد استطاع أن يصل إلى أطراف المدينة فى ظلام الليل ، وأن يحرق بيتين ويقتل رجلين ؛ أحدهما من الأنصار والثانى حليف له ، وكانا فى حرث لهما ، ثم ولوا هاربين .

وحينما أحس المسلمون بهم ندب محمد صلى الله عليه وسلم أصحابه، فخرجوا فى أثرهم، فألقى أبو سفيان وأصحابه ما معهم من الأمتعة ليتخففوا من أثقالهم ويستطيعوا النجاة بأنفسهم ، وكان أكثرها من السويق ، فأخذها المسلمون غنيمة باردة وسميت هذه الغزوة غزوة السويق .

ومن ذلك ما فعلته قبائل بنى ثعلب ومحارب، وقبائل بنى سليم ، إذ كانوا يتجهزون لقتال محمد وأصحابه ، ولكن المسلمين خرجوا للقائهم قبل أن يهاجموهم فى المدينة ، ففروا إلى رءوس الجبـــال ، وكفى الله المؤمنين القتـال .

استعداد قريش وخروجها للمعركة :

وكانت العير التى جاء أبو سفيان من الشام، والتى كانت سبباً فى غزوة بدر قد ربحت نحواً من خمسين ألف دينار ، فجمعت كلها وقال أصحابها لأبى سفيان : إن محمداً قد قتل خيارنا . وإنا رضينا أن نترك ربح أموالنا فيها استعداداً لحرب محمد وأصحابه ، وقد رضى بذلك كل من له فيها نصيب. ثم عبأت قريش قوتها ، وأرسلت إلى قبائل البدو المحالفة لها لتشترك معها وتعينها ، فاجتمع من ذلك كله ثلاثة آلاف رجل ومعهم ما يلزمهم من العدة والسلاح .

وكان العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم : واقفا على ما تدبره قريش للنبى ، ومطلعا على كل صغيرة وكبيرة من أمرهم ، وكان لايزال مشركا، ولكن عاطفة القرابة جعلته يرسل كتابا إلى « النبى » قبل أن يفاجئه أعداؤه ، فكان هذا الموقف الكريم عملا جليلا للعباس ، يضاف إلى أعماله الجليلة السابقة التى قام بها قبل إسلامه ، حباً فى ابن أخيه « محمد » عليه الصلاة والسلام .

وخرجت قريش من مكة فى شوال من السنة الثالثة للهجرة مع حلفائهم من بنى كنانة وأهل تهامة ، حتى إذا بلغوا الأبواء ومروا بقبر « آمنة » بنت وهب دفعت الحمية بعض الطائشين منهم إلى التفكير فى نبشه . لولا أن العقلاء منهم تداركوا هذا الأمر حتى لا ينبش المسلمون موتاهم إذا تهيأت

لهم فرصة الانتقام ، ثم تابعت قريش مسيرها حتى نزلت عند بعض السفوح من جبل أحد على بعد خمسة أميال من المدينة .

موقف الرسول والمسلمين :

وعلم الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون بذلك المكان الذى نزل فيه المشركون فجمع الرسول أصحابه ، واستشارهم وقال : « إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قتلناهم فيها » .

فرضى الكبار والشيوخ منهم بهذا الرأى، وقال قائلهم نقيم بالمدينة يا رسول الله وتتركهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا . ولكن الشبان وخصوصا من لم يشهد بدراً من المسلمين لم يرضوا بهذا الرأى وقالوا : يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا حتى لا يروا أنا جبنا عنهم وضعفنا . وما زال هؤلاء برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اتبع رأيهم ، لأنهم الأكثرون عدداً والأقوون جلداً(١) :

فصلى الجمعة فى اليوم العاشر من شوال وحثهم فى خطبتها على الثبات والصبر ، وقال : « لكم النصر ما ثبتم » ثم عقد الألوية ، فأعطى لواء المهاجرين لمصعب بن عمير ، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر ، ولواء الأوس لأسيد بن خضير ، ثم سار الجيش وكان عدده يقرب من الألف رجل حتى إذا كان بالشوط ، وهو بستان بين جبل أحد والمدينة رجع

---

(١) صبراً .

عبد الله بن أبى(١) بثلاثمائة من أصحابه ، وبقى مع الرسول سبعمائة رجل من المؤمنين المخلصين ، فمضوا فى طريقهم حتى وصلوا إلى الشعب من جبل أحد على مقربة من المشركين ، ثم جعلوا ظهورهم للجبل ووجوههم للمدينة .

بدء المعركة :

كان جيش المشركين يبلغ ثلاثة آلاف - كما ذكرنا من قبل - وكان جيش المسلمين لا يزيد على سبعمائة(٢) ، وقد رتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الجيش ونظمه تنظيما دقيقا . ووضع خمسين رجلا من الرماة على شعب فى الجبل وراء جيش المسلمين وقال لهم : احموا لنا ظهورنا فإننا نخاف أن يجيئونا من ورائنا ، والزموا مكانكم ولا تبرحوه . وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم . وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدافعوا عنا وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل فإن الخيل لا تقدم على النبل .

ثم التقى الجمعان وبدأ القتال أولا بالمبارزة ، فكان النصر فى جانب المسلمين ، ثم حملت خيالة المشركين على المسلمين ثلاث مرات ، وفى كل مرة ينضحهم المسلمين بالنبل فيتقهقرون ، ثم حمى القتال : وكان نساء قريش يمشين خلال الصفوف يضربن بالطبول والدفوف ، وعلى رأسهن هند بنت عتبة زوج أبى سفيان وهن يقلن :

ويها بنى عبد الدار ويها حماة الأدبار
ضربا بكل بتار

---

(١) زعيم المنافقين .
(٢) وذلك بعد رجوع عبد الله بن أبى و زعيم المنافقين .

ويقلن :

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

فيشتد حماس الرجال إذا سمعوا نشيد النساء ، ويتذكرون إخوانهم الذين قتلوا فى يوم بدر ، فتزداد حميتهم وإقبالهم على القتال ، وكان عليه السلام كلما سمع نشيد النساء يقول « اللهم بك أجول ، وبك أصول ، وفيك أقاتل . حسبي الله ونعم الوكيل » .

ولم يكن المسلمين بحاجة إلى من ينشد لهم الأشعار ليدفعهم إلى القتال وإنما كانوا يندفعون بإيمانهم العميق ، ويقبلون على الموت فى سبيل الله ، لأن الله وعدهم إحدى الحسنيين : إما النصر ، وإما الشهادة ، وفى كل منهما خير وسعادة .

صور من البطولة والإيمان :

وهناك أمثلة كثيرة من البطولة والإيمان فى هذه الغزوة ، وحسبنا أن نسجل الآن بعضها عسى أن يكون فى ذلك ذكرى وتبصرة

فهذا أبو دجانة يلبس عصابته الحمراء — وكان يسميها عصابة الموت ، ويمشى بين صفوف المجاهدين مشية الخيلاء ، ويراه الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول : إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن ، وقد نزل الميدان بعد أن أخذ السيف من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ ينشد :

أنا الذى عاهدنى خليلى ونحن بالسفح لدى النخيل
ألا أقوم الدهر فى الكيول أضرب بسيف الله والرسول

وهو يقصد بالكيول مؤخرة الصفوف ، فأنه يقول : لن أكون أبداً إلا فى المقدمة مادمت أضرب بسيف الله والرسول : وقد أعمل سيفه فى المشركين فألقى فى قلوبهم الرعب ، وحينما انكشف ظهر المسلمين فى آخر المعركة وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم هدفاً لنبال المشركين ، تترس عليه أبو دجانة ، فصار النبل يقع على ظهره وهو منحن على جسم الرسول حتى انجلت المعركة ، وهكذا آثر رسول الله على نفسه ، وأحب رسول الله أكثر من حبه لنفسه .

وهذا أبو خيثمة قتل ابنه فى معركة بدر ، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لقد أخطأتنى وقعة بدر ، وكنت ـ والله ـ عليها حريصاً ، حتى ساهمت ابنى فى الخروج فخرج فى القرعة سهمه فرزق الشهادة ، وقد رأيت البارحة ابنى فى النوم فى أحسن صورة يسرح فى ثمار الجنة وأنهارها ويقول لى : الحق بنا ترافقنا فى الجنة ، فقد وجدت ما وعدنى ربى حقاً ، ثم قال : وقد أصبحت يا رسول الله مشتاقا إلى مرافقته وقد كبرت سنى ورق عظمى ، وأحببت لقاء ربى فادع الله يارسول الله أن يرزقنى الشهادة ومرافقة ابنى فى الجنة ، فدعا الرسول له ، فنال نعمة الإستشهاد فى هذه المعركة .

وكان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج ، وكان له أربعة أبناء شباب يغزون مع رسول الله ، فلما توجه الرسول إلى أحد ، أراد أن يخرج معه ، فقال له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة فلو قعدت ونحن نكفيك ، وقد وضع الله عنك الجهاد ، فأتى عمرو رسول الله فقال : إن بنى هؤلاء يمنعوننى أن أجاهد معك ، والله إنى لأرجوا أن أستشهد فأطأ بعرجتى هذه فى الجنة فقال له رسول الله : أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد ، وقال لبنيه : وما عليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة . فخرج مع رسول الله فقتل يوم أحد شهيداً ، وحقق الله له ما طلبه وتمناه .

وكان نعيم بن مالك يقول فى ذلك اليوم : فوالذى نفسى بيده لأدخلن الجنة ، فيقول له الرسول : بم ؟ أى بأى شىء تستحق دخول الجنة ؟ فيقول : بأنى أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف ، فيقول الرسول : صدقت . . وقد كتب الله له الشهادة فى هذا اليوم ودخل الجنة ، وهكذا أقسم على الله فأبره .

وقد حمل المسلمون على لواء المشركين فكان إذا سقط اللواء من يد واحد أخذه من خلفه ، فيحمل عليه المسلمون فيقتلونه ، فيأخذ اللواء رجل آخر حتى قتل حملة اللواء من المشركين ، ولما لم يقدر أحد على الدنو منه ولوا الأدبار ونساؤهم يبكين ويولولن وتبعهم المسلمين يجمعون الأسلاب والغنائم .

الرماة يتسببون فى تغيير الوضع :

ولما رأى الرماة الذين أوقفهم الرسول فوق الجبل ليحموا ظهور المسلمين ، لما رأوا المسلمين وقد بدأو يجمعون الأسلاب والغنائم ، نسوا أمر الرسول لهم ، فتركرا موقفهم الحصين ونزلوا إلى مكان القتال ليجمعوا مايستطيعون من تلك الأموال التى خلفها المشركون ، وقد نصحهم رئيسهم عبدالله بن جبير بألا يتركوا مكانهم حرصاً على أوامر الرسول ، فلم يسمع إليه سوى نفر دون العشرة .

وانتهز خالد بن الوليد(١) هذه الفرصة وكان على فرسان مكة ، فشد برجاله على مكان الرماة ، فقتل من ثبت منهم ، وفاجأ المسلمين من ورائهم وهم مشغولون بدنياهم ، فاستولى عليهم الرعب والفزع ، وسادت الفوضى فى صفوفهم ، حتى صار يضرب بعضهم بعضا ، وانعكست الآية ، فبعد أن كان المسلمون يقاتلون صفاً كأنهم بنيان مرصوص ، إذا بهم الآن يقاتلون

---

(١) كان خالد فى تلك الغزوة على ميمنة جيش المشركين ، وقد أسلم سنة ثمان من الهجرة .

مبعثرين متناكرين دون رئيس يوجههم أو قائد يرعاهم ، وشاع بين الناس أن محمداً صلوات الله عليه قد قتل ، فعظمت البلية بين المسلمين ، وفرح المشركون ، ولكن المسلمين عرفوا بعد ذلك أن الرسول لا يزال حياً ، فأحاطوا به يدرءون عنه الأذى والعدوان ، ويفتدونه بأنفسهم حتى ضربوا بذلك أروع الأمثال فى الإيمان .

ولكن الرسول على الرغم من ذلك أصيبت رباعيته ، وشج فى وجنته ، وجرحت شفته ، ودخلت حلقتان من المغفر الذى يستر به وجهه فى وجنته ، واستمات المسلمون بعد ذلك فى القتال ولكن دون جدوى ، فاضطروا إلى الإنسحاب والصعود فى الجبل بعد أن قتل منهم سبعون شهيداً .

وقد قتل فى هذه الغزوة حمزة بن عبد المطلب ، ومثلت به هند زوج أبى سفيان بعد قتله ، فبقرت بطنه ، وأخرجت كبده فمضغتها بأسنانها ثم لفظتها ، وقد حزن الرسول على عمه أشد الحزن ، وسجاه ببردته ، وصلى عليه ثم دفن ، ودفن سائر الشهداء حيث لقوا مصارعهم .

وقد روى ابن إسحاق أن رسول الله قال : « من رجل ينظر إلى ما فعل سعيد بن الربيع أفى الأحياء هو أم فى الأموات ؟ فقال رجل من الأنصار: أنا . فنظر فوجده جريحاً فى القتلى وبه رمق ، فقال له : إن رسول الله أمرنى أن أنظر أفى الأحياء أنت أم فى الأموات ؟ فقال أنا فى الأموات ، فأبلغ رسول الله سلامى وقل له : إن سعد بن الربيع يقول لك : جزاك الله عنا خير ماجزى نبياً عن أمته ، وأبلغ قومك عنى السلام وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف .

ثم دفن الشهداء فى أماكنهم التى قتلوا فيها ، ورجع المسلمون بعد ذلك إلى المدينة يحز فى نفوسهم الألم لما أصابهم ، ويتطلعون ليوم قريب يشفى الله فيه صدورهم ، ويذهب غيظ قلوبهم .

النتيجة فى غزوة أحد :

أجمع المؤرخون على أن غزوة أحد كانت فى نهايتها نصراً للمشركين وهزيمة للمسلمين ، ولكن مؤرخاً واحداً خرج على الإجماع ، واعتبر هذه الغزوة بالنسبة للمسلمين نصراً لا هزيمة . ذلكم هو اللواء الركن الحاج محمود شيت خطاب فى كتابه « الرسول القائد » .

وإليكم ماقاله المؤرخ الكبير :

« لا أتفق مع المؤرخين فى اعتبار نتيجة غزوة أحد نصراً للمشركين وانددحاراً للمسلمين ، لأن مناقشة المعركة عسكرياً تظهر انتصار المسلمين على الرغم من خسائرهم الفادحة بالأرواح فى هذه المعركة .. ونبدأ المناقشة من الوجهة العسكرية البحتة لإظهار حقيقة نتائج غزوة أحد .

لقد انتصر المسلمون فى إبتداء المعركة حتى استطاعوا طرد المشركين من معسكرهم ، والإحاطة بنسائهم وأموالهم ، وتعفير لوائهم فى التراب ، ولكن التفاف خالد بن الوليد وراء المسلمين وقطع خط رجعتهم ، وهجوم المشركين من الأمام ، جعل قوات المشركين تطبق من كافة الجوانب على قوات المسلمين ، وهذا الموقف فى المعركة جعل خسائر المسلمين تتكاثر ، ولكن بقى النصر بجانبهم إلى الأخير ، لأن نتيجة كل معركة عسكريا لا تقاس بعدد الخسائر بالأرواح فقط . بل تقاس بالحصول على هدف القتال الحيوى ، وهو القضاء المبرم على العـــدو مادياً ومعنوياً . فهل استطاع المشركون القضاء على المسلمين مادياً ومعنوياً .

إن حركة خالد كانت مباغتة للمسلمين بلا شك ، وقيـــام المشركين بالهجوم المقابل وإطباقهم على قوات المسلمين من كافة الجوانب وهم متفوقون بالعدد إلى خمسة أمثال المسلمين ، كل ذلك كان يجب أن تكون نتائجه القضاء الأكيد على كافة قوات المسلمين ، ولا يمكن أن يعد التفاف

قوة متفوقة تفوقاً ساحقاً على قوة صغيرة أخرى من جميع جوانبها ، ثم نجاة تلك القوة الصغيرة بعد إعطاء خسائر عشرة فى المائة من موجودها ، إلا انتصاراً للقوة .

ولا يمكن اعتبار فشل القوة الكبيرة فى القضاء على القوة الصغيرة ماديا ومعنويا فى مثل هذا الموقف الحرج للغاية إلا فشلا لها .

ولم تستطع قريش أن تؤثر على معنويات المسلمين أيضا ، وإلا لما استطاعوا الخروج لمطاردتها بعد يوم واحد من غزوة أحد دون أن تتجرأ قريش على لقائها بعيداً عن المدينة ، وخاصة وأن الرسول قد خرج للقاء قريش بقوته التى اشتركت فعلا بمعركة أحد دون أن يستعين بغيرهم من الناس .

إن نجاة المسلمين من موقفهم الحرج الذى كانوا فيه بأحد نصر عظيم لهم ، لأن أول نتائج إطباق المشركين عليهم من كافة الجهات كان الفناء التام(١) .

ونحن نؤيد رأى هذا العالم الجليل ، ونؤمن به كل الإيمان ، ولنا من موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من المسلمين حينما رجعوا من غزوة مؤتة مايؤكد ذلك . فلقد استطاع خالد بن الوليد أن ينقذ مابقى من جيش المسلمين من الفناء التام بما صنع من خطة حربية مكنته من تضليل الأعداء والإنسحاب بانتظام ، وحينما رجع الجيش إلى المدينة قابلهم المسلمون الذين نظروا نظرة سطحية إلى الموقف وحثوا فى وجوههم التراب ، وقالوا لهم « يافرار » فررتم عن الجهاد فى سبيل الله ، ولكن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ـ وقد نظر إلى الموقف من جميع نواحيه ـ اعتبرهم منتصرين وحياهم أحسن تحية فقال « لا : بل هم الكرار وأنا فئتهم » .

وبعد ، فإن خير مانختم به غزوة أحد هو ذلك الدعاء الذى قاله الرسول

---

(١) الرسول القائد ص ١١٩ ، ١٢٠

بعد رجوعه من هذه الغزوة ، فلقد روى الإمام أحمد أنه لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون قال رسول الله : استووا حتى أثنى على ربى عز وجل . فصاروا خلفه صفوفا فقال : « اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادى لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطى لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرب لما باعدت ، ولا مبعد لما قربت . اللهم أبسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك ، اللهم إنى أسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول . اللهم إنى عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا ، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين » .

جلاء بنى النضير

فى السنة الرابعة من الهجرة

كان يهود بنى النضير يقيمون بجوار المدينة ، إذ كانت ديارهم على مقربة من « قباء » . وكان بينهم وبين المسلمين عهود كالتى كانت بين بنى قينقاع وبين المسلمين .

ولكن بنى النضير لم يوفوا بتلك العهود ، ولا عجب فالغدر شيمة اليهود .

فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض أصحابه فى ديار بنى النضير ، إذ تآمر جماعة منهم على قتله ، بأن يأخذ واحد منهم صخرة ويلقيها عليه وهو مستند إلى جدار فى محلتهم .

ولكن الله ألهم رسوله بما يريده هؤلاء من بغى وعدوان ، فقام صلوات الله وسلامه عليه ورجع إلى المدينة ، وتبعه أصحابه ، وأحبط الله مؤامرات بنى النضير ورد كيدهم عن رسوله الكريم .

وحينئذ أرسل الرسول إليهم محمد بن مسلمة يقول لهم : إن رسول الله أرسلنى إليكم أن اخرجوا من بلادى ، لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم

بما هممتم به من الغدر بى ، لقد أجلتكم عشراً ، فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه ، وقد فوجىء بنى النضير بهذا الإنذار ، وتملكهم الأسى والحيرة ، ولكنهم لم يجدوا بدآ من التسليم ، فبدأوا يتهيأون للرحيل .

ولكن جماعة من المنافقين ، وعلى رأسهم عبد الله بن أبى أزعجتهم قوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأرسلوا إلى بنى النضير لا يقولون لهم : لا تخرجوا من دياركم ، وأقيموا فى حصونكم وندافع عنكم حتى نموت أو نخرج معكم .

فلما وصلتهم هذه الرسالة تغير اتجاههم وتشبثوا بالبقاء أملا فى مساعدة هؤلاء المنافقين ، وانقضت الأيام العشرة ولم يخرجوا من ديارهم .

حصار الرسول لبنى النضير :

ولما انقضت الأيام العشرة ولم يخرج بنو النضير من ديارهم ، أمر عليه السلام بالتهيؤ لقتالهم ، فلما اجتمع المسلمون وأعدوا عدتهم ، خرج بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم .

أما بنو النضير فتحصنو فى حصونهم، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فحاصرهم عليه السلام ست ليال ، ثم أمر بقطع نخلهم ليكون ذلك أدعى إلى إضعاف حماسهم للقتال ، فجزع اليهود ونادوا : يامحمد ، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بال قطع النخل وتحريقها ؟ ونسوا أن ذلك بإذن الله تعالى : (ماقطعتم من لينة(١) أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين) .

ولما يئس اليهود من نصرة عبد الله بن أبى ولم يتقدم أحد لنجدتهم ، سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤمنهم على أموالهم ودمائهم

---

(١) المراد باللينة النخلة الصغيرة .

وذراريهم حتى يخرجوا من المدينة . فصالحهم الرسول صلى الله عليه وسلم على أن يخرجوا منهم، ولكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليه ماشاءوا من مال أو طعام أو شراب ليس لهم غيره ، وقد نزل بعضهم بخيبر ، وسار الباقون إلى أذرعات بالشام . وقد ترك بنو النضير وراءهم خمسون درعاً وثلاثمائة وأربعين سيفا ، وأما الأرض فقد استبقى الرسول قسما منها جعلت غلته للفقراء والمساكين ، وأعطى القسم الباقى للمهاجرين الأولين .

وهكذا لقى اليهود من بنى النضير جزاء خيانتهم ، فأذاقهم الله البأساء والضراء ، وكتب عليهم الجلاء ، وأصبحوا أمام الأجيال المتتابعة مثلا سيئا للذلة والصغار ، وأورث الله المسلمين أرضهم وديارهم ، والعاقبة للمتقين .

الفصل السابع

غزوة الأحزاب «الخندق»

مقدمات وأسباب

لم يهدأ للمسلمين بال بعد هزيمتهم فى غزوة أحد فى أواخر العام الثالث الهجرى ، فلقد عز عليهم وروعهم أن ينتصر الباطل على الحق فى هذه المعركة ، وأن يكون انتصار الباطل الذى يمثله المشركون من قريش ، وهزيمة الحق الذى يمثله المسلمون فى المدينة(١) ، أن يكون ذلك بسبب مخالفة بعض المسلمين فى هذه الغزوة لأوامر الرسول صلى الله عليه وسلم وهو القائد الأعلى ، وخروجهم عل التنظيم الدقيق الذى وضعه وأوصاهم باتباعه .

ولقد كان هذا الانتصار المفاجىء الذى ظفر به المشركون مشجعاً لهم على المضى فى طريق البغى ، والإمعان فى عداء الرسول صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه ويتبعه من المسلمين .. ولا شك أنه قد جال فى نفوسهم أن أصنامهم التى يعبدونها من دون الله قد باركت هذه الغزوة . وأنها ستبارك غيرها من الغزوات حتى يظهر أمرهم وتعلو كلمتهم ، ولقد جرى ذلك على لسان قائدهم أبى سفيان حينما لمع له سراب الباطل فاغتر به ، ونادى فى ظلمات الجهالة موجهاً خطابه للمسلمين قائلا : « اعل يا هبل » « ناسياً أن الله أعلى وأجل » .

أما القبائل العربية الأخرى فى سائر شبه الجزيرة العربية فكانوا ـ فى

---

(١) كان المسلمون ـ حينئذ ـ يعتبرون موقفهم فى يوم أحد هزيمة ، ونحن نعتبره انتصاراً بالرغم مما فيه من خسائر ، ولكن تعبيرنا بكلمة هزيمة يعنى بالنسبة للانتصار السابق فى يوم بدر .

جملتهم ـ يعبدون الأصنام ، وقد بلغ بهم الحقد ـ كذلك ـ على المسلمين نهايته ومداه ، فاتخذ بعضهم من الخيانة والخداع سبيلا لإطفاء ماتنطوى عليه نفوسهم من الغل والضغينة ، ومن ذلك ماوقع من قوم ينتسبون إلى بنى الهون ، وكانوا يسكنون بالحجاز بين مكة والطائف . فلقد جاءوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فى أوائل السنة الرابعة من الهجرة وقالوا يا رسول الله إن فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا فى الدين ، ويقرئوننا القرآن ، ويعلموننا شرائع الإسلام .

وقد استجاب الرسول صلى الله عليه وسلم لهم ، لأنه لم يكن يعلم الغيب ، ولم يطلعه الله على ماتنطوى عليه قلوبهم من غدر وخيانة وكفر وضلال ، ولأنه كان شديد الحرص على نشر الإسلام وإعلاء كلمته ، وظن أن هذا الوفد قد جاء يلتمس النور ويبتغى الخير ، فلن يضن عليهم بذلك ـ وما هو فى الخير بضنين ـ وبعث معهم ستة نفر من أصحابه ، فكان لهم فى تاريخ الإسلام بلاء أى بلاء ، وفى ميدان التضحية والاستشهاد صفحة ناصعة بيضاء .

ذلك بأن هؤلاء القوم من بنى الهون قد تحرك الغدر الكامن فى نفوسهم بعد أن خرجوا من المدينة ، وعاونهم فى ذلك جماعة من هذيل فى عدد كبير يبلغ المائتين ، فقاتل الستة المسلمون قتال الأبطال حتى قتل ثلاثة منهم واستسلم الثلاثة الباقون ، وما كان استسلامهم عن خور فى العزيمة ، أو ضعف فى العقيدة ، أو خوف من الموت ، ولكنه استسلام الليث المحصور وقع فى قبضة الغالب ، وأطبقت عليه القوة الطاغية من كل جانب .

وقد قتل هؤلاء الثلاثة بأيدى المشركين بعد ذلك ، وكان منهم زيد ابن الدثنة وهو الذى قال له المشركين حينما قدموه ليقتلوه : ننشدك الله يازيد أتحب أن محمداً عندنا الآن فى مكانك نضرب عنقه وأنك فى أهلك ؟ فقال : والله ما أحب أن محمداً الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإنى جالس فى أهلى .

فأية عظمة تنطوى عليها تلك النفس المؤمنة التى تستقبل الموت فى سبيل الله بابتسامة الرضى والطمأنينة ، والتى لو خيرت لاختارت القتل على ألا يصاب الرسول صلوات الله عليه بشوكة تؤذيه ؟ ؟ .

إنها التربية الإسلامية التى أسست على قوله تعالى (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره) .

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وأهله والناس أجمعين » .

وكان منهم خبيب بن عدى ، وقد حاولوا أن يردوه عن إسلامه إلى الكفر ، فأبى عليهم ذلك ، وقدم روحه فداء لدينه ، وقد روى عنه أنه قال حينما علم أن القوم قد أجمعوا أمرهم لصلبه :

إلى الله أشكو غربتى ثم كربتى ... وما أرصد الأحزاب لى عند مصرعى
وقد خيرونى للكفر والموت دونه ... وقد هملت عيناى من غير مجزع
ولست أبالى حين أقتل مسلما ... على أى جنب كان فى الله مصرعى

وكان أشد من ذلك عنفا وقسوة ما أصيب به المسلمون فى بئر معونة(١) فقد استشهد منهم فى هذا اليوم سبعون قتلوا غدراً وغيلة بأيدى قبائل رعل وذكوان والقارة . وقد حزن الرسول صلى الله عليه وسلم على هؤلاء الشهداء الأبرار ومكث شهراً كاملا يدعو على هؤلاء المعتدين الآثمين الذين ارتكبوا هذه الجرائم المنكرة .

---

(١) راجع تفصيل الحديث عن بئر معونة فى سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٧٥ وما بعدها .

دور إيجابي لدرء الخطر :

ولم يقف الرسول صلى الله عليه وسلم أمام أعدائه الذين يتربصون به الدوائر موقفاً سلبياً ، ولم يكتف بمجرد الدعاء عليهم ، ولكنه بدأ دوره الإيجابي فى استئصال جذور الشر والقضاء على الفتن كلما اشتعلت نارها . وقد خرج من أجل ذلك فى عدة غزوات صغيرة ، وهى غزوة ذات الرقاع ، وغزوة بدر الأخيرة ، وغزوة دومة الجندل .

فأما غزوة ذات الرقاع(١) فقد كان الغرض منها إحباط المحاولة التى قام بها بنو محارب حيث أرادوا غزو المدينة ، وكان الغرض منها كذلك تأديب بعض القبائل التى كانت تعتدى على المسلمين بين الحين والحين .

وقد خرج الرسول صلى الله عليه وسلم حينما علم بتجمع بنى ثعلبة وبنى محارب واتفاقهم على غزو المدينة ، وكان معه أربعمائة ما بين راكب وراجل(٢) . وولى على المدينة عثمان بن عفان ، ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا ديار القوم فى نجد على مرحلتين من المدينة ، وقد أزعجتهم مباغتة الرسول لهم ، فخافوا وتفرقوا فى رءوس الجبال تاركين نساءهم وأموالهم . وعلى الرغم من ذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم حذراً وخائفاً من غدرهم وخياناتهم ، فصلى بالمسلمين صلاة الخوف .

وقد ألقى المسلمون الرعب فى قلوب أعدائهم ، ثم رجعوا إلى المدينة سالمين غانمين .

وأما غزوة بدر الآخرة : فقد كانت بعد غزوة أحد بعام كامل ، وكانت رداً على أبى سفيان حيث توعد المسلمين بعد غزوة أحد وقال : « يوم بيوم

---

(١) راجع سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٨١ وما بعدها .

(٢) وفى بعض الروايات أن عدد جيش المسلمين كله كان سبعمائة .

بدر ، والموعد العلم المقبل فى بدر ، وخرج المسلمون فى ألف مقاتل مابين راكب وراجل بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان خروجهم فى نفس الموعد الذى وقعت فيه غزوة أحد ، وإلى نفس المكان الذى توعدهم باللقاء فيه أبو سفيان له دلالته الواضحة على قوة المسلمين وثقتهم بأنفسهم .

وأما أبو سفيان وقبيله فقد عاكسهم الحظ ولم يتمكنوا من تجهيز الجيش الذى يثقون به ، فأرادوا أن يثبطوا همة المسلمين ، فأرسلوا رجلان(١) إلى المدينة يقول لهم إن قريشاً قد جمع جيشا لا قبل لكم بمواجهته . .

ولكن زادهم هذا القول إيمانا على إيمانهم . . . وخرجوا فى شجاعة وإقدام حتى وصلوا بدراً . وأقاموا فيها ثمانية أيام يتحدون المشركين وينتظرونهم . ولكن المشركين وعلى رأسهم أبو سفيان آثروا السلامة والعافية ، فرجعوا إلى مكة يجللهم العار ، وكانوا قد خرجوا وقطعوا من الطريق مرحلتين .

وهكذا كانت غزوة بدر الآخرة إعلانا كريما للمسلمين ، ووصمة عار فى جبين المشركين ، وقد محت هذه الغزوة كل أثر سيء لمعركة أحد داخل المدينة وخارجها على حد سواء .

وإلى هذه الغزوة ، يشير القرآن الكريم فى قوله سبحانه :

---

(١) كان هذا الرجل هو نعيم بن مسعود الأشجعى ، وقد أسلم هذا الرجل بعد ذلك ، وله قصة طريفة وموقف مشهود فى غزوة الأحزاب ، وسوف نتحدث عنه بعد ذلك .

(الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم)(١) .

وأما غزوة دومة الجندل فقد خرج الرسول فيها بألف من المسلمين .

وكان الغرض منها تأديب القبائل البدوية التى تقطن فى منطقة دومة الجندل ، وهى على الحدود بين الحجاز والشام ، وقد نجحت هذه الغزوة بإلقاء الرعب والفزع فى قلوب هذه القبائل ، ففروا من وجه المسلمين ولم يشتبكوا معهم فى قتال .

أصابع اليهود :

وفى هذه الظلمات المتكاثفة من الشر والفتنة أخذ اليهود يجوسون خلال الديار ، وظنوا أنهم وسط هذه الظلام سيحكمون مؤامرتهم على المسلمين ويقضون القضاء الأخير عليهم .

وكان يهود بنى النضير قد أخرجوا من ديارهم أمام قوة الحق وغلبته ، (وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب) .

وعلى الرغم من أنهم هم الذين بدءوا بالشر ، وأن إخراجهم كان جزاء وفاقا لما سلف منهم من غدر وخيانة وظلم واستهتار ، إلا أن هذه النهاية الأليمة قد أفزعتهم ، فأخذ سادتهم وكبراؤهم ينتقلون فى أرجاء الجزيرة العربية لكى يؤلبوا قبائل العرب على محمد وأصحابه . ولم يتركوا سبيلا للكيد إلا وسلكوه ، حتى لقد بلغ بهم الأمر أنهم تناسوا ما تنطوى

---

(١) سورة آل عمران آية ١٧٣ ، ١٧٤

عليه مبادىء الديانة اليهودية فى أساسها من التوحيد، وفضلوا الوثنية على دين محمد .

وفى ذلك يروى المؤرخون أن قريشاً قالت لليهود : يا معشر اليهود إنكم أهل الكتاب الأول، وأصحاب العلم عما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه ؟ قالت اليهود : بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه » .

وإلى ذلك يشير الله عز وجل بقوله : (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً)(١) .

وقد بلغ من إساءتهم إلى الحق فى هذه الناحية أن رجلا منهم أفزعه ذلك ، فأنحى عليهم باللائمة ، وسفه ما قالوه، وهـذا الرجل يسمى إسرائيل ولفنسون ، وهو مؤلف كتاب « تاريخ اليهود فى جزيرة العرب » . .

يقول ذلك الرجل اليهودى :

« وكان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا فى مثل هذا الخطأ الفاحش، لأنهم بالتجائهم إلى عبدة الأصنام إنما كانوا يحاربون أنفسهم، ويناقضون تعاليم التوراة التى توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام والوقوف معهم موقف الخصومة » .

ويتضح لنا من ذلك مدى الكراهية الشديدة والحقد العنيف الذى

---

(١) من سورة النساء آية ٥١ ، ٥٢

تنطوى عليه نفوس اليهود نحو المسلمين . ويالة من حقد بالغ ، ذلك الذى يدفع أصحابه إلى مخالفة العقائد الموروثة ، وتغيير الحقائق المعلومة . . وتتضح لنا ـ كذلك ـ نفسية اليهود وما عرف من أخلاقهم . وهو أن الغاية عندهم تبرر الوسيلة ، فأما الأخلاق والمثل ، والمعانى الإنسانية ، إلى غير ذلك ، فهذه كلمات لا معنى لها إن لم توصلهم إلى مآربهم وغاياتهم ، مهما انحدرت تلك المآرب والغايات .

وحينما اطمأن اليهود وعلى رأسهم حيي بن أخطب ، وسلام بن أبي الحقيق ، وعرفوا أن قريشاً ستؤازرهم وتعاونهم من أجل القضاء على محمد واستئصال دعوته ، وأخذوا منهم موعداً قريباً لتنفيذ ذلك . . . مضوا فى طريق الكيد والخصومة إلى نهايته ، وأحكموا أطراف المؤامرة فخرجوا إلى القبائل العربية التى لا تزال تحقد على محمد وأصحابه وتتربص بهم الدوائر ، ومنهم قبيلة غطفان وقد حرض اليهود رجالها وأخبروهم بمعابعة قريش لهم على الحرب ، ومنهم بنو مرة ، وبنو أشجع ، وبنو سليم ، وبنو أسد ، وقد حرض اليهود رجالهم كذلك ـ على حرب محمد والمسلمين ، ووجدوا منهم قبولا وارتياحا ، واستعداداً للانطواء تحت لواء قريش فى سبيل ذلك الهدف الذى عقدو اعليه الآمال ، وظنوه يسيراً قريب المنال .

وكان من نتيجة تلك الجهود التى بذلها هؤلاء اليهود أن تجهزت قريش وعلى رأسهم أبو سفيان وعددهم أربعة آلاف ، ومعهم ثلثمائة فرس وألف بعير .

وتجهزت غطفان ، ويرأسهم عيينة بن حصن ، وكان معهم ألف فارس .

وتجهزت بنو مرة ، ويرأسهم الحارث بن عوف المرى .

وتجهزت بنو أشجع ، ويرأسهم أبو مسعود بن رخيلة .

وتجهزت بنو سليم ، يرأسهم سفيان بن عبد شمس .

وتجهزت بنو أسد ، يرأسهم طليحة بن خويلد الأسدى .

وعدة الجميع عشرة آلاف جندى ، وقائدهم العام أبو سفيان صخر بن حرب ؛ وكان - حينئذ - ألد أعداء للرسول وللمسلمين .

ثم خرجت هذه الأحزاب - على ما بينها من تنافر وتباعد وعصبية قبلية - يؤلف بينهم هدف مشترك هو الانتقام من المسلمين ، والرغبة فى استئصالهم والقضاء على دينهم . وكان ذلك فى السنة الخامسة من الهجرة النبويه .

موقف المسلمين فى المدينة من الأحزاب :

وكان المسلمون فى المدينة - حينئذ - هم المهاجرون الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله وجهاداً فى سبيله ، والأنصار الذين تبوءا الدار والإيمان ؛ والذين آووا رسول الله ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه ، وكان موقفهم عصيباً يحيط به الحرج والضيق ، ويسود فيه الخوف والرهبة .

ولا غرو فهؤلاء هم أحزاب الشر ، وأعداء الحق ، وأنصار الشيطان ، يزحفون مسرعين إلى المدينة . وهذه هى الجزيرة العربية تتسمع فى لهفة إلى إلى أنبائهم ، وتترقب باهتمام بالغ نتيجة زحفهم .

إنها تجربة لها ما وراءها من نتائج وآثار ، فلو قدر لهؤلاء الأحزاب أن ينتصروا ، فتلك هى الضربة القاصمة التى لا تقوم بعدها للمسلمين قائمة .

أما لو قدر لهم أن يرجعوا مجللين بالخزى والعار ، وأن يفجعوا فيما علقوه على هذه المحاولة من آمال كبار، فتلك - حينئذ - مصيبة الدهر وفضيحة العمر ، وهيهات ثم هيهات أن تتجمع لهم مثل هذه الأحزاب ، وأن تتوافر لها الظروف والأسباب .

أجل ، لقد أدرك المسلمون جميعا فى المدينة عظم الخطب وفداحة المسئولية ، وعرفوا أن الأمر مع المشركين فى هذه المرة إما إلى النصر وإما إلى القبر ، أو كما يقول القائل :

فإما إلى صداحة تطرب الورى
وإما إلى نواحة فى المـآتم

وقد جمع أعداء الإسلام لأول مرة فى تاريخهم مع المسلمين جموعهم ، وجاءوا فى عدة وعديد لم يسبق لها مثيل فى حروب العرب جميعا .

لقد كان عددهم فى العام الثانى من الهجرة حينما التقوا مع المسلمين فى يوم بدر ألفا أو أقل من الألف ، ثم أصبح عددهم فى غزوة أحد فى العام الثالث من الهجرة ثلاثة آلاف ، فما بالهم الآن بعد عام واحد من غزوة أحد يصبحون عشرة آلاف ؟؟

وما عسى أن يصنع المسلمون لمقابلة هذه الألوف المؤلفة من الرجال والخيل والإبل والأسلحة والذخيرة ؟؟

إن الأمر يحتاج إلى مزيد من اليقظة والحذر والشجاعة والإيمان ، وإن الواجب يحتم على كل جندى من جنود المسلمين أن يتعاون فى إخلاص مع قائده الأعلى ، ليسيروا جميعا فى منهج سليم وسبيل قويم ، حتى يفرج الله كربهم ، ويكشف عنهم هذا الضر والبلاء .

حفر الخندق :

وكانت هذه الأنباء المثيرة التى ترامت إلى مسامع المهاجرين والأنصار فى المدينة حول هذا الجيش الجرار الزاحف عليهم ، هى كل شىء يشغل تفكير الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين .

ماذا يصنعون أمام هذه القوة الطاغية التى تسرع نحوهم ؟

أيمكثون بالمدينة ويتحصنون فى دورها ؟

أم يخرجون للقاء العدو مهما احتملوا من المتاعب والآلام ، ومهما بذلوا من التضحيات الجسام ؟

وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يستشير أصحابه ، ويستطلع آراءهم فى هذه المحنة .

وكان من عاداته صلوات الله وسلامه عليه أن يستشير أصحابه فيما يعرض له من مشاكل ، فإذا اقتنع بعد هذه المشورة برأى أمضاه متوكلا على الله . وقد علمه الله ذلك بقوله : (وشاورهم فى الأمر . فإذا عزمت فتوكل على الله) .

وهنا ، وفى وسط هذا الظلام الذى يخيم على النفوس ، يطلع سلمان الفارسى رضى الله عنه على الرسول والمسلمين برأى سديد ، وفكرة صائبة ، تشرق لها نفوسهم ، وتطمئن بها قلوبهم . ذلك أنه أشار عليهم بحفر الخندق فى الجهة التى يخشى منها خطر الزحف على المدينة .

وكانت فكرة حفر الخندق فكرة عجيبة لم يعرفها العرب قبل ذلك . وإنما عرفها الفرس فى حروبهم ، وأخذها عنهم سلمان الفارسى رضى الله عنه .

وحينما رأى الرسول الكريم قوة هذا الرأى واقتنع بصوابه ، أمر بوضعه موضع التنفيذ ، وقام يباشر بنفسه هذا العمل الكبير .

ويقع المكان الذى اختاره الرسول ليحفر فيه الخندق فى شمال المدينة من الحرة الشرقية إلى الحرة الغربية ، وهذه هى الجهة التى كانت عورة تؤتى المدينة من قبلها . أما بقية حدودها فمشتبكة بالبيوت والنخيل ولا يتمكن العدو من الحرب فى جهتها .

وبهذا يتبين لنا أن فكرة الخندق عمل حربى ناجح ، وسهم رائش صوبه المسلمون إلى قلب أعدائهم ، فنفذ إلى الصميم .

وبدأ المسلمون يعملون فى حفر الخندق ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل بيديه ، وكان يتمثل بقول القائل :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

وكان دائم التشجيع للمسلمين . فإذا رأى ما حل بهم من التعب والجوع يذكرهم بالآخرة . وما أعد للمؤمنين فيها من السعادة والنعيم قائلا :

اللهم إن العيش عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجره

فيرد عليه المسلمون ـ وقد امتلأت نفوسهم بالإيمان ونسوا ماهم فيه من الآلام والمتاعب ـ قائلين :

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

وهكذا يتجاوب القائد الأعلى للمسلمين مع جنوده المخلصين ، ويتجاوب الجنود المخلصين مع قائدهم الأمين .

وهكذا القيادة الرشيدة، إنما تثبت أصولها فى جو من الإخلاص والتسامح، ويقوم بنيانها على دعائم من الإخاء والمساواة.

من المعجزات النبوية :

تعالوا فانظروا معى تلك الفيوضات الإلهيه، والمنح الربانية، التى أفاضها الله ومنحها لرسوله، فى تلكم الفترة التى عمل المسلمون فيها حفر هذا الخندق.

وقد جرت سنة الله عز وجل بأن يظهر على أيدى أنبيائه من المعجزات ما يثبت به القلوب القلقة، والنفوس الحائرة، ويزيد المؤمنين إيماناً وتثبيتاً.

ومن ذلك ما رواه الإمام البخارى عن جابر رضى الله عنه قال :

إنا فى يوم الخندق نحفر، فعرضت لنا كيدة شديدة، فجاءوا النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا : هذه كدية عرضت فى الخندق، فقال : أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر - وكنا قد لبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا - فأخذ النبى صلى الله عليه وسلم المعول فضرب فعاد كثيباً أهيل، فقلت : يا رسول الله ائذن لى إلى البيت. فقلت(١) : رأيت بالنبى صلى الله عليه وسلم شيئاً ما كان فى ذلك صبر، فعندك شىء ؟ قالت : عندى شعير وعناق، فذبحت العناق، وطحنت الشعير، حتى جعلنا اللحم فى البرمة. ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم : والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأثافى قد كادت أن تنضج، فقلت: قم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان. قال : كم هو؟ فذكرت له، فقال: كثير

---

(١) معناه : فقلت لزوجتى.

طيب ، قل لها لا تنزع البرمة والخبز من التنور حتى آتى ، فقال قوموا ، فقام المهاجرون والأنصار .

فلما دخل على امرأته قال : ويحك جاء النبي صلى الله عليه وسلم بالمهاجرين والأنصار ومن معهم ، قالت : هل سألك ؟ قلت : نعم فقال : أدخلوا ولا تضاغطوا . فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويقرب إلى أصحابه ، ولم يزل هكذا حتى شبعوا جميعاً وبقيت بقية . فقال لزوجة جابر : كلى هذا وأهدى . فإن الناس أصابتهم مجاعة .

وهناك رواية أخرى يذكرها الإمام البخارى عن جابر رضى الله عنه فيقول :

« لما علم النبي صلى الله عليه وسلم بمقدار الطعام قال للمسلمين جميعاً : قوموا إلى جابر ، فقاموا ، فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله ، وقلت : جاءنا بخلق كثير على شاة وصاع من شعير ، ودخلت على امرأتى ، أقول : افتضحت . جاءك رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل الخندق أجمعين فقالت : هل سألت كم طعامك ؟ قلت : نعم ، فقالت : الله ورسوله أعلم ، قال : فكشفت عنى غما شديداً ، قال : فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : خدمى ودعيني من اللحم ، وجعل رسول الله يثرد ويغرف اللحم ويخمر هذا ويخمر هذا ، فمازال يقرب إلى الناس حتى شبعوا أجمعين ، ويعود التنور والقدر أملأ مما كانا ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلى وأهدى . فلم نزل نأكل ونهدى بقية ذلك اليوم (١) .

ألا إن هذا الحادث العجيب لعبرة ! !

فهذه الصخرة الكبيرة التى تعترض الجنود المسلمين وهم يعملون فى حفر

---

(١) البخارى ج ٥ ص ١٠٨ ، والمنتخب من السنة ج ١ ص ١٩٣

الخندق فيعجزهم جميعاً أمرها ، مابالها الآن تصير رماداً يتطاير من ضربة واحدة بمعول الرسول ؟ . إنها إذن عناية الله التى يفيضها أبداً على رسوله ، والتى لا تقف أمامها الحواجز والعقبات ، بل يلين لها الحديد ، وتذوب أمامها الصخور الجلاميد !!

وهكذا الصاع من الشعير تخبزه زوجة جابر ، والشاة الصغيرة يذبحونها ليأ كل منها النبى صلى الله عليه وسلم مع نفر قليل من أصحابه ، فما بالهم الآن يفاجأون برسول الله ومعه أهل الخندق أجمعون ؟ إنهم خمسمائة رجل خماص البطون ، وأقل ما يكفيهم فى مثل هـذه الظروف عشرون صاعا وعشرون شاة ، فكيف يكفيهم صاع واحد من الشعير وشاة واحدة ؟ .

إنها إذن عناية الله ، ومعجزة خالدة لرسول الله .

وقد اطمأنت بها قلوب المؤمنين ، ففرحوا واستبشروا ، وصبروا وصابروا ، وكافحوا وثابروا ، وسيظل لنا من ذكراها مايشد أزرنا ويقوى عزائمنا على توالى الأجيال والقرون .

الأحزاب أمام الخندق :

استمر العمل فى حفر الخندق ستة أيام متتابعة ، وكان المسلمون يعملون طوال النهار ، فإذا جن عليهم الليل آووا إلى بيوتهم ، وفى هذه الأثناء حصنت جدران المنازل التى تواجه مأتى العدو ، وأخليت المساكن التى كانت وراء الخندق ، وجىء بالنساء والأطفال إلى هذه المنازل التى حصنت ، ووضعت الأحجار إلى جانب الخندق من ناحية المدينة لتكون سلاحا يرمى به العدو إذا سولت له نفسه اقتحام الخندق .

وكانت قريش وأصحابها تظن أنها ـ وقد خرجت فى هـذه الجموع

الغفيرة - ستنتهى من الرسول والمسلمين فى ساعات معدودة ، وأن الأمر لا يعدو أن يكون سفراً عاديا ، أو رحلة تجارية يرجعون بعدها وقد قضوا على قوة المسلمين ، وغنموا منهم عدتهم وعتادهم وكل شيء لديهم ، ولكنهم كانوا يبنون الآمال على شفير هار ، ويقدرون فتضحك الأقدار .

ولقد وقفوا أمام الخندق وقفة المشدوه ، وتملكهم العجب ، واستبدت بهم الحيرة ، ولا غرو فهذا العمل كان مفاجأة غير منتظرة ، وهذا السلاح جديد فى نوعه لم يتعوده العرب من قبل فى حروبهم .

وكان الرسول والمسلمون - وعددهم حينئذ ثلاثة آلاف - يجعلون الخندق بينهم وبين أعدائهم حداً فاصلا . وينظرون إلى تحركاتهم وتجمعاتهم من الجهة المقابلة ، وقد أعدوا لكل احتمال عدته ، واتخذ كل جندى أهبته ، وكانوا يشددون الحراسة على الأماكن الضعيفة ، ويتبادلونها ، حتى لقد كانت للرسول نوبته ، فكان يخرج إليها أحيانا فى الليل المظلم والبرد القارس .

ولقد عرفت قريش والأحزاب أن الأمد سيطول بهم ، وأنهم سيقيمون أمام هذا الخندق ما وسعتهم الإقامة ولكنهم لن يستطيعوا اقتحامه ، وهذه الخيام التى نصبوها قريباً من الخندق سوف لا تجديهم فتيلا إذا فاجأهم ريح عاصف أو سيل جارف . عرفت قريش والأحزاب ذلك كله فتملك نفوسهم هم بالغ وحزن عظيم . وبدءوا يفكرون ويفكرون ، ويسبحون فى أودية الأوهام والظنون . . !!

موقف المنافقين :

وكان فى جيش المسلمين جماعة من المنافقين لا يعلمهم الرسول ، وقد وقف هؤلاء المنافقون كعادتهم من المسلمين موقف اللؤم والخيانة ،

ولا ريب أن عمر النفاق قصير ، وأساليبه وحيله لا تخفى على العقلاء أمداً طويلا ، ومهما بالغ المنافقون فى ستر حقيقتهم فإنهم لدى الاختبار يخفقون فى الميدان ، ولا يثبتون أمام الشدائد .

وهاهم أولاء فى تلكم الغزوة يفزعون حينما يرون الأحزاب ، وقد جمعوا جموعهم وتهيئوا للحرب والقتال ، وتظلم نفوسهم فيسخرون من وعود الرسول لهم بالنصر على أعدائهم ويقولون : كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر ، فما بالنا لا يأمن أحدنا على نفسه أن يذهب إلى الغائط ، وقد سجل الله ذلك القول منهم فى تلكم الآية الكريمة : (وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) .

ثم يتمادى هؤلاء المنافقون فى غدرهم وخياناتهم ، فينسحبون من صفوف المؤمنين ، ويثبطون الهمم والعزائم ويقولون : (يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا) .

ويعتذرون عن رجوعهم بالأعذار الكاذبة التى أظهر الله حقيقتها بقوله : (ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فراراً) .

ولكن هل تحقق لهؤلاء المنافقين ما كانوا يريدون .

إنهم أرادوا أن يخفوا حقيقتهم عن الرسول ، فكشف الله سترهم وفضح أمرهم ، وأرادوا أن يضعفوا شوكة المسلمين بانسحابهم ، فأمد الله المسلمين بقوته ، وكانوا يطمعون فى الغنائم فأفاءها الله على المؤمنين ، وباء المنافقون بالخسران والحرمان .

مؤامرة بنى قريظة على الرسول والمسلمين :

وفى هذه المحنة الشديدة التى أصابت المسلمين بتجميع الأحزاب عليهم ، وانسحاب المنافقين من صفوفهم انتهز يهود بنى قريظة ـ وكانوا يساكنون المسلمين بالمدينة ـ هذه للفرصة واستجابوا لتحريض بنى النضير لهم ، فنقضوا العهود التى بينهم وبين المسلمين ، وانقلبوا عليهم .

وكأنما رأى يهود بنى النضير وعلى رأسهم حيي بن أخطب أن حصار الأحزاب للمسلمين ووقوفهم أمام الخندق سيطول أمده ، وربما انتهى الأمر بفشلهم ، وذلك خزى الدهر وعار الأبد .

وعرف هؤلاء اليهود من بنى النضير أنه مادام إخوانهم من يهود بنى قريظة لايزالون على ولائهم لمحمد فإن الأمر ـ فى أغلب الأحوال ـ أن ينتهى بالخير الذى يتوقعونه ، إذ تصبح هزيمة محمد والمسلمين بعيدة المنال ، ومن يدرى إذا انتصر محمد ماذا يفعل بهم جميعاً ؟

ومن أجل ذلك دبروا أمرهم ، وأحكموا مكرهم ، وتفننوا فى أساليب الإغراء والترغيب ، حتى خدعوا يهود بنى قريظة وأخرجوهم عن الولاء لمحمد والمسلمين ، فبدت البغضاء فى أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر .

ويروى المؤرخون فى ذلك : « أن حيي بن أخطب زعيم بنى النضير أتى كعب بن أسد القرظى زعيم بنى قريظة ، فلما سمع به كعب أغلق باب حصنه دونه ، فاستأذن حيي عليه فأبى أن يفتح له ، فناداه : ويحك يا كعب افتح لى ، قال : ويحك ياحيي إنك امرؤ مشئوم . وإنى قد عاهدت محمداً فلست بناقض مابينى وبينه ، ولم أر منه إلا وفاء وصدقا ، قال : ويحك افتح لى أكلمك . قال : ما أنا بفاعل ، قال : والله ما أغلقت بابك إلا خوفاً على جشيشتك أن آكل معك منها ، فغضب كعب حينما سمع هذه الكلمة وفتح

له ، فقال : ويحك يا كعب ، جئتك بعز الدهر وبحر طام . قال : وما ذاك ؟ قال : جئتك بقريش على قادتها وسادتها ، وبغطفان عل قادتها وسادتها ، وقد عاهدونى وعاقدونى على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه ، فقال كعب : جئتنى - والله - بذل الدهر ، وبجهام(١) قد أريق ماؤه يرعد ويبرق وليس فيه شيء ، ويحك ياحيي فدعنى وما أنا عليه ، فإنى لم أر من محمد إلا وفاء وصدقاً .

وهكذا ظل حيي يستميل كعباً إليه بشتى الحيل والأساليب ، ويحرك فيه عاطفته الدينية حتى غلبته يهوديته ، بل غلبته شقوته ، فنقض العهد ، وبرىء مما كا بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من إخاء وولاء ، وتبعه فى ذلك يهود بنى قريظة جميعا ... » .

ولما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى المسلمين ، بعث سعد بن معاذ وهو - يومئذ - سيد الأوس . وسعد بن عبادة وهو يومئذ سيد الخزرج . ومعهما رجلان وقال انطلقوا حتى تأتوا هؤلاء القوم فتنظروا أحق مابلغنا عنهم ؟(٢) ، فإن كان حقاً فالحنوا لى لحنا أعرفه ولا تفتوا فى أعضاء المسلمين ، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا بها للناس .

قال فدخلوا حتى أتوهم فدخلوا معهم حصنهم . ودعوهم إلى الموادعة وتجديد الحلف ، ولكنهم قابلوهم بالسباب والمشاتمة ، ونالوا من رسول الله وأساءوا ، وقالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد .

فلما رجعوا إلى الرسول وأخبروه هاله الأمر وآلمه ، ولكنه كان مطمئناً إلى نصر الله وتأييده ، ومادام هؤلاء اليهود من بنى قريظه قد

---

(١) الجهام : هو السحاب الذى لا ماء فيه .

(٢) أى من الغدر ونقض العهد .

بدأوا بالغدو والخيانة فسوف يحيق بهم مكرهم ، (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) .

وقد عظم الكرب واشتد بلاء المسلمين حينما عرفوا ذلك الموقف من هؤلاء اليهود ، وحينما رأوا أنهم بدأوا فعلا يقطعون معاونتهم للمسلمين وحينما وجدوا أن الأحزاب قد انتهزوا فرصة نقض هؤلاء اليهود لعهدهم وبدءوا يستعدون لهجوم عنيف من فوق الوادى ومن جنبه ومن جهة الخندق .

أجل لقد عظم الكرب واشتد البلاء بالمسلمين ، ومرت بهم لحظات مريرة وأوقات عصيبة ، وأخذت الوساوس والظنون تطوف بنفوسهم ، بل تملأ نفوس البعض منهم . حتى لقد خيل إليهم أن الأحزاب عما قليل سيدخلون المدينة فيغيب عنها نور الإسلام وتعود إليها عهود الظلام .

وإلى ذلك الموقف الرهيب يشير الله عز وجل بقوله :

(إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً)(١) .

الخدعة فى الحرب :

وفى وسط هذا الشر المطبق والبلاء المحدق ، ينبت الله الفرج من الضيق . ويسوق الخير للمسلمين من أيسر طريق ، وذلكم هو ماقام به نعيم بن مسعود الأشجعى من خدعة محكمة لهؤلاء الأحزاب ، فرق بها جمعهم ، وأفسد عليهم مكرهم .

---

(١) من سورة الأحزاب آية ١٠ ، ١١

وكان نعيم بن مسعود رضى الله عنه من قبيلة غطفان ، وكان صديقاً لقريش وصديقاً لليهود . وقد شاء الله أن يدخل هذا الرجل فى الإسلام فى الوقت العصيب الذى أحاط فيه الأعداء بالمسلمين . فجاء إلى الرسول وقال : يارسول الله ، إنى قد أسلمت وقومى لا يعلمون بإسلامى . فمرنى بأمرك حتى أساعدك .

فقال الرسول : « أنت رجل واحد وماذا عسى أن تفعل ؟ ولكن خذل عنا مااستطعت فإن الحرب خدعة » .

فخرج من عنده وتوجه إلى بنى قريظة الذين نقضوا عهدهم مع المسلمين ، فلما رأوه أكرموه لصداقته معهم ، فقال : يابنى قريظة تعرفون ودى لكم وخوفى عليكم ، وإنى محدثكم حديثا فاكتموه عنى ، قالوا : نعم ، فقال : قد رأيتم ماوقع لبنى قينقاع وبنى النضير من إجلائهم وأخذ أموالهم وديارهم ، وإن قريشا وغطفان ليسوا مثلكم ، فهم إذا رأوا فرصة انتهزوها وإلا انصرفوا لبلادهم ، وأما أنتم فتساكنون الرجل - يريد محمداً صلى الله عليه وسلم - ولا طاقة لكم بحربه وحدكم فأرى ألا تدخلوا فى هذه الحرب حتى تستيقنوا من قريش وغطفان أنهم لن يتركوكم ويذهبوا إلى بلادهم ، وذلك بأن تأخذوا رهائن عندكم سبعين شريفا منهم ، فاستحسنوا رأيه وأجابوه إلى ذلك .

ثم قام من عندهم وتوجه إلى قريش فاجتمع برؤسائهم وقال : أنتم تعرفون ودى لكم ومحبتى إياكم ، وإنى محدثكم حديثا فاكتموه عنى ، قالوا : نفعل ، فقال لهم : إن بنى قريظة ندموا على مافعلوه مع محمد ، وخافوا منكم أن ترجعوا وتتركوهم معه ، فقالوا له : أيرضيك أن تأخذ جمعا من أشرافهم وتعطيهم لك وترد جناحنا الذى كسرت - يعنى ترجع يهود بنى النضير

إلى ديارهم ـ فرضى بذلك منهم ، وها هم أولاء سيرسلون إليكم فاحذروهم ولا تذكروا مما قلت لكم حرفا .

ثم أتى غطفان فأخبرهم بمثل ما أخبر به قريشا ، فاضطربت نفوسهم ، وأخذ زعماؤهم يتشاورون مع زعماء قريش كى يلتمسوا طريقا لحل هذه المشكلة ، وأرادوا أن يتأكدوا من كلام نعيم ، فأرسل أبو سفيان زعيم قريش وفدا لبنى قريظة يدعوهم للقتال غدا ـ وكان ليلة سبت ـ فأجابوا إنا لا يمكننا أن نقاتل فى السبت ، وأنه لم يصبنا ما أصابنا من البلاد إلا بالتعدى فيه . ومع ذلك فلا نقاتل حتى تعطونا رهائن منكم حتى لا تتركونا وتذهبوا إلى بلادكم(١) .

وحينئذ لم يبق لدى قريش وغطفان شك فى صدق كلام نعيم بن مسعود وتحققوا أن اليهود من بنى قريظة يريدون لهم الشر والوبال ، فتفرقت القلوب وخاف بعضهم بعضا .

وهكذا نرى أن الخدعة فى الحروب هى أمضى سلاح ينال به العدو من عدوه ، فنتعلم من ذلك كيف نسدد الرمية بهذا السلاح فى وقتها المناسب وتتعلم من ذلك كيف تتقى هذا السلاح الخطير إذا صوبه إلينا أعداؤنا ، وذلك إنما يكون بشدة الحيطة والحذر ، وإساءة الظن بكل مايشيعه العدو من أقوال ، والتثبت فى الشىء إلى أقصى درجة قبل أن يصدر الرأى فيه .

الفرج بعد الشدة :

« اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب أهزم الأحزاب . اللهم أهزمهم وانصرنا عليهم » .

---

(١) راجع الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ١٥٣

هذا هو دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، توجه به إلى الله حينما حاصره الأعداء ، واشتد به وبالمسلمين الكرب والبلاء .

وقد تعود المسلمون أن يسمعوا مثل هذه الضراعة إلى الله من نبيهم فى ظلمات الشدة . ثم لا يلبثون إلا قليلا حتى يشرق عليهم فرج الله الذى يجيب المضطر إذا دعاه .

وها هم أولاء يرون عناية الله بهم ، إذ يسوق إليهم نعيم بن مسعود فيحبط بخديعته مؤامرة اليهود ويفسد عليهم تدبيرهم .

ثم يرون عناية بهم إذ يسوق إلى أعدائهم الرياح العاصفة والأمطار الغزيرة والبرد القارس ، حتى لقد اقتلعت تلك الرياح والأمطار خيامهم وكفأت قدورهم ، وأدخلت الرعب إلى نفوسهم ، وخيل إليهم ـ وكان الليل حالك الظلام ـ أن المسلمين قد انتهزوها فرصة ليهاجموهم ويوقعوا بهم ، فقاموا يتحسسون الطريق إلى الفرار ، وقام طليحة بن خويلد وقال : إن محمداً بدأكم بالشر فالنجاة النجاة .

وقال أبو سفيان : « يا معشر قريش ، إنكم وما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف(١) ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا فيهم مانكره ولقينا من شدة الريح ماترون . فارتحلوا فإنى مرتحل » .

وقد بلغ من خوفهم أن أبا سفيان كان يقول لهم : ليتعرف كل منكم أخاه ، وليمسك بيده حذراً من أن يدخل بينكم عدو .

وهكذا تم رحيلهم فى ظلام الليل ، حتى إذ تنفس الصباح نظر المسلمون

---

(١) الكراع : يراد به الخيل والبغال والحمير . والخف يراد به الإبل .

فوجدوا تلك الغمة الكثيفة وقد أزاحها الله عنهم (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزاً) .

وهكذا صدق الله وعده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

عاقبة الظلم ومصير بنى قريظة :

وحينما أتم الله نعمته على المسلمين بهزيمة الأحزاب ورجوعهم خاسرين كان لابد للظالم أن يذوق وبال أمره ، ويجنى عاقبة ظلمه وغدره ، ومن أجل ذلك نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفس اليوم الذى تم فيه رحيل الأحزاب فقال « لا يصلين أحد منكم العصر إلا فى بنى قريظة » فساروا مسرعين وكان عددهم ثلاثة آلاف .

وقد تحصن يهود بنى قريظة بحصونهم حينما رأوا أنهم قد أحيط بهم ، فحاصرهم المسلمون خمسا وعشرين ليلة . ولما اشتد الضيق بهم لم يجدوا بدآ من التسليم والخضوع .

ثم صدر الحكم من سيد الأوس سعد بن معاذ رضى الله عنه وكان يقضى بقتل الرجال وسبى النساء والذرية . وقد اطمأن الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا الحكم وقال : لقد حكمت فيهم بحكم الله ياسعد »[١] .

وقد أمر رسول الله فحفرت لهم خنادق فى سوق المدينة ، ثم جىء بهم مكتفين بالحبال ، فضربت أعناقهم ، ودفعوا فى تلك الخنادق . وكان عددهم نحواً من ستمائة رجل ، ثم قسمت أموالهم وأبناؤهم على المسلمين .

---

(١) ابن هشام . وفى الكامل لابن الأثير : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة . والمعنى واحد فى الروايتين جـ ٢ ص ١٢٧

وهذا بلا ريب عدل القضاء ، وحكم السماء ، أراده الله لهؤلاء اليهود من بنى قريظة ، جزاء وفاقا لظلمهم وبغيهم .

أجل . لقد ضربوا أسوأ مثل فى الخيانة ، فخذلوا المسلمين فى أشد أوقات الحرج والضيق ، ولولا لطف الله لتمكن الأحزاب من اقتحام المدينة وإفناء المسلمين ، فكان جزاؤهم أن أهلكهم الله وأراح المسلمين من شرهم .

ولا غرو فالظلم لا يدوم ، ومرتع البغى وخيم .

ما أشبه الليلة بالبارحة

وها نحن أولاء وقد رأينا نصر الله فى هذه الغزوة للفئة القليلة المؤمنة ، وشاهدنا الأحزاب المتآمرين - على كثرة عددهم - وقد رد الله كيدهم فى نحورهم وجعوا خائبين ، ولمسنا عاقبة الغدر والخيانة فى مصير اليهود من بنى النضير وبنى قريظة .

هانحن أولاء نتطلع الآن من حولنا فنرى إسرائيل فى هذه الأيام تمثل دور اليهود القديم مع العرب والمسلمين ، دور الخديعة والمكر ، والخيانة والغدر والجبن والخور .

ولا غرو فهى تعمل فى الخفاء كما كانوا يعملون ، وتستعين ببعض الدول الكبرى على العرب والمسلمين كما استعان بنو النضير بقريش على الأنصار والمهاجرين ، وتؤلب على العروبة والإسلام الأحزاب كما فعل اليهود فى هذه الغزوة ، غزوة الأحزاب .

ومن عجب أن تجد إسرائيل أعوانا من بعض العرب والمسلمين ، وهم أولئك الذين عرف العالم مخازيهم وفضائحهم ، كما وجد اليهود على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أعوانا من المنافقين ، وهم أولئك الذين تظاهروا بالإسلام ولما يدخل الإيمان فى قلوبهم ، والذين تحدث الله عنهم بقوله :

(وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا ، وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فراراً . ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون

الأدبار وكان عهد الله مسئولا ، قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت الموت أو القتل وإذاً لا تمتعون إلا قليلا)(١) .

ألا إن التاريخ ليعيد نفسه . وما أشبه الليلة بالبارحة .

وإن اليهود فى إسرائيل ليسيرون الآن فى ضلالهم القديم . وإن الهوان الذى أصابهم على عهد الرسول لينتظرهم مهما طال الأمد بهم .

وإنه لحق على العرب والمسلمين أن يستضيئوا فى هذه المحنة بمبادىء الإسلام ، وأن ينفذوا تعاليم الدين القويمة وآدابه الحكيمة فيما بينهم كما نفذها الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، حتى تتحقق للعرب والمسلمين الأخوة الكاملة ، والإخلاص الشامل ، وحينئذ يأتى اليوم الموعود والنصر المبين ، ويخرب اليهود بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، فاعتبروا يا أولى الأبصار .

---

(١) سورة الاحزاب من آية ١٢ إلى آية ١٦

من العبر فى غزوة الأحزاب

ما أعظم النصر بعد الصبر .

وما أجمل الفرج بعد الشدة .

وما أجل العبرة التى يجدها المؤمنون حينما يرون الأحزاب وهم فى مثل هذه الجموع الحاشدة والعدة الهائلة ، يرجعون خاسرين أمام الفئة القليلة القليلة المؤمنة دون حرب أو قتال .

لقد عرفوا الله فأمدهم بعنايته .

وآمنوا به فأيدهم بقوته .

وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .

ويالها من عبرة بالغة ، يجدها المؤمن حينما يرى موقف اليهود من بنى النضير وبنى قريظة .

لقد تبددت أحلامهم وآمالهم فى القضاء على المسلمين ، وأنعكست الآية فارتد يهود بنى النضير خائبين مع أحزابهم ، وأنهار الأساس الذى أقاموه بالعرق والدموع والكفاح المرير ، وبذلوا فى سبيله كل نفيس وغال .

أما يهود بنى قريظة الذين كانوا يريدون الموت والفناء للمسلمين ، فقد قضى عليهم بالموت والفناء ، وارتدت سهامهم المسمومة إلى صدورهم ، وحاق بهم سىء مكرهم . وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

فيا باغى الشر أقصى ، فعلى الباغى تدور الدوائر .

ويا ساعيا إلى الظلم حسنك ، فإنك تظلم نفسك قبل أن تظلم غيرك وإنه عدل القضاء يتعقبك فى الدنيا والآخرة .

(فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) .

ويا أيها المكروب الذى أظلمت أمامه السبل ، وأحاطت به الحيرة .

إن الصبر والإيمان والثقة بالله ، ذلكم هو المنارة الهادية ، التى تؤنس المستوحش ، وترشد الحائر ، وتهدى الضال فى دياجير الحياة) .

(والعصر . إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) .

الفصل الثامن

عمرة الحديبية وعمرة القضاء[1]

كانت عمرة الحديبية مقدمة لعمرة القضاء كما كانت عمرة القضاء مكملة لعمرة الحديبية ، فهما فى واقع الأمر عمرة واحدة ، بدأت فى شهر ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة . فلما وقفت الحوائل فى طريقها آثر الرسول والمسلمون الرجوع دون أن يتموا عمرتهم ، واكتفوا بصلح مع قريش يتيح لهم فرصة فى نفس الموعد من العام الذى يليه ليقضوا مافاتهم ، فسميت العمرة الثانية عمرة القضاء ، وهذا هو الذى سوغ لنا أن نجعلهما فى فصل واحد على مابينهما من فترة زمنية امتدت إلى عام كامل وقعت فى خلال أحداث لها أهميتها البالغة فى تاريخ الرسول والمسلمين .

الحنين إلى مكة :

وكان المسلمون منذ هجرتهم من مكة إلى يثرب يحنون لرؤية وطنهم الذى أخرجوا منه ظلما وبغير حق ، ويتشوقون لزيارة المسجد الحرام الذى تمتلىء نفوسهم بتقديسه وتعظيمه ، وكان بلال بن رباح يتغنى بآثار مكة كلما لج به الشوق إليها فيقول :

---

(١) يسميها بعض المؤرخين غزوة الحديبية ، ويسميها البعض الآخر صلح الحديبية ، وتسمى كذلك عمرة الحديبية . ولكن الأوفق أن تسمى عمرة الحديبية لأن الاساس فيها هو زيارة المسجد الحرام وتأدية نسك العمرة .

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة
بفج(١) وحولى إذخر وجليل
وهل أردن يوماً مياه مجنة
وهل يبدون لى شامل وطفيل(٢)

فلما سمع الرسول منه هذا الكلام. ورأى أثر الحنين إلى مكة فى نفوس المسلمين قال « اللهم حبب إلينا كحبة مكة أو أشد » .

وعلى الرغم من الإنتصارات التى تمت للمسلمين فى كثير من الغزوات والمعارك التى خاضوها ضد قريش وغيرها من القبائل ، والتى أشعرت المسلمين بعزتهم وكرامتهم ، وألقت الرعب فى قلوب أعدائهم إلا أن قريشا كانت تحول بين المسلمين وبين دخول مكة لزيارة المسجد الحرام ، لأنها لا تراهم يستحقون هذا الشرف ما داموا يجعلون الآلهة إلها واحداً ، وماداموا لا يؤمنون بهبل واللات والعزى ومناة ، ولأنها تخشى أن يدخل المسلمون مكة فيطيب لهم المقام بها ، ويصعب إخراجهم منها .

وبينما كان المسلمون مجتمعين فى المسجد النبوى ذات صباح ، إذ طلع عليهم النبى صلى الله عليه وسلم وأنبأهم بما رآه فى نومه من أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين ، وأخبرهم أنه يريد أداء العمرة معهم ففرحوا واستبشروا ، واستعدوا للخروج منتظرين ما يأمرهم به نبيهم الكريم .

---

(١) فج : موضع خارج مكة .
(٢) اسمان لجبلين فى مكة ، سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٥٣

خروج الرسول والمسلمين للعمرة وموقف قريش :

وخرج الرسول صلى الله عليه وسلم وفى صحبته المهاجرون والأنصار ومن لحق بهم من العرب ، وكانت عدتهم ألفا وأربعمائة ، وقد ساقوا الهدى أمامهم ، ولم يحملوا من السلاح إلا السيوف فى أغمادها . وذلك لأنهم لا يريدون حربا أو قتالا ، وإنما يريدون زيارة المسجد الحرام وأداء نسك العمرة وكان ذلك فى أول ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة .

وحينما علمت قريش بخروج الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين للعمرة ، امتلأت نفوسهم بالغيظ والحقد على محمد ، وداخلهم هم عظيم وخوف شديد ، لأنهم ظنوا أنها خدعة دبرها محمد ليتمكن من دخول مكة بعد أن صدهم عن دخول المدينة ، وصمموا على منعهم والوقوف فى سبيلهم ، وجهزوا لذلك جيشا قويا على رأسه خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل(١).

وقد علم الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك ، فأراد أن يتجنب الشر والخطر ، وأن يبعد بالمسلمين عن القتال ماداموا لم يتهيأوا له ، ولم يخرجوا من أجله ، فقال لأصحابه : من رجل بنا على غير طريقهم ؟ فقال رجل من « أسلم » أنا يارسول الله ، فسار بهم فى طريق وعرة ثم خرج بهم إلى سهل مستو يحاذى مكة من أسفلها ، فلما رأى خالد مافعل المسلمون رجع إلى قريش وأخبرهم الخبر ، وبين لهم أن محمداً لا ينوى شراً ، وأن سلوكه هو ومن معه من أصحابه يدل على حبهم للسلام ، ورغبتهم فى تحقيق الغاية التى خرجوا من أجلها ، وهى زيارة المسجد الحرام .

---

(١) شاء الله أن يهدى هذين الرجلين للإسلام بعد ذلك ، وقد أعز بهما الدين ، وكان لهما فى تاريخ الإسلام آثار خالدة .

حابس الفيل :

وحينما وصل الرسول والمسلمون إلى ثنية المرار(١) ، بركت القصواء وهى ناقة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فزجروها فلم تقم ، فقالوا : خلأت القصواء(٢) ، فقال عليه السلام : ماخلأت وما ذلك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل والذى نفس محمد بيده لا تدعونى قريش لخصلة فيها تعظيم لحرمات الله إلا أجبتهم إليها .

ولاشك أن هذه الكلمة من الرسول صلى الله عليه وسلم تشير إلى معنى كريم فطن إليه المسلمون ، واطمأنت إليه نفوس الكثير منهم ، وهو أن الله لا يريد للمسلمين أن يؤدوا نسك العمرة فى هذه المرة ، ومن أجل ذلك حبس الناقة عن المضى إلى الكعبة . وبذلك كيف أيدى قريش عن المسلمين كيلا تنتهك حرمات البيت الذى أراد الله أن يكون بعد عامين حرماً آمنا ، وأن يكون مثابة للمسلمين من كل فج يوطدون دعائم أخوتهم فى ظلاله الوارفة .

تبادل الرسل بين قريش ومحمد :

وقد بعثت قريش رسلها إلى محمد واحداً بعد الآخر ، تستطلع أخباره ، وترى عن كثب حقيقة الهدف الذى كان يقصده ، وكان أولهم بديل بن ورقاء الخزاعى ، وقد أخبر الرسول بأنه لا يريد بقريش شراً ، وإنما جاء مع أصحابه لأداء العمرة ، فلما رجع بديل إلى قريش وأخبرهم بذلك لم يثقوا

(١) مكان عند بئر الحديبية بينه وبين مكة قرابة عشرين كيلو متراً ، ويسمى الآن « الشميسى » .

(٢) خلأت : يعنى حرنت .

به ومن ناحية أخرى لم يوافقوا على تلبية طلب محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا : أيريد محمد أن يدخل علينا معتمراً وتسمع العرب بأنه قد دخل علينا عنوة وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا ، والله لا يكون هذا أبداً وفينا عين تطرف ! .

ثم أرسلوا بعد ذلك حليس بن علقمة فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هذا من قوم يعظمون الهدى فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه . ففعلوا ذلك واستقبله الناس يلبون ، فلما رأى ذلك حليس رجع وقال : سبحان الله . ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا . أتحج لخم وجذام وحمير ويمنع عن البيت ابن عبد المطلب ؟ هلكت قريش ورب البيت . إن القوم أتوا معتمرين . فلما سمعت قريش منه ذلك قالوا له :

اجلس ، إنما أنت أعرابى لا علم لك بالمكايد ، ثم أرسلوا عروة بن مسعود الثقفى سيد أهل الطائف ، فتوجه إلى رسول الله وقال : يامحمد قد جمعت أوباش الناس ثم جئت إلى أهلك وعشيرتك لتفضها بهم ، إنها قريش قد خرجت تعاهد الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً ، وأيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك (أى تخلوا عن نصرتك) فنال منه أبو بكر وقال : ويحك ! أنحن ننكشف عنه ؟ . وكان عروة يتكلم وهو يمس لحية رسول الله ، فكان المغيرة بن شعبة يقرع يده إذا أراد ذلك .

ثم رجع عروة وقد رأى موقف أصحاب الرسول من نبيهم ، وكيف كانوا يتنافسون على وضوئه يمسحون به أجسامهم ، وإذا تكلموا أمامه لا يرفعون أصواتهم ، ولا يحدون النظر إليه ، فقال لقومه: والله لقد جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى عظمته ، فما رأيت ملكا فى قومه مثل محمد فى أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشىء أبداً ، فانظروا رأيكم واقبلوا ماعرض عليكم ، وإنى لكم ناصح . وأخشى إن قاتلتموه ألا تنصروا عليه ،

فقالت قريش : لا تتكلم بهذا ، ولكننا نرده فى هذا العام ، ويرجع فى العام الذى يليه .

وقد استشار الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه ، وانتهى الرأى إلى اختيار عثمان بن عفان رسولا إلى قريش ، ومعه عشرة من المسلمين ، استأذنوا رسول الله فى زيارة أقاربهم ، وحمل عثمان رسالة النبى إلى قريش ، تفصح عن مقصده والغرض الذى خرج من أجله ، ورسالة أخرى إلى المستضعفين من المسلمين ، يبلغهم فيها أن الحق آت لاريب فيه ، وأن نصر الله قريب .

وحينما التقى عثمان بقريش ، وبلغهم الرسالة التى حملها إليهم ، رفضوا السماح للرسول بدخول مكة ، وسمحوا لعثمان أن يطوف بالبيت ، فرفض فى حزم وإباء وقال : لا أطوف ورسول الله ممنوع ، ثم إنهم حبسوه ، فشاع عند المسلمين أن عثمان قد قتل . فقال عليه السلام حينما سمع ذلك : « لا نبرح حتى نناجزهم الحرب » .

بيعة الرضوان :

ثم كانت بيعة الرضوان ، وهى البيعة الخالدة فى تاريخ الإسلام ، وقد رضى الله عنها ورضى عن المسلمين ، بها ، وسجل ذلك فى كتابه الكريم حيث قال :

(لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا)(١) .

وقد كشفت هذه البيعة المباركة عن مدى تضامن المسلمين وإخلاصهم وحبهم لنبيهم ، وتضحيتهم فى سبيل العزة الإسلامية ، وإعلاء كلمة الحق والدين .

---

(١) سورة الفتح آية ١٨

ويكفى أن نعلم أن المسلمين كانوا يتسابقون إلى هذه البيعة ، ويعاهدون الله وهم يضعون أيديهم فى يد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يستقبلوا الموت وهم راضون حتى يأخذوا بثأر عثمان ويرغموا قريشا على الخضوع لهم والاستجابة لما يريدون

وحسبنا ـ كذلك أن نعلم أن هذه الروح القوية المؤمنة قد أنزعجت قريشا ، وألقت الرعب فى قلوبهم ، فى الوقت الذى لم يكن المسلمون فيه قد حملوا معهم عدة الحرب والقتال التى تكفى لمواجهة قريش . وكان من أثر ذلك أن بدأ القرشيون يفكرون من جديد فى طريقة يتخلصون بها من هذه المشكلة التى تورطوا فيها بسفههم وعنادهم ، فماذا عسى أن يكون ؟

صلح الحديبية :

وقد بدأت قريش من جانبها تفتح طريقا جديداً يقرب المسافة بين الطرفين ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم على استعداد للتفاهم مع قريش على أساس عادل سليم ، لأنه يؤمن بأن السلم فى مثل هذا الجو أنفع بكثير من حرب لم تكتمل لها العدة اللازمة ، والظروف الملائمة ، ومن أجل ذلك فرح واستبشر حينما أرسلت قريش رسولها الأخير سهيل بن عمرو ، وتيمن باسمه وقال لأصحابه « قد سهل الله لكم من أمركم »(١) .

وقد بدأ سهيل كلامه فقال : يا محمد ، إن الذى حصل ليس من رأى عقلائنا بل شىء قام به السفهاء منا .

ثم عرض سهيل الشروط التى ترضى عنها قريش وهى :

١ ـ أن توقف الحرب بين المسلمين وبين قريش عشرة أعوام .

---

(١) المنتخب من السنة ج ١ ص ٢٩

٢ - أن من جاء إلى المسلمين من قريش يردونه ، ومن جاء قريشاً من المسلمين لا تلزم قريش برده .

٣ - أن يرجع النبي والمسلمون من غير عمرة هذا العام . ثم يأتى العام المقبل فيدخلها بأصحابه بعد أن تخرج منها قريش فيقيمون بها ثلاثة أيام ليس معهم إلا القوس والسيف فى القراب .

٤ - من أراد أن يدخل فى عهد محمد دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل فى عهد قريش دخل فيه .

وهذه الشروط التى تبدو فى ظاهرها مجحفة بالمسلمين كانت موضع الرضا والقبول من رسول الله وبعض أصحابه ، وقد رأى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أساساً متيناً يمكن أن يبنى عليه المستقبل العظيم الذى يرجوه للإسلام عما قليل من الزمان . وأما الغالبية العظمى من المسلمين فقد داخلهم منها هم عظيم ، وقالوا : سبحان الله !! كيف نرد إليهم من جاءنا مسلما ، ولا يردون إلينا من جاءهم مرتدا !!

وقد أجاب الرسول صلى الله عليه وسلم : عن ذلك فقال : إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله(١) ، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم فسيجعل الله له فرجا ومخرجا

وأما الشرط الذى يمنع المسلمين من العمرة هذا العام ويؤجلها إلى العام الذى يليه فقد ظن البعض من المسلمين أنه يخالف الرؤيا التى رآها الرسول صلى الله عليه وسلم ووعد أصحابه بتحقيقها ، وهى أنهم سوف يدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين .

---

(١) يعنى أن من ذهب من المسلمين إلى الكفار فهو شر أبعده الله عن صفوف المسلمين فلا رده الله .

وغفل هؤلاء عن أمر هام وهو أن الرسول لم يحدد زمنا خاصا لدخول المسلمين إلى المسجد الحرام .

ومهما يكن من شيء فقد كتبت شروط الصلح بين الطرفين . وكان الكاتب على بن أبى طالب فأملاه عليه السلام : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل : اكتب باسمك اللهم ، فأمره الرسول بذلك ، ثم قال : هذا ماصالح عليه محمد رسول الله ، فقال سهيل : لو نعلم أنك رسول الله ماخالفناك اكتب محمد بن عبد الله . فأمر عليه السلام علياً بمحو ذلك وكتابة محمد بن عبد الله ، فامتنع فمحاها النبى بيده ، وكتبت نسختان ، نسخة لقريش ، ونسخة للمسلمين .

وقد شاء الله أن يبدأ التطبيق العملى لشروط هذا الصلح من جانب المسلمين منذ اللحظات الأولى لإتمامه . وذلك أنا أبا جندل بن سهيل جاء إلى المسلمين وهو يتعثر فى قيوده ، وكان من المسلمين الممنوعين من الهجرة ، فانتهز فرصة وجود المسلمين عند الحديبية وهرب إليهم ليحموه ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : اصبر واحتسب . فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، إنا قد عقدنا بين القوم صلحا ، وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهدا فلا نغدر بهم .

وطبق الطرفان شرطا آخر من شروط هذا الصلح منذ اللحظات الأولى كذلك ، حيث دخلت فيه قبيلة خزاعة فى عهد رسول الله ، ودخلت قبيلة فى عهد قريش .

ولما انتهى الأمر ، أمر عليه السلام أصحابه أن يحلقوا رءوسهم وينحروا الهدى ليتحللوا من عمرتهم ، فكان ذلك صدمة عنيفة للمسلمين فى جملتهم ، إذ كانوا مدفوعين بحماس بالغ ضد قريش . وكانوا يرون أن شروط الصلح

لا تحقق العدل والإنصاف الرسول والمسلمين ، ولذلك لم يبادروا بالامتثال لأمر الرسول ، فدخل عليه السلام على أم سلمة رضى الله عنها وقال لها : هلك المسلمون .. أمرتهم فلم يمتثلوا ، فقالت : يارسول الله : اعذرهم ، فقد حملت نفسك أمراً عظيما فى الصلح ، ورجع المسلمون من غير فتح ، فهم لذلك مكربون . ولكن اخرج يارسول الله وابداهم بما تريد ، فإذا رأوك فعلت اتبعوك . فتقدم عليه السلام إلى هديه فنحره ، ودعا بالحلاق فحلق رأسه ، فلما رآه المسلمون تواثبوا على الهدى فنحروه وحلقوا ، ثم رجع المسلمون إلى المدينة وهم مؤمنون بأن الله قد أراد الخير بهم حيث لم يتعرضوا للحرب والقتال فى مثل هذه الظروف القاسية .

استثناء النساء من شروط الصلح :

وقد أراد الله أن يستثنى النساء من بعض هذه الشروط خوفا عليهن من الفتنة ، لأن المرأة يسهل التأثير عليها وتغيير رأيها إذا تعرضت لعوامل الرغبة أو الرهبة ، وكان من ذلك أن أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط وهى أخت عثمان لأمه ، جاءت إلى المسلمين عقب صلح الحديبية فارة من المشركين ، فطلبها المشركون تنفيذا للعقد المبرم بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يارسول الله ، إنى امرأة وإن رجعت إليهم فتنونى دينى . فلم يشأ الرسول أن يخلف العهد الذى التزمه . ولكن الله وجه الرسول فى هذه المسألة للطريق الذى يسير عليه ، فأنزل هذه الآيات الكريمة :

(ياأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتوهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار ، لاهن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ، ولا جناح عليكم أن

تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم)(١) .

وتنفيذاً لهذا الأمر الإلهى كانت المرأة المهاجرة تستحلف أنها ما خرجت رغبة بأرض عن أرض ، ولا بغضا فى زوج ، ولا لالتماس دنيا ، وأنها ما خرجت إلا حبا فى الله ورسوله . ومتى حلفت لا ترد بل يعطى لزوجها المشرك ما أنفقه عليها ، ويجوز للمسلم تزوجها .

وقد أفادت الآية الكريمة تحريم إمساك الزوجة الكافرة ، بل ترد إلى أهلها بعد أن يعطوا ما أنفقوا عليها .

مناقشة شروط الصلح :

تبدو هذه الشروط أول الرأى وكأنها مجحفة بحقوق المسلمون . وهذا هو الذى دفع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أن يستفسر من الرسول صلى الله عليه وسلم : بطريقة تتجافى عن الأسلوب الرقيق الذى تعوده الرسول من أصحابه المخلصين .

فلقد ذكر الرواة أن عمر بن الخطاب حينما تم الصلح بين الرسول وقريش يوم الحديبية تألم لقبول الرسول هذه الشروط ، ودارت بينه وبين الرسول مناقشة يرويها عمر فيقول :

أتيت نبى الله صلى الله عليه وسلم يانبى الله ، ألست نبى الله حقا ؟

قال : بلى .

---

(١) سورة الممتحنة آية ١٠

قلت : ألسنا على الحق ، وعدونا على الباطل ؟

قال : بلى .

قلت : فلم نعطى الدنية فى ديننا إذن ؟

قال : إنى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى .

قلت : أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟

قال : بلى ، أفأخبرتك أننا نأتيه فى هذا العام ؟

قلت : لا .

قال : فإنك آتيه ومطوف به .. (١) .

والحق أن هذه الشروط تعتبر مغنما للمسلمين ، ونقطة تحول فى حياتهم، ومبدأ عهد جديد وضحت فيه قوتهم ، إذ أصبحوا يقفون من قريش موقف الند للند ، واعترفت لهم قريش بذلك .. وأصبحت القبائل فى سائر الجزيرة العربية لا تتهيب الانضمام إلى المسلمين مادامت قريش قد التزمت بتأمين من يدخلون فى حماية الرسول وحلفه .

وأما رجوع المسلمين دون أن يؤدوا نسك العمرة فى هذا العام ، وتأخيرهم للعام الذى يليه ، فهو حل متوسط ليس فيه ميل إلى أحد الجانبين .

وأما الشرط الذى يلزم المسلمين برد من ذهب إليهم مسلما من قريش ، ولا يلزم قريشاً برد من ارتد عن الإسلام إلى المدينة ، فهو شرط فى مصلحة المسلمين ، لأن من يرتد عن الإسلام يصبح وجوده فى صفوف المسلمين

---

(١) تيسير الوصول ص ١٨٨ وما بعدها ، المنتخب من السنة جـ ١ ص ٣١١ .

كالمرض فى الجسم السليم ، فالشر فى وجوده لا ريب فيه ، والتخلص منه خير من بقائه .. وأما من يسلم من قريش فإن رجوعه إليهم بعد إسلامه خير للمسلمين وضرر على القرشيين . ولا غرو فقد يهدى الله به قوما آخرين إلى الحق ، على أنه مهما طال الزمن فإن الله سوف يجعل له مخرجا من دار الكفر إلى دار الإسلام .

وقد كشف المستقبل القريب بعد ذلك على أن هذا الشرط الذى فرحت به قريش قد سبب لها كثيراً من المتاعب ، حتى أرسلت إلى محمد صلى الله عليه وسلم طالبة إليه أن يبطله ، وألا يرد إليهم من جاءه مسلما .

وذلك أن أبا بصير بن أسيد الثقفى رضى الله عنه تمكن من الفرار من قريش بعد إسلامه ، فلما وصل إلى الرسول بالمدينة أرسلت قريش أثره رجلين يطلبان تسليمه ، فأمره عليه السلام بالرجوع معهما ، فقال يارسول الله ، أتردنى إلى الكفار يفتنونى فى دينى بعد أن خلصنى الله منهم ؟ فقال : إن الله جاعل لك ولإخوانك فرجا ، فلم يجد بدأ من أتباعه ، فرجع مع الرجلين ، ولما قارب ذا الحليفة عدا على أحدهما فقتله وهرب الآخر منه .

وحينئذ رجع أبو بصير إلى المدينة ، وقال : يارسول الله وفت ذمتك . أما أنا فنجوت . فقال له : اذهب حيث شئت ولا تقم بالمدينة ، فذهب إلى محل بطريق الشام تمر به تجارة من قريش ، فأقام به ، واجتمع معه عدد من المسلمين الذين فروا — كذلك — من قريش ، واجتمع إليهم عدد من الأعراب ، وقطعوا طريق التجارة على قريش ، وأثاروا الرعب بينهم .

فأرسلت قريش تستغيث بمحمد وتطلب منه إبطال هذا الشرط ، وتعطيه الحق فى إمساك من جاءه مسلما ، فقبل الرسول صلى الله عليه وسلم

ذلك منهم ، وأزاح الله المسلمين من هذا الشرط الذى كانوا متألمين منه . . وعلموا أن رأى الرسول أعظم وأفضل من رأيهم .

وبذلك يتبين لنا أن شروط الصلح فى حقيقتها نصر للمسلمين وفتح مبين ، حتى قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : ما كان فتح فى الإسلام أعظم من فتح الحديبية ، ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه . والعباد يعجلون ، والله لا يعجل لعجلة العباد ، حتى تبلغ الأمور ما أراد .

وصدق الله العظيم ، فلقد سمى صلح الحديبية فتحا مبينا ، وأنزل فى شأنه سورة الفتح . وقال فى أولها :

(إنا فتحنا لك فتحا مبينا . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما . وينصرك الله نصراً عزيزاً) .

عمرة القضاء(١) :

ولما استدار العام بعد الحديبية ، وأهل شهر ذى القعدة ، نادى الرسول صلى الله عليه وسلم فى المسلمين أن استعدوا لعمرة القضاء ، فلبى المسلمون النداء ، وساروا إلى مكة وفق صلح الحديبية ، والسيوف فى قرابها ، وساقوا الهدى أمامهم ، وتقدمهم محمد صلى الله عليه وسلم راكبا ناقته القصواء ، وقلوبهم تكاد تطير من الفرح والسرور ، ولا غرو فهم سيدخلون أم القرى ،

---

(١) سميت بعمرة القضاء ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم صده المشركون عام الحديبية ، فكان مجيئه فى العام التالى لقضاء ما فاته .

ويطوفون بالبيت العتيق ، ويتنسمون عرف هذا الوطن المقدس الأثير لديهم ، والعزيز عليهم .

ولما سمع أهل مكة بمقدم الرسول وأصحابه ، ورأوا أنهم أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من مكة ، ترك الكثير منازلهم إلى التلال والجبال المشرفة عليها ، وأخذوا ينظرون إلى الرسول وأصحابه وهم يحيطون به فى إجلال وإكبار .

وحينما ظهر للمسلمين البيت الحرام انطلقت ألسنتهم بالدعاء « لبيك اللهم لبيك » حتى إذا بلغوا المسجد الحرام اضطبع(١) الرسول برداثه وأخرج عضده اليمنى ، ثم قال . اللهم ارحم امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة ، ثم طاف بالبيت سبعا والصحابة يطوفون معه ، ثم انتقل إلى الصفا والمروة فسعى بينهما سبعة ، ثم نحر الهدى عند المروة وحلق رأسه . وبذلك أتم فرائض العمرة .

كل هذا وعيون قريش تنظر إليهم من فوق أبى قبيس فى حسرة بالغة وألم عميق ، وأخذ المسلمون يجوسون خلال مكة ، والمهاجرون يزورون دورهم وبصحبتهم أصحابهم من الأنصار ـ وهم جميعا فرحون مستبشرون واثقون من نصر الله الذى وعد به المؤمنين عباده .

وانقضت الأيام الثلاثة التى سمح للمسلمين بأن يقيموها فى مكة عملا باتفاق الحديبية . وفى ظهر اليوم الرابع جاء سهيل بن عمرو ، بطل معاهدة الحديبية ، من قبل قريش يقول للرسول صلى الله عليه وسلم : ننشدك العهد بأن تخرج من أرضنا عملا بالاتفاق ، فلم يتردد صلى الله عليه وسلم فى تنفيذ

---

(١) الاضطباع لمن يطوف بالبيت هو أن يدخل الرداء من وسطه تحت إبطه الأيمن ويرد طرفيه على كتفه اليسرى من جهة صدره وظهره

عهده مع قريش ، وأذن فى المسلمين بالرحيل ، فعادوا إلى المدينـة سالمين مغتبطين .

ولاشك أن دخول المسلمين مكة ، وظهورهم بهذا المظهر الرائع ، أثر فى نفوس الكثير من أبنائها ، ولا أدل على ذلك من موقف خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وحارس الكعبة عثمان بن طلحة ، فقد أسلموا وأسلم معهم الكثير ، وعلت كلمة المسلمين فى الحجاز ، وكتب الله للمسلمين عزة ونصراً ، للاسلام خلوداً وانتشاراً .

الفصل التاسع

من صلح الحديبية إلى فتح مكة

هذه الفترة من الزمان التي تشمل على اثنين وعشرين شهراً من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث تبدأ فى شهر ذى القعدة من العام السادس. وتنتهى فى شهر رمضان من العام الثامن الهجرى ، وتعتبر من أهم الفترات وأخطرها فى تاريخ الإسلام والمسلمين ، وذلك لما تضمنته من الأحداث الكبرى التى تغيرت بها موازين القوى فى الجزيرة العربية ، وما يحيط بها من الدول الكبرى التى كانت تملك زمام النفوذ والسلطان فى العالم .

وتبدهـذه الأحداث بغزوة خيبر حيث تم القضاء على آخر معقل هام اليهود فى الجزيرة العربية ، ثم نرى بعد ذلك موقف الرسول من العالم الخارجى ، وكيف تطلع إلى تحقيق الهدف الأسمى للرسالة ، وهو الهدف ، الذى تميزت به عن سائر الرسلات السابقة ، وأعنى به تبليغ الدعوة إلى الناس كافة ، فعمد إلى إرسال الكتب الملوك والأمراء خارج الجزيرة يدعوهم إلى الإسلام ويأمرهم بنبذ ما عداه من سائر الأديان .

والتفسير الطبيعى لهذا العمل هو أن الرسول بعد أن أمن جانب قريش بصلح الحديبية شعر بالقوة التى تمكنه من أن يرفع صوته حتى يجتاز آفاق الجزيرة إلى الدول الكبرى المجاورة ، ثم كانت سرية مؤتة وفيها اصطدم المسلمون بالروم لأول مرة ، ومهما كانت نتيجة هذه السرية ، فإنها تدل على أن وضع المسلمين قد تغير فى هذه الفترة عما كان عليه من قبل ، وأنه قد انتقل من الخوف والضعف إلى الأمن والقوة .

وسوف نتحدث الآن عن هذه الأحداث الهامة بشىء من التفصيل .

غـزوة خـيبر

أقام الرسول صلى الله عليه وسلم شهراً واحداً بالمدينة بعد عودته من الحديبية ، ثم تحرك بأصحابه الذين بلـغ عـددهم ألفا وأربعمائة وهم الذين حضروا صلح الحديبية ليحول بين قبائل غطفان وبين ما صمموا عليه من الانضمام إلى يهود خيبر . وقد استطاع الرسول أن يلقى الرعب فى قلوب غطفان حيث أوهمهم أن القتال موجه ضدهم ، فلما تفرقوا عن يهود خيبر ورجعوا إلى ديارهم انتهز الرسول الفرصة واتجه إلى لليهود فى آخـر معقل من معاقلهم ليتخلص من خطرهم الذى يلاحقه بين الحين والحين .

وحينما وصل جيش المسلمين إلى خيبر (١) رفعو أصواتهم بالتكبير والدعاء ، فقال عليه السلام : « ارفقوا بأنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا قريباً وهو معكم » . . وقد وصلوها ليلا وبيتوا أمام حصونها ، فلما أصبح الصباح وغدا عمال خيبر خارجين إلى مزارعهم ورأوا جيش المسلمين صاحوا يقولون : محمد والجيش معه ، وولوا الأدبار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خربت خيبر . إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين . ثم انتظم جيش المسلمين ، ووقف أمام الحصون بكامل معداته ينتظر أمر قائده .

أما اليهود فقد أشار عليهم « سلام بن مشكم » بجمع أموالهم وعيالهم

---

(١) معنى خيبر باللغة العبرية : الحصن أو القلعة ، وهى واحة كبيرة على بعد ستة وتسعين ميلا من المدينة فى الشمال الشرقى ، وقد كان سكانها يهوداً ، وهى ذات حصون ومزارع ونخيل .

فى حصن « الكتيبة » و حشد المقاتلة فى حصن « نطاة » الحصين ودخل معهم بجثهم ويحرضهم على القتال والصبر .

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقطع النخيل المحيط بحصن النطاه ، لأن كثرته تحول دون تحركات القوات العسكرية . فخرج اليهود للقائهم واستماتوا فى الدفاع عن حصونهم « لأن هزيمتهم فيها القضاء الأخير على بنى إسرائيل فى بلاد العرب .

وانتهى اليوم الأول ولم ينل أحد من الطرفين نصرا نهائيا ، واستؤنف القتال فى الغداة ، واستمر ثلاثة أيام واليهود يحاربون أمام حصونهم فزعين من الحرب فى الميدان ، فإذا انهزموا عادوا إليها وأغلقوها دونهم .

وفى اليوم السادس ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لأعطين الراية غدا لرجل يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، وأخذ كل من الصحابة يتمنى أن تكون الراية من نصيبه ، وفى الغد بعث إلى على بن أبى طالب وسلمه الراية .

وتقدم على رضى الله عنه ، فلما قرب من حصن « الناعم » خرج إليه أهله، ودارت رحى معركة هائلة قتل فيها قائد الحصن « الحارث بن أبى زينب » فتولى بعده أخوه « مرحب » ، وهو من أبطال اليهود . وخرج يرتجز ويقول :

قد علمت خيبر أنى مرحب   شاكى السلاح بطل مجرب
أطعن حينا وحينا أضرب   إذا الليوث أقبلت تحرب(١)
إن حماى للحمى لا يقرب   يحجم عن صولتى المجرب

---

(١) تغضب .

وقد تقدم له على ابن أبى طالب يريد مبارزته ، وكاد مرحب أن يقتله ولكن علياً فى النهاية سدد إليه ضربة فلقت هامته فوقع قتيلا ، ثم هجم المسلمون على الحصن ففتحوه ، ثم سقطت حصونهم الواحد بعد الآخر . . فطلبوا الصلح واتفقوا أخيرا على أن يحقن المسلمون دماء المقاتلين من اليهود ويتركوا الذرية - وأن تجلو اليهود عن خيبر وأراضيها بذراريهم ولا يأخذ أحدهم أكثر من ثوب واحد .

وهكذا تم الصلح واستولى المسلمون على خيبر ، وجلا عنها اليهود إلى بلاد الشام .

النتيجة فى غزوة خيبر :

ظهر نصر الله وتأييده للمسلمين ووضحت شجاعتهم وإيمانهم ، فلم يزد قتلاهم عن العشرين ، بينما كان القتلى من اليهود يزيدون عن التسعين .

وقد غنم المسلمون فى هذه الغزوة ألف رمح وأربعمائة سيف ومائة درع وخمسمائة فرس ، وكميات كبيرة من الحاصلات الزراعية والمتاع والماشية .

وكان مما غنمه المسلمون صحفا من التوراة ، وقد سلمها الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم حينما طلبوها منه ، فضرب بذلك أعظم الأمثال فى الصفح والتسامح .

ومن النتائج المباشرة لهذه الغزوة أن أهل فدك (١) وقع الرعب فى قلوبهم ، فبعثوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم وفدا يعرض عليه طاعتهم ،

---

(١) فدك : بلدة يهودية قريبة من خيبر .

وأن يدفعوا له نصف حاصلاتهم من غير قتال ، فوافق الرسول صلى الله عليه وسلم على ما عرضوه .

وما وقع بعد ذلك فى حصار وادى القرى(١) ، وقد أجبروا على التسليم والولاء .

وهكذا ساد سلطان النبي صلى الله عليه وسلم على جميع اليهود . وانتهى كل ما كان لهم من نفوذ فى شبه الجزيرة .

---

(١) موضع قريب من المدينة إلى جهة الشام وهو آخر حصن لليهود .

كتب الرسول إلى الملوك والرؤساء

تمتاز دعوة محمد على الله عليه وسلم ، عن غيرها من دعـــوات الرسل السابقين بأنها دعوة عالمية لا تقتصر على أناس بعينهم ، ولا على زمن بعينه، ولكنها تشمل الناس جميعا ، وتعم الأزمنة والعصور ، منذ أعلن الرسول دعوته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ولقد كان صلح الحديبية فاتحة عهد جديد ، شعر فيه الرسول والمسلمون بمزيد من الطمأنينة على مستقبل الدعوة الإسلامية ، وأخذ الرسول يتطلع إلى آفاق جديدة ، يعلن فيها دعوته تحقيقا لعالمية هذه الدعوة كما أمره الله عز وجل ، فأرسل الكتب إلى الملوك والأمراء خارج الجزيرة العربية ، يدعوهم فيها إلى دين الله الذى ارتضاه لعباده .

والقد كانت الكتب التى أرسلها محمد صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والرؤساء متحدة فى جوهرها ، وإن اختلفت بعض الإختلاف فى أسلوبها ، وذلك لأن الفكرة التى تهدف لها هذه الكتب واحدة ، وهى الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده ، ولأن شخص الداعى واحد وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه الكتب ينفذ أمر الله عز وجل حيث يقول (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس)(١) .

فالأمر بالتبليغ فى هذه الآية مطلق لا تحده حدود ولا تحبسه قيود ، وإنما يمتد عرضا إلى جميع الناس ، ويمتد طولا إلى جميع الأزمنة .

---

(١) سورة المائدة آية ٦٧

وتأكيداً لهذا المعنى يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت، إلى الناس كافة».

وسوف نكتفي بذكر واحد من الكتب ما دامت هذه الكتب جميعا متحدة في جوهرها.

كتاب الرسول إلى قيصر الروم

وجه الرسول صلى الله عليه وسلم دحية الكلبي بكتاب إلى قيصر الروم، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليوصله إليه، وقد جاء في هذا الكتاب «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين (١). (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهد بأنا مسلمون)».

موقف هرقل من كتاب الرسول

ولما وصل هذا الكتاب إلى هرقل قال: انظروا لنا من قومه أحداً نسأله عنه — وكان أبو سفيان بن حرب بالشام مع رجال من قريش في تجارة — فجاءت رسل قيصر لأبي سفيان ودعوة لمقابلة الملك، فأجاب.

ولما قدموا عليه في القدس قال لترجمانه: سلهم أيهم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟

---

(١) الفلاحين: وقيل إن الأريسيين هم الخدم والحشم. والمعنى أنه مسئول عن رعيته.

فقال أبو سفيان : أنا ، لأنه لم يكن فى الركب من بنى عبد مناف غيره .

فقال الملك له : ادن منى ، ثم أمر بأصحابه فجعلوهم خلفه ، ثم قال لترجمانه : قل لأصحابه : إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبي ، وقد جعلتكم من خلفه كيلا تخجلوا من رد كذبه عليه إذا كذب . ثم سأله :

كيف نسبة هذا الرجل فيكم ؟

قال : هو فينا ذو نسب .

قال : هل تكلم بهذا القول أحد منكم قبله ؟

قال : لا .

فقال الملك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

قال : لا .

قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟

قال : لا .

قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟

فأجاب أبو سفيان : بل ضعفاؤهم .

قال الملك : فهل يزيدون أم ينقصون ؟

قال : بل يزيدون .

قال : هل يرتد أحد منهم سخطة(١) لدينه ؟

قال : لا .

قال : لا . ونحن الآن منه فى ذمة لا ندرى ما هو فاعل فيها(٢) .

---

(١) كراهية .

(٢) يقصد أبو سفيان بهذه الذمة العهد الذى تم بين قريش وبين الرسول فى صلح الحديبية ، وقد أثبت المستقبل وفاء الرسول وغدر قريش .

قال الملك لأبى سفيان : فهل قاتلتموه ؟

قال : نعم .

قال : فكيف حربكم وحربه ؟

قال : الحرب بيننا وبينه سجال ، مرة لنا . ومرة علينا .

قال : فبم يأمركم ؟

قال : يقول : اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئاً ، وينهى عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمر بالصلاة ، والصدق ، والعفاف ، والوفاء بالعهد وأداء الأمانة .

وبعد أن انتهى الملك من أسئلته لأبى سفيان وجه إليه الكلام قائلا :

إنى سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها . . .

وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول قبله ، فزعمت أن لا ، فلو كان أحد قبله لقلت : رجل يأتم بقول قيل قبله . .

وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقال ما قال ، فزعمت أن لا وما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

وسألتك : هل كان من آبائه من ملك ، فقلت : لا . فلو كان من آبائه ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه .

وسألتك : أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ، فقلت : ضعفاؤهم وهؤلاء هم أتباع الرسل .

وسألتك : هل يزيدون أم ينقصون ، فقلت بل يزيدون ، وكذلك الإيمان حتى يتم .

وسألتك : هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ، فقلت : لا . وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب .

وسألتك : هل قاتلتموه ، فقلت : نعم ، وإن الحرب بينكم وبينه سجال ، وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة .

وسألتك بماذا يأمر ، فزعمت أنه يأمر بالصلاة ، والصدق ، والعفاف ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة .

وسألتك : هل يغدر ، فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، فعلمت أنه نبي ، وعلمت أنه مبعوث ، ولم أظن أنه فيكم : وإن كان ما كلمتنى به حقاً فسيملك موضع قدمى هاتين، ولو أعلم أنى أخلص إليه لتكلفت ذلك.

قال أبو سفيان : فعلت أصوات الذين عنده ، وكثر لغطهم فلا أدرى ما قالوا ، وأمر بنا فأخرجنا .

فلما خرج أبو سفيان مع أصحابه قال : لقد بلغ أمر ابن كبشة(١) أن يخافه ملك بنى الأصفر .

ولما سار هرقل إلى حمص . أذن لعظماء الروم أن يلتفوا به ، ثم أمر بالأبواب فأغلقت ، ثم قال يا معشر الروم : هل لكم فى الفلاح والرشد ، وأن يثبت ملكم فتبايعوا هذا النبى ؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش(٢) إلى الأبواب فوجدوها مغلقة ، فلما رأى الملك نفرتهم قال : ردوهم على ، فقال لهم : إنى قلت مقالتى كى أختبر بها شدتكم على دينكم ، فسكتوا له . ورضوا عنه ، وهكذا غلبه حب ملكه على الإسلام ، فذهب بإثمه وإثم رعيته ..

وأما الرسول الذى كان يحمل رسالة النبى وهو دحية الكلبى ، فقد رده هرقل رداً جميلا .

---

(١) يقصد محمداً وهو يكنيه بكنية أبيه فى الرضاع زوج السيدة حليمة .
(٢) أى وقع بينهم هرج واضطراب شديد .

ولقد كانت كتب الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى الملوك ، والأمراء نافذة كبرى ، أطل بها الرسول والمسلمون على العالم الخارجي ، وأطل منها العالم الخارجي على مبادىء الإسلام وآدابه ، فكانت هي الطليعة التي أرشدت المسلمين إلى الجهاد ، حتى يتموا ما بدأه الرسول من تبليغ الدعوة خارج الجزيرة العربية . وفي الوقت نفسه أظهرت للناس جميعا حقيقة هذا الدين في نقائه وصفائه . فجاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً .

سرية مؤتة[١]

كانت هذه السرية في شهر جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة وكان أعظم ما يلفت النظر فيها أنها موجهة إلى أمير بصرى ، وهي إمارة كانت تابعة لدولة الروم ، ومعنى ذلك أن المسلمين سوف يلتقون وجهاً لوجه بهذه الدولة الكبرى التي كانت ـ حينئذ ـ إحدى دولتين تملكان زمام العالم ، وتسيطران على أممه وشعوبه ـ وكان الغرض منها الانتقام للحارث بن عمير الأزدي ، وهو الرسول الذي كان يحمل كتاب النبي إلى هذا الأمير ، فأساء أنصاره إليه وقتلوه ظلماً وبغير حق ، وخالفوا بذلك أبسط القواعد المعروفة لدى جميع الأمم ، وهي أن الرسل لا تقتل ، لأن في قتلهم إهانة وقتلا لمن أرسلهم .

ومن هنا يتضح لنا أن هذه السرية من وجهة النظر السياسية ليست سرية انتحارية ، وليست تهوراً ، ولا إلقاء بالنفس إلى التهلكة ، وإنما هي سرية خرجت للتضحية والجهاد ، ولتدفع ضريبة الشرف والعزة

---

(١) مؤتة : مدينة تقع جنوب شرقي عمان بالمملكة الاردنية الهاشمية .

والكرامة ، وارتفع صوت الإسلام أمام هـؤلاء الذين تمادوا فى غيهم وضلالهم ، مهما بذلت من ثمن وتحملت من أعباء .

وكانت هذه الحملة مكونه من ثلاثة آلاف مقاتل ، وقد أمر الرسول عليها زيد حارثة . وقال لهم : إن أصيب فالأمير جعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة .

خروج الجيش :

خرج الجيش ومعه خالد بن الوليد . وودعه الناس ، وسار النبى صلى الله عليه وسلم معهم إلى خارج المدينة ، يدعو لهم بالنصر ويوصيهم ألا يقتلوا النساء ولا الأطفال ولا المكفوفين ، وألا يهدموا المنازل ، وألا يقطعوا الأشجار .

لكن العدو قد علم بمسير الجيش ، فقام « شر جبيل الغسانى » واستنجد بمن حوله من قبائل العرب المسيحيين — كما أمده هرقل بجيش كبير حتى بلغ عددهم حوالى مائه ألف أو أكثر .

وتقدمت الجيوش الإسلامية حتى إذا وصلوا إلى أرض الشام علموا أخبار تجمعات الأعداء ومدى استعدادهم ، فعقد « زيد » مجلسا حربيا للنظر والتشاور ، فقال قائل منهم نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره بكثرة الأعداء ، فإما أن يرسل إلينا مدداً ، وإما ان يأمرنا بأمره فنمضى له ، فوقف عبدالله بن رواحة ، وأخذا يشجع الناس على المضى والتقدم قائلا : انطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين ، إما نصر وإما شهادة ؛ فأثرت كلماته فى نفوسهم ودفعتهم إلى التقدم حتى وصلوا « مؤتة » .

والتقت قوة المسلمين القلية بعددها ، القوية بإيمانها ، بقوة الأعداء ؛ واندفع زيد بن حارثة فى صدر العدو يصد الهجمات تارة ، ويتقدم تارة أخرى ؛ حتى مزقته رماح العدو ؛ فوقع قتيلا فى ميدان الإستشهاد .

ثم انتقلت رياسة الجيش لجعفر بن أبى طالب، كما أوصى النبى صلى الله عليه وسلم. فقاتل حتى أحاط العدو بفرسه فنزل عنها، وتقدم راجلا وسط القوم يحصد الرءوس ويضرب الرقاب وهو يقول :

يا حبذا الجنـــة واقترابها　　　طيبـــة وبارد شرابها
والروم روم قد دنا عذابها　　　كافـرة بعـــيدة أنسابها
على إذ لاقيتها ضرابها

وظل هكذا حتى قطعت يداه فاحتضن الراية بعضديه حتى قتل بعد أن أصيب بأكثر من سبعين جراحا، ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح.

وعند ذلك انتقلت القيادة لعبد الله بن رواحة، فنزل الميدان وهو يقول :

أقسمت يا نفس لتنزلنـه　　　مالى أراك تكرهين الجنة؟

وسرعان ما سقط شهيداً فى سبيل الله وهو فرح مستبشر، مقبل غير مدبر.
هؤلاء ثلاثة استشهدوا فى سبيل إعلاء كلمة الحق والدين، فكانوا مثلا خالداً من أمثلة البطولة والتضحية والإيمان، وأصبحوا قدوة كريمة على مدى الزمان لكل مؤمن يريد أن يكتب لأمته تاريخاً، ولوطنه خلودا.

وبعد استشهاد الأطفال الثلاثة وانفق الناس هلى تولية خالد بن الوليد فاستطاع أن يوحد الصفوف ويجمع الشمل، وصار يناوش العدو حتى أقبل الليل فأخذ فى تدبير الخطة وتنظيم الجيش من جديد. فجعل الساقة مقدمة، والمقدمة ساقة، والميمنة ميسرة، والميسرة ميمنة.

فلما أصبح الصباح ظن العدو أن مددا لحق بالمسلمين، فلم يهاجموهم، بل فرحوا حين سكت المسلمون عن قتالهم، وتمنوا أن يعودوا دون استباك.

أما خالد فقد آثر المحافظة على المسلمين بالإنسحاب، وكانت مهارة بارعة حيث استطاع أن ينقذ الجيش الإسلامى من خطر محقق، وعاد إلى المدينة،

وقد بلغ الأسى من نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ علم بقتل القواد الثلاثة مبلغاً كبيراً .

« فعن أسماء بنت عميس » رضى الله عنها زوج جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه قالت : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أصيب « جعفر » وأصحابه فقال : ائتنى ببنى جعفر ، فأتيته بهم فضمهم وذرفت عيناه بالدمع قالت أسماء فى لهفة وقد أدركت ما أصابها : يا رسول الله بأبى أنت وأمى ما يبكيك ؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شىء ؟ قال : نعم أصيبوا هذا اليوم ، وفاضت عيناه بالدمع ، قالت : فقمت أصيح واجتمع على النساء ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لى : يا أسماء لا تقولى هجراً ولا تضربى خداً ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله فقال : لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم » .

وهكذا وبمثل هذا البر والوفاء كانت مواساته لأبناء الشهداء .

العبرة عن غزوة مؤتة :

١ — أتيح لنا فى هذه الغزوة أن نلمس عن كثب سماحة الإسلام وسمو مبادئه ، وحرصه على صيانة المجتمع الإنسانى من الذلة والهوان ، ولا غرو فهذه الوصية التى وجهها النبى صلى الله عليه وسلم للجيش وهو ذاهب إلى « مؤتة » بعدم التعرض للعجزة والمرضى والمنازل والمزارع ، وتلك التعاليم التى تميزت بها حروب المسلمين فى القرن الأول الهجرى ، السابع الميلادى هذه الوصية وتلك التعاليم يتيحان لنا الفرصة للمقارنة بين هذه الحالة وبين ما نراه فى هذه الأيام التى نعيشها ، وما يقع بين سمعنا وبصرنا من غارات وحشية على السكان الآمنين ، وكيف تزهق الأرواح البريئة ، وتدمر المساجد ، والكنائس ، والمصانع ، والمساكن ، ويهدم فى لحظات ما بنته المدينة والحضارة فى سنوات .

٢ — هذا الإيمان العميق الذى جعل المسلمين يتقدمون لملاقاة جيش يفوق جيشهم ، فى غير تردد أو خوف من الموت فى سبيل الله ، يحفزنا إلى الجهاد والكفاح ، وبذل الأرواح فداء للدين والوطن ، واقتداء بأسلافنا الأمجاد ، الذين حملوا أرواحهم على أكفهم ، وألقوا بها فى وجه كل من يقف فى سبيل الدعوة إلى الله ، مستبشرين بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين .

٣ — موقف الرسول من أسر الشهداء ، فيه توجيه للمسلمين إلى ما يجب عليهم نحو المحزونين ، من مواساة لهم ، وإعداد طعام يبعثون به إليهم ، لأنهم قد شغلوا بأنفسهم ، أما ما عليه المسلمون من إقامة حفلات أحيطت بإسراف ممقوت ، فهذا ليس من السنة النبوية فى شىء .

٤ — موقف خالد بن الوليد ومهارته الحربية ، غيرت الوضع فى هذه المعركة ، من خوف إلى أمن ، ومن هزيمة إلى نصر . . لأن إنقاذ الجيش من فناء محقق ، والنجاة به فى مثل هذا الظرف العصيب ، يقوم مقام النصر وزيادة .

وحسبنا دليلا على ذلك ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم مع الجند المسلمين لدى عودتهم من موتة ، فلقد قابلهم المسلمون فى المدينة يسخرون منهم ويحثون التراب فى وجوههم ، ويقولون لهم : يا فرار . فررتم عن الجهاد فى سبيل الله ، فأنكر الرسول عليهم هذه السخرية والاستهزاء ، وحياهم تحية طيبة ، وقال : بل هم الكرار ، وأثنى على خالد فى مهارته وحسن حيلته فى إنقاذ الجيش من الهلاك .

الفصل العاشر

يوم الفتح ويوم حنين

يومان خالدان فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وفى تاريخ المسلمين، وهما فتح مكة، وغزوة حنين ، ولقد وقعت هاتان الغزوتان فى شهرين متتابعين من العام الثامن الهجرى ، ولم تزد المسافة بينهما عن خمسة عشر يوما ، إذ كان فتح مكة فى اليوم العشرين من رمضان ، وكانت غزوة حنين فى اليوم الخامس من شوال .

ولا شك أن غزوة حنين هى الصدى الطبيعى والامتداد الحتمى الذى كانت تفرضه الظروف على المسلمين بعد فتح مكة . ذلك بأن مكة بعد هذا الفتح الأعظم كانت مكشوفة الظهر لأولئك الأعراب الذين يطلون عليها من القبائل المجاورة . فهى ـ حينئذ ـ وإذ لم تطهر مسالكه وشعابه ، وبيت لم تؤمن نوافذه وأبوابه ، هذا فضلا عن أن القبائل المجاورة لقريش قد أزعجها أن ينتصر محمد وتدين له مكة بالولاء والطاعة ، ورأوا فى ذلك خطراً يهددهم ، فتجمعوا للزحف على المسلمين فى مكة ، وعقدوا العزم على ذلك ، فكان من مظاهر العزة الإسلامية أن يخرج المسلمون إليهم ويفاجئوهم قبل أن تكتمل قوتهم ويعظم خطرهم .

وهذا يفسر لنا إسراع الرسول صلى الله عليه وسلم بالخروج إلى حنين قبل أن يقضى المسلمون فى مكة الفترة الطبيعية اللازمة لراحتهم واستجمامهم وتدعيم استقرارهم فى مكة المكرمة بعد أن تم لهم هذا الفتح العظيم .

وسوف نتحدث الآن عن هاتين الغزوتين واحدة بعد الأخرى .

١ — غزوة الفتح

حينما أراد الله أن يتم نوره، ويعلى كلمته، جاء نصر الله والفتح، وأقبل الحق يسعى إلى البلد الأمين، كما يقبل الصيب الهتون. فاهتزت له بطحاء مكة وربت، واخضر به الوادى الجديب، وتفتحت لاستقباله القلوب، وبدأت مكة عهداً جديداً توارى فيه شبح الوثنية البغيض إلى غير مآب، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً (وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد).

سبب الغزوة :

وكانت الظروف التى أحاطت بقريش وروح الشر التى بدأت منهم، هى السبب المباشر الذى يحتم على الرسول غزوهم حتى لا يستفحل الضرر ويتفاقم الخطر، وذلك أن قريشا نقضت ما تعهدت به فى صلح الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنصرت قبيلة بكر الموالية لها على قبيلة خزاعة الموالية للرسول. وكان العهد القائم بين الرسول وقريش أنه من أحب أن يدخل فى حلف محمد فهو آمن، ومن أحب أن يدخل فى حلف قريش فهو آمن، فدخلت بكر فى حلف قريش، ودخلت خزاعة فى حلف الرسول.

ولو أن قريشا احترمت عهودها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما فكر الرسول فى فتح مكة، ولقدر لهذا البلد الأمين أن يقضى فترة أخرى فى ظلمات الشرك والوثنية.

ولكن الله أبى إلا أن يتم نوره، فأبت قريش إلا أن تغدر وتظلم، وتنتهك حقوق الضعفاء، وأبى رسول الله إلا أن يقاوم الظلم والغدر ويكون رمزاً للانصاف والوفاء.

وكانت خزاعة قد تعرضت لعدوان قبيلة بكر بتأييد ومعونة من قريش فقتل منهم عدد كبير عند ماء لهم يقال له الوتير دون ذنب إلا أنهم مسلمون ، وداخلون فى حلف مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه . . وحينئذ خرج زعيمهم عمرو بن سالم الخزاعى حتى وصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فوقف عليه وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى الناس فقال مستجيرا بالرسول .

يارب إنى ناشد محمـــدا ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتم ولدا وكنا والدا ... ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرا اعتدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا ... فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا

إلى أن قال :

إن قريشا أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا ... وهم أذل وأقل عـددا
هم بيتونا بالوتير هجـدا ... وقتلونا ركعـاً وسجـدا

فأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا : نصرت ياعمرو بن سالم . ثم قام من فوره ليعد للأمر عدته ، وليقوم بواجب الوفاء نحو خزاعة - وبين هذا الوفاء من جانب الرسول صلى الله عليه وسلم والغدر من جانب بكر وقريش ستكون الحكمة البالغة والآية الكبرى : حيث يريد الله أن ينتصر الحق ويؤتى ثماره الطيبة ، ويتداعى الباطل ويتزلزل بنيانه . وإن فى ذلك لعبرة .

إن الوفاء بالعهود والمواثيق يكاد يكون فى حياة الأمم والشعوب حبرا على ورق . بل إنه لأقرب إلى الوهم والخيال منه إلى الحقيقة والواقع . وهذا هو الذى جعل الإنسانية تشقى دائما بالثورات والفتن والمعارك الدامية

ولو عرفت كل أمة ما لها وما عليها ، واحترمت عهودها مع غيرها من الأمم وألزمت نفسها بروح الإنصاف والوفاء .. لأمكن أن تهدأ نار البغضاء والشحناء ، وأن تجف الأرض من الدماء والدموع ، لكى تشرق السعادة بين الناس ، ويعيشوا فى جو مزدهر بالأمن والسلام .

موقف غريب لصحابى جليل :

أما ذلك الصحابى الجليل ، فهو حاطب بن أبى بلتعة ، رضى الله عنه ، وأما موقفه فقد كان غريبا ، لأنه لا يتلاءم مع تاريخه المجيد وماضيه الكريم إذا كانت له فى ذلك اليوم كبوة كبيرة وزلة مشينة ، ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما عزم على فتح مكة عمل على إخفاء مسيره ووصى أصحابه بكتمان هذا الأمر وقال : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها » .

وتلك خطة حربية ناجحة ، فإن الحرب خدعة ، ومباغتة الأعداء سلاح قوى لا يقل حدة .

ولكن حاطبا لمؤمن زلت به القدم فى لحظة من اللحظات ، وكم للنفس البشرية من زلات يتغلب فيها الشيطان على الإنسان ، فيغطى الحقائق ، ويعمى المسالك ، ويظهر الشر والقبح فى مظهر الحسن والجمال ، وهذا من سمات الضعف البشرى ، والعجز الإنسانى الذى عناه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » .

أجل زلت قدم حاطب ، فأرسل كتابا إلى قريش يخبرهم فيه بما اعتزمه الرسول من السير إليهم ، ثم أعطاه امرأة من مزينة ، وجعل لها جعلا على أن تبلغه لقريش ، فوضعته فى شعرها وفتلت عليه قرونها

ـ وكان فى الخطاب « إن النبي صلى الله عليه وسلم قد توجه إليكم بجيش كالليل يسير كالسيل وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله عليكم فإنه منجز له ماوعده(١) .

« وقد جاء الخبر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بوحى من الله عز وجل ، فبعث على ابن أبى طالب والزبير بن العوام رضى الله عنهما وقال لهما : أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بن أبى بلتعة بكتاب إلى قريش ، يحذر فيه ماقد أجمعنا له فى أمرهم ، فخرجا حتى أدركاها فى الطريق ، واستخرج على بن أبى طالب منها الكتاب ، ثم أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطباً فقال : ياحاطب ، ماحملك على هذا ؟ فقال يارسول الله ، أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ماغيرت ولا بدلت ولكننى كنت امرأ ليس لى فى القوم أصل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم .

فقال عمر بن الخطاب : يارسول الله دعنى فلأضرب عنقه فإن الرجل قد نافق .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما يدريك ياعمر ، لعل الله أطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم »(٢) .

ألا أن فى هذا الحادث لعبرة بالغه . فرسول الله يلقى على العالمين درساً نافعاً فى تقدير الأعمال ، ووزن الخير والشر بميزان سليم ، والتماس المعذرة للمخطىء إذا وضحت له الحقيقة فرجع وتاب وأناب ، وكثير من الناس يختلط الأمر عليهم فلا يغفرون السيئة الصغيرة مهما تقدمها من حسنات كبار ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد عرف طبيعة الإنسان

---

(١) الروض الأنف للسهيلى ج ٢ ص ٢٦٦

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ٢٦٧

وتسلط الشيطان عليه ، ثم عرف مع ذلك قول الله تعالى (إن الحسنات يذهبن السيئات) وقوله (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره : ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وقوله (إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) .

وقد وضع ذلك كله فى الميزان ، فغفر لذلك الصحابى الجليل زلته الطارئة أمام بلائه السابق فى خدمة الإسلام ، وحضوره غزوة بدر ابتغاء مرضاة الله وجهاداً فى سبيله .

الرسول والمسلمون فى الطريق إلى مكة :

وتهيأ المسلمون وعلى رأسهم قائدهم الأمين ليتخذوا طريقهم إلى مكة ، وقد أراد الرسول صلى الله عليه وسلم ألا يترك لقريش فرصة يتجهزون فيها للحرب ، حتى يأخذهم على حين غفلة فيستسلموا دون أن تزهق الأرواح وتسفك الدماء . لذلك أصدر أمره بالتعبئة العامة ، فتسابق المسلمون إلى تلبية النداء والانضمام تحت اللواء .

ثم تحرك جيش المسلمين فى الثامن من رمضان من السنة الثامنة للهجرة ، وقد انضم إليهم فى الطريق جماعات من قبيلة أسلم ومزينة وغطفان حتى بلغ عددهم عشرة آلاف ، وظلوا سائرين حتى وصلوا بعد سبعة أيام إلى « مر الظهران » وهو واد على مقربة من مكة .

وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوقد كل فرد ناراً لتظهر قوة الجيش الإسلامى القريب من مكة ، فيلقى الرعب فى قلوب قريش فتأتى صاغرة للتسليم ، وكان أبو سفيان بن حرب ، خرج يتلمس الأخبار ، ويستطلع مبلغ الخطر الذى شاعت أنباؤه فى مكة .

وفى جنح الظـــلام وعلى مقربة من نيران المسلمين لاقاه العباس

ابن عبد المطلب فناداه ، فوقف له أبو سفيان وقال : ماوراءك ؟

قال العباس : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاكم بما لاقبل لكم به .

قال أبو سفيان : فما الحيلة فداك أبي وأمي ؟

قال العباس : أنصحك بأن تركب ورائي وكان يركب بغلة رسول الله فآتيه بك واستأمن لك . .

وأردف العباس أبا سفيان وسار نحو خيمة رسول الله .

يقول العباس : فلما مررت بناد عمر بن الخطاب عرف أبا سفيان ، فأسرع إلى خيمة النبي صلى الله عليه وسلم ، وطلب أن يضرب عنقه .

فقال العباس : إني قد أجرته .

فقال صلى الله عليه وسلم : اذهب به ياعباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأتني به .

فلما كان الصباح جاء به النبي صل الله عليه سلم .

فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟

قال أبو سفيان : ماأحلمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئاً . . .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم . ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟

قال أبو سفيان : أما هذه فوالله إن النفس منها حتى الآن شيئا .

فتدخل العباس ، وقال له : ويحك أسلم قبل أن تضرب عنقك ، فأسلم .

فقال العباس : يارسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

الجيش يدخل مكة :

وبعد ذلك أمر الرسول العباس أن يقف مع أبى سفيان على الطريق الضيق المؤدى إلى مكة ، حتى تمر عليه جنود المسلمين فيراها ليحدث قومه عن قوة المسلمين .

ومرت القبائل بأبى سفيان وهو يسأل عنها العباس حتى قال يا عباس مالأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، وأسرع إلى مكة يصيح بأعلى صوته) يامعشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

وركب الرسول ناقته القصواء ، وأصدر الأوامر إلى قادة الجيش ألا تقاتل إلا إذا أكرهت على القتال . وساروا حتى دخلوا مكة . ولم يحدث إلا مناوشات خفيفة ، وأهمها مالاقاه خالد بن الوليد قائد الجناح الأيمن ، فقد قتل حوالى عشرين رجلا ممن وقفوا فى طريقه ، ولم يقتل من المسلمين سوى اثنين .

ولما تم للمسلمين الاستيلاء على مكة ، نظر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى البلد الأمين ، وإلى الجبال التى كان يأوى إليها حين يشتد به أذى قريش ــ فترقرقت فى عينيه دمعة شكر لله ــ ثم سار حتى بلغ البيت الحرام ، فطاف به سبعا ثم استلم الحجر ، وتكاثر الناس حوله فى المسجد ، فخطبهم وتلا عليهم قوله تعالى : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

ثم قال : « يامعشر قريش ، ويا أهل مكة ، ماترون أنى فاعل بكم » ؟
قالوا : خيراً : أخ كريم ، وابن أخ كريم .
قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .
وبهذه الكلمة صدر العفو عن أهل مكة جميعا .
وهكذا سقط أكبر معقل للوثنية فى بلاد العرب . وكان ذلك فى اليوم العشرين من رمضان .

تطهير الكعبة من الأصنام :

ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الكعبة ؛ وكان بداخلها وخارجها أصنام تعبدها قريش ، فأخذ يشير إليها بقضيب فى يده ويقول : (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) وأمر بإخراجها وتحطيمها ، وتطهير البيت الحرام منها .

وبعد أن استتب الأمن بوجه عام ، أخذ النبى صلى الله عليه وسلم يرسل السرايا إلى القبائل المجاورة لمكة ، يدعوها إلى الإسلام وتحطيم الأصنام ، فهدمت العزى ومناة وسواع(١) . وبذلك ذهبت هيبة الأوثان من النفوس وزال سلطانها ، واستنار العالم العربى بنور التوحيد الوضاء .

وهكذا قضى الإسلام على الوثنية والشرك فى أغلب جزيرة العرب ، وأنشأ لها تشريعات جديدة ، كانت [illegible] الخير والبركة .

ثم شرع الناس يبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام . فكان ممن أسلم فى هذا اليوم معاوية بن أبى سفيان ، وأبو قحافة والد أبى بكر الصديق ، وقد فرح الرسول كثيراً بإسلامه .

---

(١) العزى : صنم بجهة نخلة بين مكة والطائف . مناة صنم للأوس والخزرج على جبل بالقرب من البحر الأحمر سواع : صنم لهذيل على بعد ثلاثة أميال من مكة .

ولما تمت بيعة الرجال بايعه النساء ، وكن يبايعن على ألا يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصين الرسول فى معروف .

ثم أمر الرسول بلالا أن يؤذن على ظهر الكعبة ، فكان يوما مجموعا له الناس ، وكان يوما مشهوداً ، وكان من الحق على المسلمين أن يتخذوا هذا اليوم عيداً يحمدون الله فيه على هذه النعمة الكبرى والنصر العظيم .

العبرة فى يوم الفتح :

بعد أن تم فتح مكة ، واجتمع الناس حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان منهم من ائتمروا به ليقتلوه ، ومن قاتلوه فى بدر ، وفى أحد ، وحصروه فى غزوة الخندق ، وعذبوه وأصحابه .

انظر إليهم وهم جميعاً فى قبضة يده ـ أمره نافذ فى رقابهم ، وحياتهم رهن كلمة ينطق بها ـ فلم يأخذه العجب والغرور بما وصل إليه من مجد وسلطان ، ولم يطف بنفسه مايتملك نفوس الناس ساعة النصر والظفر من ظلم وطغيان ، بل وحتى لم يفكر فى الانتقام لنفسه وللمسلمين عما أصابهم على أيدى قريش من الأذى والعدوان ، ولكنه نظر إليهم نظرة كلها عفو ورحمة وقال لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، فكان مثلا كريماً فى سمو النفس ، والعفو عند المقدرة .

كما ضرب المثل فى المحافظة على الدماء بإصدار الأوامر إلى قادة الجيوش ألا تسفك دما إلا إذا أكرهت إكراها .

وقد كان من أثر هذه السياسة أن كسب الرسول قلوب أهل مكة ، فأقبل على الإسلام فتيان قريش وشيوخها ونساؤها ، ولم يحجم عنه إلا نفر أكل الحقد قلوبهم ، ثم لم يلبثوا إلا قليلا حتى شرح الله صدورهم للإسلام .

غـــزوة حنين

كانت هذه الغزوة هى الجولة الطبيعية للمسلمين ، بعد أن تم الله عليهم النعمة بفتح مكة ، لأن القبائل المجاورة لقريش كقبيلتى هوازن وثقيف وما يتفرع عنهما من بطون وأفخاذ وفصائل ، قد أزعجها أن تستسلم قريش — وهى أعظم قبائل العرب — لمحمد وكانت قريش قبل الفتح الإسلامى لمكة هى أقوى خصومه وألد أعدائه ، وكان وجودها فى هذا المكان المتوسط بينهم وبين محمد هو صمام الأمان بالنسبة لهم .

ومن أجل ذلك تجمعت هذه القبائل واتفقت كلمتها على غزو محمد قبل أن يغزوهم ، وعلى مفاجأته بهذا الغزو قبل أن يأخذ جيش المسلمين حظه من الراحة والاستقرار . وحينما علم الرسول والمسلمون بذلك كانت نفوسهم مستعدة لتلقى هذه الأنباء حيث كانوا يتوقعون هذا الخطر ، ويفكرون فى طريقة سريعة لاستئصاله قبل أن يزحف عليهم .

استعداد هوازن وثقيف(١) للقاء المسلمين :

أرسلت هوازن وثقيف إلى بطونها وفروعها تطلب إليها أن تجتمع بخيلها ورجلها عند « وادى أوطاس » قرب الطائف(٢) ، وأسندت الرياسة إلى مالك بن عوف ، وكان شابا فى الثلاثين من عمره ، قوى الإرادة . ماضى

---

(١) هوازن وثقيف قبائل من العرب تسكن فى الجهات الواقعة فى الجنوب الشرقى من مكة ، وأهم مدنهم الطائف حيث كانت تسكن ثقيف وهى أخصب بلاد العرب

(٢) الطائف مدينة معروفة تبعد عن مكة حوالى ١٢٠ ك م .

العزيمة ، فاجتمع إليه عدد كبير منهم « بنو سعد » وهم الذين كان الرسول صلى الله عليه وسلم مسترضعا فيهم ، ومعهم دريد بن الصمة ، وكان شيخا كبيراً عمى بصره ، وصار لا ينتفع إلا برأيه وتجاربه فى الحروب .

وأمر مالك رجال القبائل أن يسوقوا معهم إلى الحرب المواشى والأموال والنساء والأطفال ، وجعلهم فى مؤخرة الجيش ، كثيروا والرجال إلى الاستماتة فى الدفاع عن متاعهم وحريمهم .

فلما سمع دريد رغاء البعير ، وبكاء الصغير ، وثغاء النساء ، سأل « مالكا » لم ساق هذه مع المحاربين ؟

فأجابه : بأنه أراد بذلك تشجيع المحاربين .

قال « دريد » : وهل يرد المنهزم شيء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك . فلم يقبل مالك رأى الشيخ ، وتخطى احتجاجه ، ورماه بضعف الرأى لكبر سنه ، ثم صف جموعه وكانت تبلغ عشرين ألفا فى كمين عند مضيق الوادى ، وانتظر قدوم الجيش الإسلامى .

موقف المسلمين :

أما المسلمون فغادروا مكة يوم السبت ٦ شوال سنة ٨ هـ إلى وادى حنين فى اثنى عشر ألفا من المقاتلين ، ومنهم عشرة آلاف هم الذين فتحوا مكة ، وألفان ممن أسلم من قريش ، وسار المسلمون وسط صهيل الخيل وبريق السيوف ، معجبين بكثرتهم ، فخورين بقوتهم ، حتى لقد تحدث بعضهم إلى بعض قائلين : لن نغلب اليوم عن قلة ، ونزلوا « حنينا » قرب المساء على أبواب واديها .

وقبيل الفجر تحرك الجيش الإسلامى ، ولم تكد الطلائع تتقدم إلى مدخل الوادى حتى خرج لهم الكمين وشدوا عليهم شدة رجل واحد ، وأمطروهم بوابل من النبال ، وانقضوا على أولى صفوف المسلمين التى ارتجت لهذه المفاجأة العنيفة ، فلوت أعنة خيلها متقهقرة ، واصطدمت فى الظلام بما وراءها من صفوف المسلمين ، ولجأ الكل إلى الفرار ، وتحدث بعض من ضعاف الإيمان فى شماتة قائلا : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر .

كل هذا والنبى صلى الله عليه وسلم ثابت فى مكانه ، ومعه جماعة من المهاجرين والأنصار منهم العباس بن عبد المطلب ، وأبو بكر ، وعمر ، وأسامة ابن زيد ، فأخذ النبى صلى الله عليه وسلم ينادى فى القوم بالثبات وهو راكب بغلته البيضاء يركضها نحو العدو وهو يقول :

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب

الإنتصار بعد الهزيمة :

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس بن عبد المطلب ، وكان جهورى الصوت . أن ينادى فى الناس ، فنادى : يامعشر الأنصار الذين آووا ونصروا ، يامعشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ، هلوا هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذ يكرر النداء الذى هز أوتار قلوبهم . فرجعوا يتصايحون من كل جهة « لبيك لبيك » حتى انتظم عقدهم ، وكانت هوازن قد انحدرت من مكانها وأصبحت وجها لوجه أمام المسلمين . وهجم الأنصار ، واشتد القتال ، فنظر إليهم الرسول وهم يطيحون برءوس الأعداء قائلا : إن الله لايخلف رسوله وعده ، فلما رأت هوازن أنهم معرضون للفناء ، وأن كل أمل فى النصر قد غاض ، ولوا الأدبار منهزمين ، فتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ، وغنموا مؤخرة جيشهم كلها . وكانت غنائم

المسلمين ٢٤٠٠٠ من الإبل ، و٤٠٠٠٠ من الشاه ، و ٤٠٠٠ أوقية من الفضة ، و٦٠٠٠من الأسرى ، وقد نقلت كلها فى حراسة قوية إلى وادى الجعرانة(١).

حصار الطائف :

أما النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون فقد تابعوا مطاردة العدو حتى ألجأهم إلى صياصى الجبال وإلى الطائف ، وحاصر الرسول الطائف ، ولكنها استعصت عليه لسورها الحصين ، فآثر تركها لأنه ليس من مصلحة المسلمين بذل ضحايا كثيرة ـ وعاد إلى الجعرانة حيث الغنائم والأسرى .

تقسيم الغنائم :

أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجانب الكبير من الأموال لحديثى الإسلام من قريش والأعراب الذين كانوا إلى أيام قريبة أشد الناس عداوة له .

فكان ما أخذه أبو سفيان بن حرب ٤٠ أوقية من الفضة و ١٠٠ من الإبل .

وكذلك فعل مع معاوية ويزيد ابنى أبي سفيان ، فقال له أبو سفيان : بأبى أنت وأمى لأنت كريم فى السلم والحرب ، وأعطى حكيم بن حزام مثل ما أعطى أبا سفيان ، فاستزاده فأعطاه ، ثم استزاده فأعطاه مثلها ، وقال له : ياحكيم ، إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان الذى يأكل ولا يشبع ،

(١) تبعد عن مكة حوالى ٤٠ كيلو متراً

واليد العليا خير من اليد السفلى ، فاهتزت نفس حكيم لما سمع من كلام الرسول ، ونفض يده من كل ماأخذه بعد العطاء الأول ، فأخذ المائة الأولى وترك ماعداها ، وأقسم ألا يأخذ عطاء من أحد بعد هذا العطاء .. وبر بيمينه ، فكان الخلفاء بعد رسول يعرضون عليه العطاء الذى يستحقه من بيت المال فلا يأخذه .

بل لقد بلغ العطاء لبعض الذين أراد الرسول أن يؤلف قلوبهم للإسلام مبلغاً لايخطر بالبال ولا يجول فى الخيال ، وذلك هو صفوان بن أمية ، فلقد رآه الرسول يرمق شعبا مملوءاً نعماً وشاءاً فقال له هل يعجبك هذا ؟ قال : نعم ، قال : هو لك ، فقال صفوان : ماطابت بمثل هذا نفس أحد ، وكان ذلك سبب إسلامه .

ثم أمر عليه السلام زيد بن ثابت فأحصى مابقى من الغنائم وقسمه على الغزاة ، فاجتمعوا عليه وتسابقوا فى الحصول على تلك الأموال حتى ألجأوه إلى شجرة فتعلق بها رداؤه فقال : ردوا ردائى أيها الناس فوالله إن كان لى شجر تهامه نعماً لقسمته عليكم ، ثم ما ألفيتمونى بخيلا ولا جبانا ولا كدودا ، ثم قام إلى بعيره وأخذ وبرة من سنامه وقال : والله مالى من غنيمتكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخياط والمخيط (١) ، فإن الغلول (٢) يكون على أهله عاراً وشناراً وناراً يوم القيامة .

وقد أثمرت هذه النصيحة الغالية ثمرتها المرجوة ، ففاء كل من لعب الشيطان برأسه إلى نفسه ، ورد ما أخذه بغير حق مهما كان زهيداً . . ثم شرع الرسول يقسمها فأصاب الرجل أربعة من الإبل وأربعون شاة .

---

(١) يعنى أدوا كل شىء يلزمكم أداؤه مهما كان صغيراً .

(٢) الغلول : هو الإختلاس من الغنيمة .

موقف الأنصار بعد توزيع الغنائم :

وعلى أثر تقسيم الغنائم والفوارق الفادحة التى بدت فى تمييز البعض عن البعض ، وعدم إعطاء الأنصار من هذه الغنائم شيئا ، ساد بين الأنصار لغط شديد ، وذهبت الظنون بنفوسهم كل مذهب ، وكاد الأمر يؤدى إلى كارثة محققة ، لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تدارك الشر قبل استفحاله .

فجمع الأنصار وبين لهم وجهة نظره فى هذا التقسيم الذى يعترضون عليه فقال : « يا معشر الأنصار ، ما قالة بلغتنى عنكم ، وجدة وجدتموها على فى أنفسكم ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى ، لله ورسوله أمن وأفضل ، ثم قال : ألا تجيبونى يا معشر الأنصار؟ قالوا : بماذا نجيبك يارسول الله، لله ورسوله المن والفضل ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم : أتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلا فآسيناك ، أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يرجع الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ، فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسما وحظا » .

إسلام هوازن :

وبعد ذلك ببضع عشرة ليلة جاءت وفود قبيلة هوازن يعلنون الطاعة والولاء ، ويطلبون من رسول الله صلى الله عليه وسلم أموالهم ونساءهم

وأولادهم ، فخيرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بين أمرين يتجاوز عن أحدهما : إما السبي وإما المال ، فاختاروا السبي أى النساء والذرية ، وقالوا : اردد علينا نساءنا وأبناءنا ولا نتكلم فى شاة ولا بعير . فردها إليهم » وقد أسلموا بعد ذلك وحسن إسلامهم .

وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سياسته وحسن تقديره للأمور فلم يكن يزدهيه النصر ويبطره ، فينسى جانب العطف والرحمة فى مثل هذه الظروف القاسية ، وقد أثمرت هذه السياسة ثمرتها المرجوة ، وكانت مصدر الهدى والنور على توالى الأزمنة والعصور .

عودة الرسول صلى الله عليه وسلم :

وذهب الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إلى المدينة آمنا مطمئنا فائزاً غانما فوصلها لست باقين من ذى القعدة سنة ٨ هـ . ولقد أنزل الله فى هذه الغزوة من سورة التوبة

(لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها : وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ، ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم) .

وبانتصار المسلمين فى حنين زالت آخر مقاومة كبيرة كانت العرب تستطيع توجيهها ضد الإسلام والمسلمين ، وتم فتح الحجاز عمليا ، كما أقبلت بعد ذلك وفود كثيرة من القبائل تعلن دخولها فى الدين الإسلامى ، وخضوعها للدولة الإسلامية .

ومن غزوة حنين وما وقع فيها من الأمن بعد الخوف ، والنصر بعد الهزيمة ، يتبين لنا أن الغرور كان ولا يزال أساس الشر والبلاء فالمسلمون حينما اغتروا بكثرتهم يوم حنين حاقت بهم الهزيمة . فلما نزعوا ثوب الغرور واعتمدوا على الله ، ولجأوا إلى قوته ، جعل الله لهم من العسر يسرا ، وبدل هزيمتهم نصراً .

كما يتجلى لنا أن كثرة العدد والعدد فى ميادين الحروب لاتغنى فتيلا إن إن لم تؤسس على العقيدة والإيمان . إذ لا قيمة للسيف فى يد الجبان .

وإن فى ذلك لعبرة !

الفصل الحادي عشر

حجة الوداع ووفاة الرسول

كان العام التاسع الهجرى فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم مناط الفخر وذروة القوة ، ففيه خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك على مشارف الشام ، ليلتقى بدولة الروم التى كانت تهدد حدود الجزيرة العربية، فتهيب الروم لقاءه ، ولاذوا بالفرار ليتحصنوا داخل بلادهم ، فكان هذا النصر الأبيض(١) على دولة الروم العظيمة تطوراً كبيراً وتحولا عجيبا يعتز به المسلمون فى تاريخهم .

وفيه تتابعت الوفود من سائر الجزيرة العربية لتعلن الولاء والطاعة للرسول ، ولتؤمن مستقبلها قبل أن يصل إليها المد الإسلامى ، ويكتسحها تياره القوى .

وكانت هذه الوفود فى كثرتها وتتابعها حرية بأن تجعل هذا العام عام الوفود . كما كانت هذه الوفود هى الثمرة الطبيعية لكفاح المسلمين الطويل ، لأنها البرهان الواضح على أن صوت الإسلام قد أصبح مسموعا فى كل مكان وأن الناس حينما سمعوه واطمأنوا إليه لبوا النداء واستجابوا للدعاء ، وكان من هذه الوفود وفد عبد القيس ، ووفد تميم ، ووفد ثقيف الخ .

وفى هذا العام ـ أعنى عام الوفود ـ كانت أول حجة فى الإسلام ،

---

(١) النصر الأبيض هو الذى يتم دون قتال وإراقة دماء .

وكان أمير الحج من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

ولهذه الحجة دلالتها القوية على مدى النفوذ الذى أصبح للمسلمين بعد الفتح الأعظم لمكة ، حتى أصبح البلد الأمين مثابة للناس وأمناً ، وأصبحت أبوابه مفتوحة للمصلين يغــدون ويروحون . ويحجون ويعتمرون .

وقد عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أبى بكر رضى الله عنه بالإمارة على الحجيج - كما قدمنا - فخرج على رأس ثلاثمائة من المسلمين قاصداً إلى البلد الحرام ، وقد طهره الله من الأصنام والأوثان ، ولكنه لم يطهر بعد من المشركين الذين أقبلوا من كل فج يطوفون بالبيت ، ويتلمسون آلهتهم التى كانت تستظل به منذ عام واحد ، ثم حطمها محمد صلى الله عليه وسلم فاختفت أشباحها من الوجود ، ولكن بقى - على زعمهم - روحها القوى يصرف عنهم السوء ، ويملأ حياتهم بالخير والبركة .

وكان من فضل الله على رسوله وعلى المسلمين أن يعيد لهذا البيت طهره القديم منذ رفع قواعد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . فنزلت الآيات الكريمة من سورة التوبة :

(وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله) .

(ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون . إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) .

(يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام

بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم) .

وقد أوفد الرسول صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب كرم الله وجهه بهذه الآيات الكريمة كى يلحق بأبى بكر رضى الله عنه ، وليبلغها بنفسه إلى الناس ، فلما رآه أبو بكر قال له : أمير أم مأمور ؟ قال : بل مأمور ، وأخبره أنه إنما جاء ليبلغ للناس ما أمر به الله ورسوله . فلما اجتمع الناس بمنى يؤدون مناسك الحج ، وقف على بن أبى طالب وإلى جانبه أبو هريرة ، فقرأ الآيات الكريمة من صدر سورة التوبة وهى التى ذكرنا بعضا منها . ولما أتم تلاوتها وقف هنيهة ثم قال : أيها الناس : إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته ، ثم أجل الناس أربعة أشهر بعد ذلك اليوم ليرجع كل قوم إلى مأمنهم وبلادهم .

ومنذ ذلك اليوم اكتمل تطهير البلد الأمين من الرجس ، فلم يحج إليه مشرك ، ولم يقم فيه كافر ، وبقيت أنوار الحق والايمان تشع فى الأرجاء إلى ما شاء الله .

وصدق الله العظيم حيث يقول : (فأما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث الأرض) .

حجة الوداع

وحينما جاء موسم الحج عن العام العاشر الهجرى ، كان البيت العتيق قد تخلص من شوائب الشرك وأرجاسه ، فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم لأداء فريضة الحج ، وهى الحجة الأولى فى حياته وقد شاء الله أن تكون الأولى والأخيره . ومن أجل ذلك سميت حجة الوداع .

وقد سرت الأنباء بحج الرسول صلى الله عليه وسلم فى كل مكان، وتسمعت الصحراء لهذه الأنباء فى زهور وطرب ، وتجمعت القبائل العربية من كل صوب وحدب ، حتى لقد بلغت عدة المسلمين حينئذ مائة ألف أو يزيدون جاءوا يتسابقون ركضاً لينالوا شرف الحج مع النبى الكريم ، وليروا عن كثب تلك المناسك المقدسة كما يؤديها الرائد الأكبر والقائد المظفر ، وكما تقضى بها تعاليم الدين الحنيف .

ولم يكد يأتى اليوم الخامس والعشرون من ذى القعدة حتى بدأ الركب يولى وجهة شطر المسجد الحرام ، ويحيث الخطا لبلوغ تلك الغاية الكريمة .

وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم معه جميع نسائه ، وكأنه كان يحس بقرب الأجل ونهاية المطاف ، وكأنما ألهمه الله أن هذا الموسم من الحج هو آخر العهد به فى هذه الحياة الدنيا . فلم يشأ أن يختص واحـــدة من نسائه بفضل صحبته فى هذه الحجة الأولى والأخيرة ، حتى لاتضيع الفرصة على غيرها من أمهات المؤمنين .

ولقد أنصت التاريخ فى إكبار يسجل هـذا المشهد الحافل . وتساءل الناس وهم يتبعون محمداً صلى الله عليه وسلم وكأنهم فى حلم عجيب : ما هذه الجموع الحاشدة ؟ وإلى أين تسير ؟ ومن ذلـكم القائد الـكبير ؟ .

ثم طفقوا يسترجعون الذكريات القريبـــة ، كلما أغذوا السير

فى الطريق من يثرب إلى مكة ، وأطلت عليهم جباله ، وانبسطت بين أيديهم رماله .

فمن هذا الطريق سار محمد بن عبد الله منذ أربع سنوات فى جمع قليل وعدد ضئيل (١) يريدون أن يؤدوا نسك العمرة ، فوقفت قريش فى سبيلهم ولم تمكنهم من دخول المسجد الحرام فى ذلك العام .

ومن هذا الطريق سار محمد بن عبد الله منذ ثلاث سنوات ليؤدى عمرة القضاء بعد صلح الحديبية فى جمع من أصحابه بلغت عدته قرابة الألفين ، فصدق الله ورسوله الرؤيا بالحق ، ودخل المسلمون المسجد الحرام آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين .

ثم شهد هذا الطريق محمداً وأصحابه منذ عامين اثنين (٢) يخرجون لنصرة المظلوم ، وردع الظالم ، ولرد قريش عن البغى والعدوان ، بعد أن بالغت فى الاستهتار وأمعنت فى العناد ، ولم تكترث بوعد، ولم ترع حرمة لعهد . وكان المسلمون فى جيش كبير بلغت عدته عشرة آلاف . فجاء نصر الله ودخل الناس فى دين الله ، وخنس الشيطان ؛ وزالت دولة الأوثان ؛ ودوى صوت المؤذن بالتكبير فى أرجاء البلد الأمين .

والآن وبعد عامين من هذا الفتح الأعظم يشهد هذا الطريق محمداً وأصحابه يتوجهون إلى مكة ؛ وقد أصبح العشرة آلاف مائة ألف أو يزيدون .

---

(١) كان ذلك فى عام الحديبية وهو العام السادس الهجرى ، وكان المسلمين حينئذ ألفا وأربعمائة .

(٢) كان ذلك الوقت أيام فتح مكة فى العام الثامن الهجرى .

هكذا ينتصر الحق ينتصر الحق فينموا ويزيد ، وهكذا يزهق الباطل ، وما يبدىء الباطل وما يعيد .

ولم تطل بنفوس المسلمين هذه الخواطر حتى وصلوا إلى ذى الحليفة ، فنزلوا بها وأقاموا ليلتهم . حتى إذا ما أصبحوا أحرم النبى - صلى الله عليه وسلم - وأحرم المسلموا معه ، وبدت هذه الألوف المؤلفة فى زى واحد ، ومظهر واحد ، ومنطق واحد ، قدكشفوا عن رءوسهم الغطاء ، ولبسوا الإزار والرداء ، وانطلقوا يهتفون من أعماق نفوسهم « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك » .

فيا لله لعظمة الحق والإيمان . وما أروعه من نبأ اهتزت له البطحاء ، وسبحت به الحصباء . وباركه رب الأرض والسماء .

ولما بلغ القوم سرف (١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « من لم يكن منكم معه هدى فأحب أن يجعلها عمرة فليفعل ، ومن كان معه هدى فلا » .

ثم بلغ الحجيج مكة فى اليوم الرابع من ذى الحجة . وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون من بعده إلى الكعبة فاستلم الحجر الأسود وقبله ثم طاف بالبيت سبعاً ، هرول فى الثلاثة الأولى منها ، ثم صلى عند مقام إبراهيم . ثم عاد فقبل الحجر مرة ثانية . ثم خرج من المسجد إلى ربوة الصفا حيث سعى بين الصفا والمروة .

ولما انتهى من سعيه نادى فى الناس : ألا يبقى على إحرامه من لا هدى معه . وقال صلوات الله وسلامه عليه : لو إنى استقبلت من أمرى ما استدبرت لما سقت الهدى ولجعلتها عمرة وتحلك منها . وقد تحلل كثير من المسلمين

---

(١) هو مكان بالقرب من وادى فاطمة .

الذين لم يسوقوا الهدى معهم ، وتبعة البقية الأخرى رسول الله صلى الله عليه وسلم على إحرامه .

وفى اليوم الثامن من ذى الحجة ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منى فقضى بها طول يومه ، وقضى الليل كله حتى مطلع الفجر ، ثم أدى صلاة الفجر وركب ناقته القصواء حين بزغت الشمس ثم قصد إلى عرفات .

وهناك وعلى هذا الجبل الخالد وقف صلوات الله وسلامه عليه، وأحاط به المسلمون يلبون ويكبرون ، وتسمو أرواحهم إلى الملأ الأعلى فينسون الحياة ، ولا يفكرون إلا فى ذات الله .

فياله من مجتمع كريم يتلاقى فيه المسلمون من كل فج ، وقد وحد بينهم الهدف والغاية ، وألف بين قلوبهم دين أغناهم من الأحساب والأنساب ، وأنساهم الحمية الجاهلية والعصبية القبلية .

وياله من مؤتمر عظيم يعقد فى كل عام ، ويضم المسلمين فى أرجاء الدنيا على اختلاف أجناسهم ليتعارفوا ويتآلفوا ، ويحققوا معنى الوحـــدة والتضامن ويتشاوروا فيما يكفل لهم الخير ويمكنهم من الأعداء حتى يعملوا على تلافى النقص وبلوغ الكمال .

وفى هذا اليوم الخالد ، وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم وألقى على المسلمين خطبته الجامعة ، التى بين فيها أصول الدين وفروعه ومبادئه وآدابه حيث قال :

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، ومن يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده

ورسوله . أوصيكم عبادي الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته ، واستفتح بالذى هو خير .

أما بعد ، أيها الناس :

اسمعوا منى أبين لكم فإنى لا أدرى ، لعلى ألقاكم بعد عامى هذا ، فى موقفى هذا .

أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا .

ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها .

إن ربا الجاهلية موضوع(١) وإن أول ربا ابدأ به عمى العباس ابن عبد المطلب .

وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وإن مآثر الجاهلية موضوعة ، غير السدانة والسقاية .

والعمد قود : وشبه العمد ماقتل بالعصا والحجر ، وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم .

---

(١) مهدر لا قيمة له ـ لا يعترف الإسلام به

أيها الناس : إنما النسىء زيادة فى الكفر(١) يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه ليواطئوا عدة ماحرم الله .

وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض .

وإن عدة الشهور عند الله إثنا عشر فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم : ثلاث متواليات وواحدة فرد : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذى بين جمادى وشعبان .

ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

أيها الناس : إن لنسائكم عليكم حقاً ، ولكن عليهن حق ، ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعضلوهن(٢) وتهجروهن فى المضاجع . وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان(٣) ، ولا يملكن لأنفسهن شيئا . أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا .

ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة . ولا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه .

---

(١) النسىء : هو تأخير حرمة الشهر إلى الشهر الذى يليه .
(٢) العضل : هو الحبس والتضييق .
(٣) عوان : جمع عانية وهى الأسيرة .

ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده : كتاب الله .

ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى .

ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

فليبلغ الشاهد منكم الغائب .

أيها الناس : إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث . ولا تجوز لوارث وصية ، ولا يجوز وصية فى أكثر من الثلث ، والولد للفراش ، وللعاهر الحجر(١) .

من أدعى إلى غير أبيه ، أو تولى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل . والسلام عليكم ورحمة الله .

وهكذا كانت خطبة الوداع فى حجة الوداع ، وهى خطبة جامعة ووصية رائعة ، تشير كل فقرة منها إلى ما كان يحس به الرسول صلى الله عليه وسلم من قرب الأجل ونهاية الحياة ، فهو يبرىء ذمته ويصفى حسابه مع

---

(١) ينسب الولد إلى أبيه ، أما العاهر وهو الزانى فليس له شىء وقيل إن معنى وللعاهر الحجر ، أى الرجم بالحجارة

الناس ، حتى لا تعظم مسئوليته أمام رب الناس ، وهو يشهد الناس فى كل فقرة على أنه قد أدى الأمانة وبلغ الرسالة ، فيسألهم : ألا هل بلغت ؟ ثم يتجه إلى ربه ويناديه : اللهم اشهد .

وهو يبدأ الخطبة بقوله : لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا .

ثم يقول فى تناياها : فلا ترجعن بعدى كفارا . . فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده .. وكل هذه فقرات واضحة الدلالة على أن صاحبها قد فرغ من الدنيا ، وأنه يتهيأ للحياة الجديدة فى الدار الآخرة ، انتظاراً لما وعده الله سبحانه حيث يقول :

(وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى) .

وكان من الدلالات القوية على دنو أجل الرسول صلى الله عليه وسلم تلك الآية الكريمة التى نزلت على الرسول فى ذلك اليوم وهى قوله تعالى :

(اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

وقد أدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مناسك الحج فى رمى الجمار ، والنحر ، والحلق ، والطواف . وبعد أن أقام بمكة عشرة أيام قفل راجعا إلى المدينة ، ولما رآها كبر ثلاثا ثم قال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير » .

مرض الرسول ووفاته :

وقد جعل الله الذى يقدر الليل والنهار حياة الرسول صلى الله عليه وسلم موقوتة بإتمام رسالته ، فلما تمت الرسالة ، ونزلت الآية الكريمة : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا) كان ذلك آية على أن اليوم الذى قدره الله لرسوله فى هذه الدنيا يوشك أن تغرب شمسه .

وقد أحس الرسول صلوات الله وسلامه عليه بذلك ، فجلس على المنبر فى أخريات أيامه وقال لأصحابه : « إن عبدا خيره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا وبين ماعنده ، فاختار ماعنده » .

فبكى أبو بكر حينما سمع هذا الكلام وقال : « يارسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا ، فأثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبى بكر وقال « إن أمن الناس على فى صحبته وماله أبو بكر ، فلو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الإسلام » .

ثم بدأت أعراض المرض تظهر على الرسول صلى الله عليه وسلم فى أواخر صفر من السنة الحادية عشر للهجرة . وكان حينئذ فى بيت ميمونة بنت الحارث ، وأخذ يتنقل بين بيوت أزواجه . فلما اشتد عليه المرض استأذن منهن أن يمرض فى بيت السيدة عائشة فأذن له .

ولما دخل إلى بيت عائشة واشتد عليه الوجع قال للحاضرات من زوجاته : هريقوا على من سبع قرب لم تحلل أو كيتهن لعلى أعهد إلى الناس . فأجلس فى مخضب وصب عليه الماء حتى شعر بشىء من الراحة ، فأشار إليهن بالاكتفاء .

ثم خرج إلى الناس متوكئا على على بن أبى طالب والفضل ابن العباس .

وتقدم العباس أمامهم ؛ والنبي معصوب الرأس ؛ يخط برجليه حتى جلس فى أسفل مرقاة المنبر . وثار الناس إليه ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس ؛ بلغني أنكم تخافون على الموت كأنه استنكار منكم للموت ؛ وما تنكرون من موت نبيكم ؟ ألم أنع إليكم وتنعى إليكم أنفسكم ؟ هل خلد نبي قبلى فيمن بعث فأخلد فيكم ؟ ألا إني لاحق بربي ، وإنكم لاحقون به . وإني أوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً ، وأوصى المهاجرين فيما بينهم ، فإن الله عز وجل قال : (والعصر . إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) .

وإن الأمور تجرى بإذن الله فلا يحملنكم استبطاء أمر عن استعجاله ، فإن الله عز وجل لا يعجل لعجلة أحد ، ومن غالب الله غلبه ، ومن يخادع الله خدعه ، (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم) .

وأوصيكم بالأنصار خيرا ، فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم ، ألم يشاطروكم الثمار ؟ ألم يوسعوا عليكم فى الديار ؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة . ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم . ألا ولا تستأثر عليهم » .

فقال العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه للرسول : يانبي الله ، أوص بقريش ، فقال : إنما اوصى بهذا الأمر قريشاً والناس تبع لقريش ، برهم لبرهم ، وفاجرهم لفاجرهم . فاستوصوا آل قريش بالناس خيرا ، يا أيها الناس : إن الذنوب تغير النعم ، وتبدل القسم ، فإذا بر الناس برهم أئمتهم ، وإذا فجر الناس عقوهم قال الله تعالى : (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون) .

وقد استمر مرض الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر يوماً ، ولما كان اليوم الثالث عشر من شهر ربيع الأول ومن السنة الحادية عشرة للهجرة ، وحينما كان المسلمون يؤدون صلاة الفجر ، وإذا بهم يفاجأون برسول الله صلى الله عليه وسلم يسعى إليهم فى هدوء ، ويطلع عليهم من باب حجرة السيدة عائشة ، وقد أشرق وجهه بالسرور ، ولمعت بين ثناياه ابتسامة عريضة ، فهم أبو بكر — وكان يؤم المسلمين فى الصلاة — بأن يخلى مكان الإمامة للرسول وظن أنه يريد أن يخرج إلى الصلاة ، وهم المسلمون أن يفتتنوا فى صلاتهم فرحاً برسول الله ؛ ولكن الرسول أشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم ، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر على الباب .

ثم بدأت اللحظات الأخيرة فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان الرسول فى هذه الساعة الفاصلة يغدو ويروح بفكره متنقلا فى أرجاء الماضى العظيم الذى انطوت أيامه بما اشتملت عليه من جلائل الأعمال ، فيراه بين يديه نوراً يضىء جنبات نفسه ، ويكشف أمامه الحجب المغيبة والغيوب المحجوبة ؛ ويريه مقعده الخالد فى جنة الخلد ؛ فيتطلع ببصره إلى السماء ويقول: بل الرفيق الأعلى من الجنة .

وتتحدث السيدة عائشة رضى الله عنها عن هذه اللحظة التى التقى فيها الرسول بربه فتقول : وجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقل فى حجرى ؛ فذهبت انظر فى وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول بل الرفيق الأعلى من الجنة فقلت : خيرت فاخترت والذى بعثك بالحق ؛ وقبض رسول بين سحرى(١) ونحرى .

وهكذا ترجع النفس المطمئنة إلى ربها راضية مرضية لتدخل فى عباده وتدخل جنته .

---

(١) السحر : الرئة أى كان مستندا إلى أنه ما يحاذى الرئة فى صدرها .

وهكذا تنتهى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن لتبدأ من جديد فى مبادىء الإسلام الخالدة ، وكتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وبذلك يكون الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد قضى فى هذه الدنيا ثلاثاً وستين سنة قمرية وثلاثة أيام ، وهو يوازى بالسنين الشمسية إحدى وستين عاما وأربعة وثمانين يوما .

وقد كانت الوفاة فى ضحى يوم الإثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ (٨ يونيو سنة ٦٣٣ م) .

موقف المسلمين من وفاة الرسول :

وكان من الطبيعى أن يقع هذا النبأ الأليم فى نفوس المسلمين موقع الصاعقة ، وأن تصدم به قلوبهم صدمة عنيفة بلغ من عنفها أن ابتلى بها بعض المؤمنين وزلزلوا زلزالا شديداً كذب بعضهم هذا النبأ ، وصمت البعض عن الكلام ، فكان يذهب ويجىء ولسانه معقود ، وخلط البعض فى كلامهم ، فكانوا يهرفون بما لا يعرفون .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيمن كذب بموت الرسول فخرج على الناس وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت ، وإنه سوف يرجع ليقطع أيدى وأرجل رجال من المنافقين يتمنون لرسول الله صلى الله عليه وسلم الموت . إنما واعده الله عز وجل كما واعد موسى وهو آتيكم .

وفى رواية أخرى أنه قال : « أيها الناس : كفوا ألسنتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لم يمت ، والله لا أسمع أحداً يذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علوته بسيفى هذا » .

ولم يكن أحد من المسلمين فى مثل حال العباس وأبى بكر رضى الله عنهما فإن الله أيدهما بالتوفيق والسداد والرضا والاطمئنان لما قضى الله .

فأما أبو بكر فإنه لما بلغه الخبر دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكشف عن وجهه وقبل جبينه وجعل يبكى ويقول : بأبى أنت وأمى ونفسى وأهلى . طبت حياً وميتاً ، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء(١) ، فعظمت عن الصفة ، وجللت عن البكاء ، ولولا أن موتك كان اختياراً منك لجدنا لحزنك بالنفوس ، ولولا أنك نهيت عن البكاء(٢) لأنفدنا عليك ماء العيون ، فأما ما لا نستطيع نفيه عنا فكمد وادكار يتخالفان ولا يبرحان . . اذكرنا يا محمد عند ربك ولنكن من بالك فلولا ما أخلفت من السكينة لم نقم لما خلفت من الوحشة .

ثم خرج أبو بكر بعد ذلك إلى الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« ألا من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت » ثم تلا قول الله تعالى : (إنك ميت وإنهم ميتون) وقوله : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين)(٣) .

وهنا أفاق عمر رضى الله عنه . ورجع إليه صوابه ، فقال : فكأنى لم أكن تلوت هذه الآية قط .

وقد مكث عليه الصلاة والسلام فى بيته بقية يوم الإثنين وليلة الثلاثاء ويومه ، ثم دفن ليلة الأربعاء بعد أن انتهى المسلمون من اختيار أبى بكر للخلافة .

---

(١) يريد انقطاع الوحى لأن الرسول كان خاتم الأنبياء .

(٢) لم ينه الرسول عن البكاء ، وإنما نهى عن التمادى فيه والخروج عن الحد المشروع مما كانت تفعله الجاهلية ، وهذا المعنى هو ما يقصده أبو بكر .

(٣) آل عمران آية ١٤٤

وكان الذى تولى غسله على بن أبي طالب ، والعباس بن عبد المطلب ، وابناه الفضل وقثم ، وأسامة بن زيد ، وشقران مولى رسول الله . وكفن فى ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ولا عمامة ، ولما فرغوا من تجهيزه وضع على سريره فى بيته ودخل الناس عليه أرسالا متتابعين يصلون عليه ولم يؤمهم أحد ، ثم حفر له لحد فى حجرة عائشة حيث كانت وفاته ، وأنزله القبر على والعباس وولداه الفضل وقثم ، ورش بلال قبره بالماء ، ورفع القبر عن الأرض بمقدار شبر .

وهكذا كانت حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهكذا كانت وفاته .

وإن فى ذلك لعبرة بالغة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر .

وصدق الله العظيم (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) .

الفصل الثاني عشر

أزواج النبي ﷺ

يثير هذا الموضوع أهمية بالغة لدى العلماء والمفكرين من المسلمين وغير المسلمين، وذلك لما يبدو فيه من شذوذ يبعث على العجب، وغرابة تدعو إلى التساؤل.

متى كان نبي الإسلام يتميز عن غيره من المسلمين؟ ويبيح لنفسه ما يحرمه على غيره؟

ولماذا يكون عدد الزوجات محدوداً بأربع لجميع المسلمين وتقيد الزيادة عن واحدة بشروط خاصة وفي أحوال خاصة، بينما الرسول وحده هو الذي يتمتع بحرية مطلقة في هذا المجال؟.

وقد انتهز المفكرون من الأجانب هذه الفرصة، وحسبوا أنها نقطة ضعف تشين محمداً صلوات الله وسلامه عليه، فأخذوا يوجهون سهامهم المسمومة، ويطعنون خلق الرسول، ويشوهون من تاريخه الحافل بالفضائل، ويقولون: إنه رجل تسيطر عليه الشهوة الجنسية وتملك زمامه وإنه حينما وجد أن تقييد عدد الزوجات بأربع لا يطفىء غلته ولا يرضى إربته، أطلق لنفسه العنان كما يشاء، فجمع إلى عصمته هذا العدد الضخم من النساء.

وكان من واجب المسلمين الذين يتصدون للكتابة عن تاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجلوا غواشي الشك في مثل هذه النقطة الغامضة حتى لا تضل فيها الأفهام وتزل بها الأقدام، وقد نشطوا لذلك ـ والحمد لله ـ

على توالى العصور والأزمنة ، وبينوا الدوافع القوية التى كانت تحيط بزواج الرسول صلى الله عليه وسلم من كل واحدة من زوجاته الكثيرات ، والتى كانت تجعل هذا الزواج هادفاً إلى المصلحة العامة دون سواها . وأقاموا حججهم على دعائم قوية من المنطق السليم ، فتتبعوا تاريخ محمد وما عرف عنه من العفة والطهارة فى كل فترة من فترات حياته بشهادة أعدائه قبل أصدقائه ، وكيف مرت عليه فترة الشباب الحرجة دون أن يتزوج ، ولم يعرف عنه خلال هذه الفترة ما عرف عن الكثير من أترابه ولداته من النزق والطيش والانحراف العابث ، بل كان فى كل أحواله وظروفه مضرب المثل فى الخلق الكريم والمسلك القويم .

وبعد أن تزوج من السيدة خديجة ، وكانت قد بلغت الاربعين وهو سن يعف عنه الكثير من الشباب ، كان محمد صلوات الله وسلامه عليه راضيا بها ومطمئنا لها ، وسعيداً بالمعيشة معها ، لأنه لا يطلب من الزوجة إلا الإخلاص والوفاء . وقد وجد فى زوجته خديجة الغاية المرجوة من الإخلاص والوفاء .

وهكذا ظل الرسول صلى الله عليه وسلم مع زوجته خديجة حتى بلغ من العمر خمسين عاما ، ثم توفيت السيدة خديجة ، فتزوج الرسول سائر نسائه فى العقد السادس من حياته . وفى مثل هذا العمر تضعف الغريزة الجنسية حتى لدى الأشخاص العاديين الذين لا يرهقهم التفكير ، فما ظنكم بمن حمل الأمانة الكبرى ، ووسدت له الإمامة الكبرى ، ومن استغرقت رعيته وأمته كل دقيقة من تفكيره وكل لحظة فى حياته ؟ . وماذا يمكن أن يبقى له من الطاقة حتى يصرفها ملذاته ؟ أو يقسمها على سائر زوجاته .

ولكن هذا المنطق السليم لم يقنع هؤلاء السادرين فى الغى والضلالة ،

فظلوا على موقفهم من نبي الإسلام ، يطلقون حوله التهم الكاذبة والأراجيف الباطلة .

فماذا يمكن أن يقال لمثل هؤلاء مادام الحقد على نبي الإسلام قد أكل قلوبهم ؟

إلا أننا سنقول لهم وبحق ما نقول :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
ويشتكى الفم طعم الماء من سقم

إننا نقول لهم ذلك ما داموا لا يؤمنون بالقضايا المنطقية . فإذا تجاوزنا ذلك كله فليس يعيبنا أن نقول :

إن هذه خصوصية للرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد أباح الله له ذلك تأليفاً لقلوب القبائل التى يتصل بها برابطة النسب ، حتى لا ينحصر شرف الاتصال بالرسول فى دائرة محدودة ، وحتى يتسع المجال لنشر الإسلام فى أكبر عدد من قبائل العرب ممن يرتبطون بمصاهرة الرسول .

وحينما نزلت الآية الكريمة التى تقول :

(فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) .

حينما نزلت هذه الآية ، كان لابد من تطبيقها على جميع المسلمين عدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ... وكان من يدخل فى الإسلام يطلق ما يزيد على أربع من زوجاته إن كان تحت يده عدد أكبر حتى أن غيلان الثقفى أسلم وتحته عشر نساء فتخلص مما زاد على أربع منهن .

وسواء أكانت هذه الآية قد نزلت قبل أن يزيد عدد نساء الرسول عن أربع ، أو نزلت بعد أن زاد عددهن ، فإن المعروف أن الرسول قد ظل

غير مقيد بعدد خاص حتى نزل قول الله تعالى له (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج) .

فلم يتزوج بعد ذلك .

وحينما لحق بربه كان فى عصمته تسع نساء .

فماذا عسى أن يكون موقف الرسول من هؤلاء الزوجات ؟

إن أزواج الرسول هن أمهات المؤمنين ، وقد أنزلهم الله هذه المنزلة السامية ، فقال سبحانه (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم) .

وقد جعل الله من كرامة الرسول عنده ألا تتزوج واحدة من نسائه من بعده ، فحرم على الناس ذلك بقوله سبحانه فى نفس السورة (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيما) .

وإذا كان الله قد حرم على نساء الرسول أن يتزوجن من بعده فكيف يطلق الرسول النساء الزائدات عن الأربع ، ويقضى عليهن بالترمل أبداً ، بينما يباح الزواج لأية امرأة إذ طلقها زوجها ؟ .

إن من حق زوجة الرسول وهى أم المؤمنين أن تظل طول حياة الرسول لابسة هذا الثوب الكريم الذى جملها الله به ، تعويضا لها عما يمكن أن يصادفها من حرمان لا تتعرض له غيرها من سائر زوجات المسلمين بعد وفاة أزواجهن ، وقد قضى الله بذلك حيث قال لرسوله (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ماملكت يمينك وكان الله على كل شىء رقيبا) .

فهذه الآية تقضى بألا يزيد الرسول فى عدد زوجاته ، وألا يبدل زوجة بأخرى مهما كانت الظروف والأحوال .

ونعود فنقول لهؤلاء المرجفين الذين يتهمون النبى صلى الله عليه وسلم بأنه رجل شهوانى : رويدكم أيها المضللون وحسبكم !! إن الرجل الشهوانى لايطيق أن يصبر على عدد معين من النساء ، لأنه يرى لذاته فى أن يتنقل من زوجة إلى زوجة ، فيقضى مع هذه أسبوعا أو شهراً ثم يبحث عن أخرى ليقضى معها الوقت الذى يليه ، وذلك أمر ميسور للأشخاص العاديين الذين يستجيبون لشهواتهم فترى الرجل منهم إذا أراد أن يتزوج بامرأة أعجبه حسنها وكان تحت يده أربع نساء يطلق الرابعة ثم يتزوج بمن يشاء . وتظل هذه العملية تتكرر كلما صرخ سعار الشهوة فى نفسه . وبهذه الطريقة يستطيع أن يتزوج بتسعين امرأة لا بتسع نساء .

ولابد لنا الآن أن نذكر كلمة موجزة عن الأسباب التى دفعت الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الزواج بسائر زوجاته :

فأما السيدة خديجة بنت خويلد وهى أولى زوجاته ، فقد تعرضنا للحديث عن زواج الرسول منها فى الفصل الثانى من هذا الكتاب .

وأما السيدة سودة بنت زمعة فقد كانت زوجة لرجل يقال له السكران ابن عمرو ، وقد أسلمت مع زوجها وهاجرا معاً إلى أرض الحبشة فى الهجرة الثانية . فلما مات زوجها وعادت إلى مكة كان أهلها لا يزالون على الشرك وخشى الرسول أن يفتنوها عن دينها ، فآثر الزواج بها حماية لها من الفتنة ، وخوفا عليها مما يمكن أن يلحقها من الأذى والعذاب .

وأما السيدة عائشة بنت أبى بكر ، فهى بنت الصاحب الأمين والصديق الصادق للرسول ، وقد كان زواج الرسول لها أعظم أمنية يتمناها أبو بكر رضى الله عنه وتسعد بها نفسه ، وكان من أعز أمانى الرسول أن يستجيب للرغبة التى تمتلىء بها نفس صاحبه الوفى المخلص

ولقد زاد هذا الزواج فى توثيق الرابطة القوية التى كانت بين الرسول وصاحبه . وكانت عائشة رضى الله عنها بما وهبها الله من ذكاء وفطنة وعقل راجح وجمال فى الخلق والخلق ، من أقوى الأسباب فى تدعيم هذه الصحبة والأخوة النادرة المثال .

وأما السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب : فقد كان زواج الرسول لها جبراً لخاطر صاحبه الكريم عمر ، وغسلا لما لحقه من إهانة بسبب ابنته ، ذلك بأنها كانت متزوجة من حصين بن حـــذافة . . وكان ممن شهد بدراً وأصيب فيها ، وقد مات بعد هذه الغزوة ، فلما انقضت عدتها عرضها عمر على أبى بكر ، فسكت . وفى عرض عمر لابنته وهو العربى الأبى على أبى بكر دليل على الثقة المطلقة . وفى سكوت أبى بكر طعنة لعمر يذوب لها قلبه وتضطرب نفسه . وقد ازداد الأمر حرجا بعد أن عرض عمر على عثمان أن يتزوجها بعد موت زوجته رقية بنت الرسول . فاعتذر عثمان . . وكان اعتذاره وموقفه بعد موقف أبى بكر طعنة ثانية اشتد وقعها على عمر . فشكا ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال له الرسول : « يتزوج حفصة من هو خير من عثمان » ثم تزوجها الرسول فى السنة الثالثة من الهجرة ، فأكرم بهذا الزواج صاحبه عمر : كما أكرم أبا بكر من قبله بزواج عائشة .

وأما زينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية فقد تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأس واحد وثلاثين شهراً من الهجرة ، وكانت تسمى فى الجاهلية أم المساكين لبرها بهم وإطعامها لهم . ولما كان زوجها ممن استشهد فى يوم بدر ولم يكن لها من بعده من يعولها : فقد تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم ليضرب المثل لأصحابه فى التضحية كى يقتدوا به

فى الزواج من أمثالها ممن فقدن ويفقدن أزواجهن فى سبيل الله ، وقد كانت كبيرة السن ولم تمكث مع الرسول سوى ثمانية أشهر ثم لحقت بربها .

وأما جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار الخزاعية المصطلقية ، فقد كانت من سبايا بنى المصطلق ، وكان أبوها سيد قومه .. وقد وقعت فى سهم ثابت بن قيس بن شماس ، فكاتبها على مبلغ من المال ثمناً لحريتها ، فألجاتها الضرورة إلى أن تسأل أهل المروءة واليسار لجمع هذا المال ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن لجأت إليهم فى ذلك ، فنظر إليها الرسول نظرة عطف وحنان ، وأحس نحوها بشفقة بالغة . وقال لها : « هل لك فى خير من ذلك ؟ قالت : وما هو يارسول الله ؟ قال : أقضى عنك كتابتك وأتزوجك » فقبلت هذا العرض الكريم الذى يعلى قدرها ويرد كرامتها ، وتزوجها الرسول ، فكان زواجها خيراً وبركة على سائر قومها . وذلك أن أصحاب الرسول بعد أن علموا بهذا الزواج تسابقوا فى إطلاق سراح السبايا والأسرى من بنى المصطلق وقالوا : أصهار رسول الله ، أصهار رسول الله . حتى لقد أعتقوا أهل مائة بيت من قومها ، فأسلم بنو المصطلق جميعاً ، وعرف الناس جميعاً مدى الأثر الحميد الذى ترتب على هذا الزواج .

وأما زينب بيت جحش ، فهى بنت عمة الرسول صلى الله عليه وسلم وحفيدة جده عبد المطلب ، وقد تزوجت أول الأمر من زيد بن حارثة وهو الإبن المتبنى للرسول صلى الله عليه وسلم ، فلما قضى زيد منها وطراً ، زوجها الله لرسوله صلوات الله وسلامه عليه .

وكانت زينب غير موافقة على زواجها من زيد بن حارثة ، ولكن كانت رغبة الرسول قوية فى ذلك ، وقد أيد الله رسوله فى إتمام هذا الزواج حيث نزلت الآية الكريمة (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذ قضى الله ورسوله

أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً) .

فوافقت زينب على الزواج من زيد بعد نزول هذه الآية .

ولكن طبيعتها العربية كانت تتأبى عليها أن ترى فى زيد كفئاً لها ، ولذا ساءت العشرة بينهما ، وكان زيد كثيراً مايشتكى للرسول من إساءتها إليه ، فيقول له الرسول : (أمسك عليك زوجك واتق الله) .

ولما بلغ الأمر بزيد نهايته ، ولم يعد فى قوس الصبر منزع كما يقولون ، طلقها زيد وزوجها الله لرسوله ، أى أمره بالزواج منها ، وكان ذلك لحكمة تشريعية جليلة وهى إبطال تلك العادة الفاسدة التى كانت تحرم زواج المتبنى بزوجة ابنه المتبنى . وذلك لأن هذه البنوة ادعائية فلا يمكن أن تترتب عليها آثار البنوة الحقيقية .

أما ماذهب إليه بعض المستشرقين(١) من قولهم إن محمدا ذهب إلى بيت زيد فرأى زوجته فى ثياب بيتها فوقع حبها فى قلبه ، وأن زيدا حينما أحس برغبة الرسول فى الزواج منها أراد أن يطلقها ، فتظاهر الرسول بالرفض وقال له : (أمسك عليك زوجك واتق الله) لكنه كان يخفى فى نفسه من حبها ورغبته فيها ما أبداه الله وأظهره فعلا . وكان بهذا يخشى الناس فى عدم إظهار حبها . . إلخ .

فهذا كلام يتجافى مع سياق الآية الكريمة ، لأن ختام الآية يظهر

---

(١) نقل هؤلاء المستشرقون هذا الكلام عن بعض المفسرين .
والحق أن هذا الكلام مدسوس ومفترى وهو من الإسرائيليات التى وضعت فى بعض كتب المسلمين .

الشر فى إرادة الله لهذا الزواج الذى ألزم به نبيـــه فهو سبحانه يقول : (زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً) .

والواقع أن الله عز وجل أراد أن يحمل من زينب بنت جحش رضى الله عنها تطبيقاً عملياً لمبدأ من مبادىء الإسلام يهدم ما كان عليه العرب فى الجاهلية وهو أن زوجة (الإبن) المتبنى لا تحرم بعد طلاقها على (الوالد) المتبنى ، فقضى بأن يتزوج زيد من زينب على الرغم من رفضها فى مبدأ الأمر واضطرارها للموافقة بعد نزول الآية الكريمة (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) إلخ الآية . . ثم قضى بأن يتزوجها الرسول بعد طلاق زيد لها .

وأما قوله تعالى : (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه) فليس معناه أنه كان يخفى حبها فى نفسه ولا يظهر الحقيقة لزيد ، وإنما يقصد به أنه كان يخفى أمر الله له بالزواج منها ، ويخشى الناس ، أى يخشى قول الناس : تزوج محمد من زوجة متبناه ، ويؤكد ذلك قول الله تعالى : (زوجناكها) أى ألزمناك بالزواج منها . مع خوفك من عواقب هذا الزواج وعدم رغبتك فيه .

وأما أم سلمة ، فهى هند بنت أبى أمية المخزومية . وكانت قبل زواجها من الرسول زوجاً لعبدالله بن عبد الأسد المخزومى ، وهو من المسلمين السابقين ، وقد هاجرت إلى المدينة وتحملت كثيراً من المتاعب والآلام ، وكانت أول مسلمة هاجرت فى سبيل الله .

وقد أصيب زوجها فى غزوة أحد ثم مات شهيداً فعزاها الرسول قائلا « سلى الله أن يؤجرك فى مصيبتك ويخلفك خيرا » قالت : ومن يكون خيرا

من أبي سلمة ؟ وقد خطبها كل من أبي بكر وعمر فلم تقبل : فخطبها الرسول وتزوجها تكريماً لجهادها ، وإعانة على تربية أولادها ، وقد كانت من أفضل أمهات المؤمنين .

وأما صفية بنت حي بن أخطب : فقد كانت من يهود بنى النضير ، وقد قتل أبوها من بنى قريظة وقتل زوجها فى خيبر . فاصطفاها الرسول وأعتقها وتزوجها ، وقد أسلمت وأسلم بإسلامها كثير من أهلها وكانت تتصل فى نسبها بهارون عليه السلام ولاشك أن شرف نسبها هو الذى دفع الرسول إلى الزواج منها صيانة لها عن هوان الرق ومذلته، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحافظ على شعورها وكرامتها . ومن ذلك ما روى من أن عائشة وحفصة رضى الله عنهما قالتا لها : نحن أكرم على رسول الله منك ، فشكت ذلك للرسول فقال لها : « ألا قلت لهما وكيف تكونان خيراً منى وزوجى محمد وأبى هارون وعمى موسى ؟ » ، وما روى من أن السيدة زينب أم المؤمنين لقبتها مرة باليهودية ، فهجرها رسول الله صلى الله عليه وسلم شهرين كاملين عقوبة وتأديباً .

وأما أم حبيبة : فهى رملة بنت أبى سفيان صخر بن حرب ، وقد أسلمت هى وزوجها عبد الله بن جحش ، وكانا من المهاجرين إلى الحبشة حينما اضطهد المسلمون فى مكة . ولكن زوجها غلبت عليه شقوته فضل السبيل وارتد عن الإسلام . وأما هى فبقيت ثابتة على عقيدتها وضربت بذلك مثلا عالياً فى الشجاعة والتضحية والإخلاص لله ورسوله . وكان لابد من إنقاذها من هذه المحنة وهى فى دار الغربة بعيدة عن كل عون ومساعدة ، فكتب النبى إلى النجاشى ليزوجها له ، فعقد عليها بالحبشة ودفع لها الصداق نيابة عنه وتولى عقدها (خالد ابن سعيد بن العاص) وكان ابن عم أبيها . ثم رجعت إلى المدينة سنه سبع من الهجرة لتأخذ مكانها بين أمهات المؤمنين .

وأما ميمونة بنت الحارث الهلالية : فقد تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى طريقه لعمرة القضاء سنة سبع من الهجرة ، وذلك تأليفاً لقلوب أهلها فى الإسلام : وقد تم بالفعل ، فأسلم كثير منهم نتيجة لهذا الزواج ، وهى آخر امرأة تزوجها الرسول ، وقد قالت عنها السيدة عائشة : أما إنها كانت من أتقانا لله وأوصلنا للرحم ، وكفى بهذه الشهادة من عائشة فخراً لها وشرفاً .

ذكر طرف من أخلاقه صلى الله عليه وسلم

لقد أدب الله رسوله فأحسن تأديبه ، ومنحه من كمال الخلق وجميل الصفات ما لم يمنحه لأحد من العالمين . وأمره أن يكون رمزاً للخير والبر فقال له : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) .

وقال له فى آية أخرى : (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) .

وقال : (واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون) .

وقد تواترت الأخبار على حسن امتثال الرسول لما أمره الله به من هذه الصفات الكريمة . فما من حليم إلا عرفت له بعض الزلات والهفوات . ولكن النبى محمداً صلوات الله وسلامه عليه لم يكن يزداد على كثرة الإيذاء إلا صبراً وحلماً .

قالت عائشة رضى الله عنها «ما خير عليه السلام فى أمرين قط إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه ، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله . ولما فعل المشركون به ما فعلوا فى يوم أحد قال : اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون .

وفيما يروى عن أنس رضى الله عنه أنه قال : كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم وعليه برد غليظ الحاشية فجذبه أعرابى بردائه جذبة شديدة حتى أثرت حاشية البرد فى صفحة عنقه ثم قال : يا محمد احمل لى على بعيرى هذين

من مال الله عندك ، فإنك لاتحمل لى من مالك ولا من مال أبيك .. فسكت النبي ثم قال : المال مال الله وأنا عبده ، ثم قال : ويقاد منك يا أعرابى مافعلت بى ، قال : لا . قال : لم ؟ قال : لأنك لاتكافىء بالسيئة السيئة . فضحك عليه السلام ، ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير ، وعلى الآخر تمر .

ولما أسر المسلمون ثمامة بن أثال الحنفى . وكان من عظماء بنى حنيفة وجىء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عامله أكرم معاملته ، وعرض عليه الإسلام فأبى ، فأطلق سراحه ،وهو القادر حينئذ على أن يقتله أو ينكل به ، ولما رأى ثمامة هذه المعاملة وهذه المكارم وجد من العقل أن يفىء إلى الرشد ، وألا يمعن فى اتباع الهوى ويترك دينا عماده المحامد ، فرجع إلى رسول الله وقد أشرق الحق فى نفسه ،وخالطت بشاسة الإيمان قلبه،وخاطب الرسول قائلا ، « يامحمد » والله ما كان على الأرض من وجه أبغض على من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلى ، والله ماكان إلى الأرض من دين أبغض إلى من دينك ، فقد أصبح أحب الدين كله إلى ، والله ماكان من بلد أبغض إلى من بلدك فقد أصبح أحب البلاد إلى وقد سر الرسول كثيرا بإسلامه ، لأنه سيد قومه وكلمته فيهم نافذة ، وكان إسلامه خيراً وبركة على قومه ، وأساسا لهدايتهم بعد ذلك إلى الإسلام .

وكان صلوات الله وسلامه عليه أشد الناس حياء ، وأكثرهم عن العورات إغضاءاً . قالت عائشة : كان عليه السلام إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل ما بال فلان يقول كذا وكذا ، بل يقول : ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا ، فكان ينهى عن الشىء ولا يسمى فاعله .

وكان عليه السلام يؤلف الناس ولاينفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم . ويتفقد أصحابه ، ويعطى كل جلسائه نصيباً حتى لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ، من جالسه أو قاربه لحاجة صابره حتى

يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول . قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده فى الحق سواء .

وكان دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب ولا فحاش ولا سباب .

قال له سبحانه : (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر) .

وقال : (ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) .

وكان عليه السلام يجيب من دعاه ، ويقبل الهدنة مهما كانت ، ويكافىء عليها بمثلها أو بأحسن منها ، وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ، ويلاعب صبيانهم ويجلسهم فى حجره ، ويعود المرضى فى أقصى المدينة ، ويقبل عذر المعتذر .

وكان يبدأ من لقيه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، ولم ير قط مادا رجليه بين أصحابه حتى يضيق بها على أحد ، وكان يكرم من يدخل عليه ، ويكنى أصحابه ، ويدعوهم بأسمائهم تكرمة لهم .

وأما الشفقة والرحمة بجميع الخلق فقد وصفه الله بها فى قوله : (عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) .

وقوله : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

وقد روى أن أعرابيا جاءه يطلب منه شيئا فأعطاه ثم قال : « أأحسنت إليك ؟ قال الأعرابى : لا ، ولا أجملت ، فغضب المسلمون وقاموا إليه .

فأشار إليهم أن كفوا . ثم قام ودخل منزله وأرسل إليه وزاده شيئا ثم قال: « أأحسنت إليك » ؟ فقال : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا فقال عليه السلام : « إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى من ذلك شىء ، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى حتى يذهب ما فى صدورهم عليك . قال : نعم ، فلما كان الغد أو العشى جاء ، فقال عليه الصلاة والسلام : إن هذا الأعرابى قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضى ، أكذلك ؟ قال : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً ، فقال عليه السلام : مثلى ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا ، فناداهم صاحبها : خلوا بينى وبين ناقتى فإنى أرفق بها منكم وأعلم ، فتوجه لها بين يديها ، فأخذ لها من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت ، وشد عليها رحلها واستوى عليها ، وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار » .

وأما تواضعه عليه السلام مع ما أكرمه الله به من النبوة ورفعة الدرجة والمكانة ، فقد كان أشد الناس تواضعا وأبعدهم عن الكبرياء والغرور .

ولا غروا فقد خيره الله أن يكون نبيا ملكا ، أو نبيا عبداً ، فاختار أن يكون نبيا عبدا .

وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يوما متوكئا على عصا فقاموا فقال : « لاتقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا » .

وقال : إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » .

وكان يقول « لاتطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد الله ورسوله » .

وأما عن زهده فقد نظر إلى الدنيا على أنها وسيلة وممر ، ونظر إلى

الآخرة على أنها غاية ومستقر ، وقد استجاب عن رضاء وإيمان لما أمره الله به فى قوله (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى) .

وكانت عائشة رضى الله عنها تقول : ما شبع عليه السلام ثلاثة أيام تباعا من خبز حتى مضى لسبيله .

وتقول : ما ترك عليه السلام دينارا ولا درهما ولا شاة ولا بعيرا ولقد مات وما فى بيتى شىء يأكله ذو كبد إلا سطر شعير فى رف لى .

وروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « عرض على أن يجعل لى بطحاء مكة ذهبا فقلت : لا يارب أجوع يوما وأشبع يوما ، فأما اليوم الذى أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك . وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك » .

وقالت عائشة : إنا كنا آل محمد - لنمكث شهرا ما نستوقد نارا إن هو إلا التمر والماء .

وقالت عائشة : لم يمتلىء جوف النبى عليه السلام شبعا ، وإن كان ليظل جائعا حتى كنت أبكى رحمة له مما أرى به ، وأمسح بيدى على بطنه مما أرى به من الجوع وأقول : نفسى لك الفداء لو تبلغت من الدنيا ما يقوتك !! فيقول « يا عائشة مالى والدنيا ؟ إخوانى من أولى العزم من الرسل صبروا على ماهو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم . فأجدنى أستحى إن ترفهت فى معيشتى أن يقصر بى غدا دونهم ، وما من شىء أحب إلى من اللحوق بإخوانى وأخلائى » .

وكانت عبادته لربه على قدر علمه بما أعد الله من ثواب للمؤمنين المخلصين من عباده ، وما أعد من عقاب للمذنبين الضالين ، ولذا كان يقول

« والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا . وما تلذذتم بالنساء على الفرش ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى » .!!

وهكذا كان خلق الرسول صلى الله عليه وسلم تنفيذا عمليا لما وصاه الله فى كتابه العزيز ، وهى الوصايا التى ذكرنا طرفا منها والتى تنتظمها تلك الكلمة الجامعة المأثورة عنه حيث قال :

« أوصانى ربى بتسع أوصيكم بها ، أوصانى بالإخلاص فى السر والعلانية ، والعدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الغنى والفقر : وأن اعفو عمن ظلمنى ، واعطى من حرمنى ، واصل من قطعنى ، وان يكون صمتى فكراً ، ونطقى ذكرا ، ونظرى عبرا ! ! » .

أهم مراجع الكتاب

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ كتب التفسير : وأهمها تفسير الفخر الرازى وتفسير القرطبى

٣ ـ كتب السنة : وأهمها فتح البارى شرح صحيح البخارى ، وشرح صحيح مسلم للنووى .

٤ ـ ابن هشام : ٢١٣ هـ سيرة ابن هشام .

٥ ـ ابن سعد : ٢٣٠ هـ الطبقات الكبرى لأبى عبد الله محمد ابن سعد .

٦ ـ اليعقوبى : ٢٩٢هـ تاريخ اليعقوبى لأحمد بن أبى يعقوب

٧ ـ الطبرى : ٣١٠ هـ تاريخ الأمم والملوك .

٨ ـ المسعودى : ٣٤٦هـ مروج الذهب .

٩ ـ أبو إسحاق النيسابورى: ٤٢٧هـ قصص الأنبياء .

١٠ ـ الماوردى : ٤٥٩هـ الأحكام السلطانية

١١ ، ١٢ ـ ابن الأثير : ٣٦٠هـ (أ) الكامل فى التاريخ ، (ب) أسد الغابة فى معرفة الصحابة .

١٣ ـ ابن قيم الجوزية : ٧٥٢هـ زاد المعاد فى هدى خير العباد .

١٤ ، ١٥ ـ ابن كثير : ٧٧٤ هـ (أ) قصص الأنبياء لأبى الفداء إسحاق ابن كثير ، (ب) البداية والنهاية .

١٦ ، ١٧ ـ ابن خلدون : ٨٠٨هـ (أ) المقدمة ،(ب) تاريخ ابن خلدون .

١٨ ـ تقى الدين الفاسى : ٨٣٢هـ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام .

١٩ ـ ابن حجر : ٨٥٢هـ الإصابة فى تمييز الصحابة .

بعض المراجع الحديثة

٢٠ ـ أصحاب بدر : شرح المرحوم الحاج محمد رءوف العلامى. منظومة جده المرحوم الحاج حسين العلامى.

٢١ ـ الرسول ﷺ « لمحات من حياته ونفحات من هديه » للأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود .

٢٢ ـ الرسول القائد : للواء الركن الحاج محمود شيت خطاب .

٢٣ ـ التاريخ الإسلامى : للدكتور أحمد شلبي .

٢٤ ـ الحقبة المثاليه : للدكتورين إبراهيم شعوط ومحمود زيادة .

٢٥ ـ تاريخ العرب وعصر الرسول ﷺ للدكتور عبد الفتاح شحاته .

٢٦ ـ تاريخ مكة : للأستاذ أحمد السباعى .

٢٧ ـ حياة محمد : للدكتور محمد حسين هيكل .

٢٨ ـ دراسات إسلامية : للدكتور محمود زيادة .

٢٩ ـ دعوة الرسل إلى الله : للمرحوم الشيخ محمد أحمد العدوى .

٣٠ ـ رسالة التوحيد : للمرحوم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .

٣١ ـ سيرة الرسول : للدكتور محمد مصطفى النجار .

٣٢ ـ ظهور الإسلام : للدكتور عبد الحميد بخيت :

٣٣ ـ عصر ما قبل الإسلام : للأستاذ محمد مبروك نافع .

٣٤ ـ فقه السيرة : للأستاذ الشيخ محمد الغزالى .

٣٥ ـ فى منزل الوحى : للدكتور محمد حسين هيكل .

٣٦ ـ قصص الأنبياء : للأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار .

٣٧ ـ القول المبين فى سيرة سيد المرسلين	: للدكتور محمد الطيب النجار .
٣٨ ـ مجتمعات إسلامية	: للدكتور محمود زيادة .
٣٩ ـ محاضرات فى تاريخ العرب	: للدكتور صالح أحمد العلى .
٤٠ ـ من وحى البلد الأمين	: للدكتور محمد الطيب النجار .
٤١ ـ نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين	: للشيخ محمد الخضرى .

فهـــرس

كتاب القبس الوضاء

في سيرة خاتم الانبياء

الموضوع | الصفحة

الفصل الأول

على هامش السيرة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفصل السادس

الفصل السابع

غزوة الأحزاب « الخندق »

الموضوع	الصفحة

الفصـــل العاشر

الفصل الحادى عشر

(تم بحمد الله)